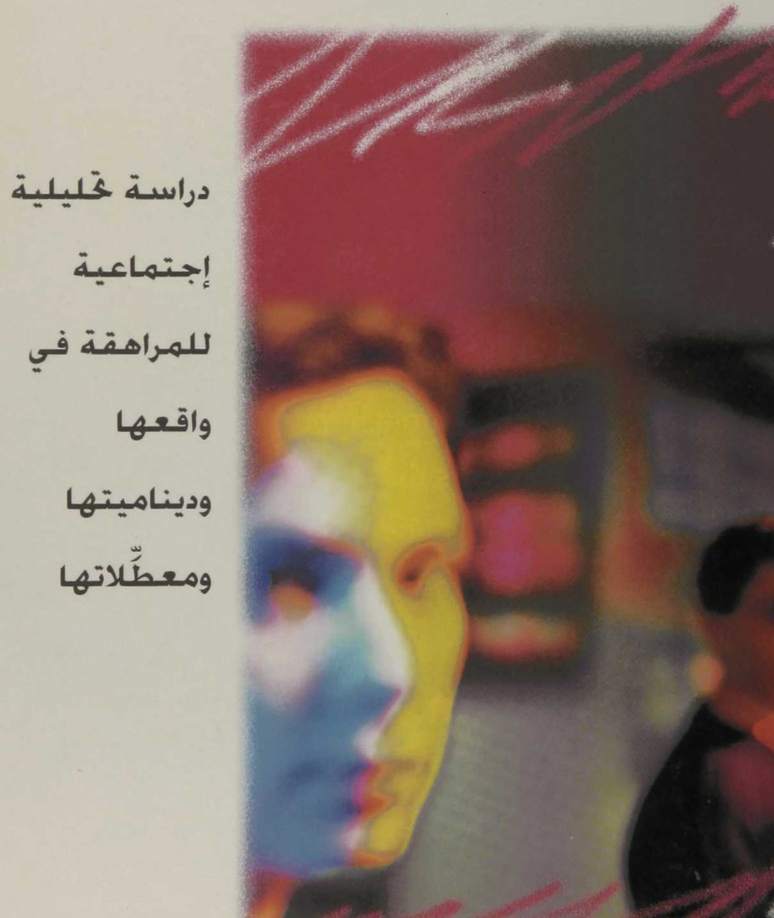
المراهقة

أزمة هوية أم أزمة حضارة



دراسة تحليلية
إجتماعية
للمراهقة في
واقعها
وديناميتها
ومعطّلاتها

د. عبد اللطيف معاليقي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

المراهقة
أزمة هوية أم أزمة حضارة

الدكتور عبد اللطيف معاليقي

الدراسات النفسية

المراهقة
أزمة هوية أم أزمة حضارة

دراسة تحليلية ـ اجتماعية للمراهقة في واقعها وديناميـاتها ومعطلاتها

الدكتور عبد اللطيف معاليقي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الثالثة ٢٠٠٤

تصميم الغلاف: جومانا ابو شقر

الاخراج الفني : منى التالي

المحتوى

الفصل الثاني: الاتجاهات الأساسية في دراسة المراهقة.

أولاً: الاتجاهات البيولوجية: دراسة الجانب البيولوجي في المراهقة.

- نظرية «هول».

- نظرية «جزل».

ثانياً: الاتجاهات النفسانية: دراسة الجانب النفسي في المراهقة.

- الاتجاه «الفرويدي».

- موقف «أنا فرويد»: الأواليات الدفاعية: التعفف والعقلنة.

- موقف «اريكسون»: مسألة الهوية الذاتية.

- موقف «ماندل»: أزمة الأجيال.

- موقف «دوتش»: مراحل تطور الجنسية.

ثالثاً: الاتجاهات الاجتماعية: دراسة الجانب الاجتماعي في المراهقة.

- الدراسة الوصفية ـ الإحصائية: مكانة المراهق من مجموع السكان.

- الدراسة التفسيرية.

- المنطلق الأسري.

- المنطلق الطبقي ـ الاجتماعي.

- المنطلق الثقافي ـ الحضاري.

الفصل الثالث: عمليات النمو في المراهقة

أولاً: النمو العضوي.

- النمو في الطول.

تمهيد

تتميز مرحلة المراهقة بأنها المرحلة الانتقالية في حياة الإنسان: انتقال من الطفولة سن الاعتماد على الغير، إلى الرشد سن الاعتماد على النفس. فهذه الفترة ما بين الطفولة والرشد تسمى مرحلة المراهقة أو مرحلة الشباب وهي مرحلة مليئة بالصراعات والقلق والثورة، تتحدّد من خلالها اتجاهات وميول جديدة تدفع بالمراهقين إلى آفاق مختلفة ومتباينة.

وإذا كانت هذه المرحلة من مراحل النمو في حياة الإنسان تتصف بأنها مرحلة التحولات السريعة والتغيرات المفاجئة، خصوصاً على صعيدي التفكير والعلاقات الاجتماعية، فإنها أيضاً المرحلة التي تصبح فيها مراكز الاهتمام أكثر بُعداً وارتباطاً اجتماعياً، وتنمو فيها الدوافع باتجاه النقد والنقاش والتحليل وتفهُّم القيم والأمور التي قد تتعارض مع نموه السريع والمفاجئ، ومع قلة خبرته ومحدوديتها.

إن أهمية هذه المرحلة تفرضها مسؤولية المعرفة بحقيقتها وديناميتها ودراسة خصائصها وعملياتها ومثيراتها من أجل ضبطها وتوجيهها وتنظيمها، وبالتالي لكي يتحقق للمجتمع جيل من الشباب بعيد عن التقلب والثورة على نفسه وعلى مجتمعه، والجنوح في سلوكه.

ولا شك أن العوامل التي فرضت تطور الدراسات لمرحلة المراهقة هي كثيرة ومتعددة. من أهم هذه العوامل على الصعيد المعرفي العام، تطور الدراسات في العلوم الفيزيولوجية والعلوم الاجتماعية: فالعلوم الفيزيولوجية طرحت مشكلة العلاقة بين النمو العضوي والنمو العقلي عند الإنسان، والعلوم الاجتماعية أسهمت في تحديد المؤثرات الثقافية في ارتقاء شخصيته.

إلى جانب ذلك، فإن اهتمامات أخرى دفعت إلى تطور هذه الدراسات، منها أهمية الشباب في حركة التغيير الاجتماعي والسياسي، نظراً لما يتصف به هؤلاء من حماس واندفاع إلى التغيير ورفض التقاليد والأعراف البالية. ثم إن ضرورة التوجيه المهني ومعرفة استعدادات المراهقين وميولهم لملاءمتها مع التوجهات المهنية، إضافة إلى انتشار حركات ومنظمات الشبيبة التي أظهرت أهمية الحياة الجمعية والعلائقية في حياة الشباب وتأثيرها في تأكيد الهوية الذاتية، كانت من العوامل البارزة في الاهتمام بهذه المرحلة. وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن انتشار الانحراف عند الأحداث نتيجةً لتطور الحياة المدينية وما رافقها من نشوء المجمّعات السكنية والأحياء المكتظة، وبالتالي انتشار العنف والجرائم والمخدرات بين الشباب، كل هذا نبّه إلى خطورة هذه المشكلة ووجّه الاهتمام نحو مشاكل الانحراف عند المراهقين وإيجاد الحلول الملائمة لها.

والدراسات الحديثة في المراهقة تتخذ اليوم منحىً جديداً نتيجةً للتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية التي أوجدتها ظروف التطور التقني، الذي جعل من الآلة أداة سيطرة على حياة الإنسان، وانهيار القيم والتقاليد القديمة وتهافت المُثل العليا عند الشبيبة. فالدراسات تتجه في غالبيتها إلى الاهتمام بالمراهقة كظاهرة اجتماعية، والتركيز على المظاهر الاجتماعية ـ النفسية والمشاكل التي تنتج عنها.

ولا شك أن ازدياد عدد الشباب في العالم بالنسبة إلى عدد أفراد المجتمع، وتعقد حياة المراهقين الاجتماعية بسبب طول فترة الإعداد للحياة وعدم توافر إمكانات العمل لهم بعد انتهاء تخصصهم وإعدادهم المهني، بالإضافة إلى ازدياد الوعي لدى هؤلاء المراهقين، وتفهمهم لواقعهم بانتشار وسائل الإعلام، قد نبّه إلى خطورة هذه الظاهرة. فنرى اليوم أكثر المربين والنفسانيين الذين يهتمون بمشاكل المراهقين والشباب يركّزون بحوثهم على إظهار العوائق التي تؤخر عملية تكيف المراهقين وتفسيرها.

فأهم الدراسات لمرحلة المراهقة تتناول اليوم الجانب النفسي ـ الاجتماعي

لأبراز المعضلات التي تجابه المراهق في حياته العلائقية الداخلية والخارجية، ومشكلة وعي الذات وصراع الأجيال، ودراسة الاضطرابات التي تنتج عن سوء التكيف مع العائلة ومع المدرسة والمجتمع، مثل الانحراف والإدمان وعصُب العنف والرفض وغيرها.

وتتجه الدراسات هذه إلى اعتبار ان الأزمات و الاضطرابات التي تحدث في مرحلة المراهقة، ما هي إلا مظاهر للوضع المأزمي الذي يعيش فيه المراهق، فسوء التكيف والسلوك الانحرافي من عدوان وتمرد ورفض، هي حالات تعود إلى الظروف الاجتماعية، في الأسرة أو المدرسة والمجتمع، التي يتعرض لها المراهق، فتسبب له هذه التوترات وهذا التكيف اللاسويّ.

القسم الأول

عوامل المراهقة وديناميكيتها

الفصل الاول

تحديد المراهقة وتعريفها

أولاً: التعريف البيولوجي

١ ـ معنى البلوغ وعلاقته بمفهوم المراهقة

٢ ـ العوامل التي تؤثر في إحداث البلوغ

٣ ـ أسباب البلوغ

٤ ـ البلوغ من وجهة النظر القانونية

٥ ـ تعريفات أخرى

ثانياً: التعريف البيو ـ نفسي

١ ـ فرويد والتحليل النفسي: النضج الداخلي ومبدأ التكرار أو الإعادة

٢ ـ الأواليات الدفاعية والصراعات

ثالثاً: التعريف الاجتماعي ـ العلائقي

١ ـ التشديد على أهمية العوامل الاجتماعية ـ الحضارية

٢ ـ أهمية الدور والمكان الاجتماعيين

رابعاً: التعريف التكاملي

١ ـ مستويات المراهقة

٢ ـ تفاعل العوامل

التعريف بمفهوم المراهقة: الأنماط المفاهيمية المختلفة في تحديد المراهقة

إن مصطلح «مراهقة» باللغة الأجنبية "adolescence" يشتق من الكلمة اللاتينية "adolescentia" التي تشتق ككلمة "adolescens" من الفعل اللاتيني "adolescere" الذي يترجم إلى اللغة الأجنبية بمعنى «كبر» (grandir). فإذا أخذنا إذن كلمة مراهقة بالمعنى الحرفي، فإنها تشتمل على كل المرحلة العمرية التي تتصف بالنمو والتطور. وفي الواقع، فإن هذا المصطلح يطبق على مرحلة محدودة من مراحل حياة الكائن، يصل خلالها نموه الجسمي إلى نهايته. بهذا المعنى المحدَّد نجد الكثيرين من الدارسين يعرِّفون المراهقة على أنها المرحلة التي يكتمل فيها نمو الكائن الجسمي. وفي معجم «ليتريه» (Littré) نجد تعريفاً للمراهقة، باعتبارها المرحلة التي ينتقل فيها الكائن من الطفولة إلى الرشد، أي أن المراهقة هي الانتقال من مرحلة الاتكالية إلى مرحلة الاعتماد على الذات.

أما في التعريف العلمي المحض فإننا نجد اختلافات كبيرة في الآراء والأفكار تبيِّن أهمية هذا المفهوم، ذلك أن مصطلح المراهقة يختلط بمفهوم البلوغ.

ما معنى البلوغ، وما هي علاقته بمفهوم المراهقة؟

أولاً: التعريف البيولوجي

يشكل البلوغ المظهر البيولوجي لمرحلة المراهقة، وهو يشمل المرحلة التي يصبح فيها الكائن قادراً على التناسل (حسب معجم «ليتريه» (Littré). ويحدث البلوغ، عادة، في فترة محدَّدة، نسبياً، من فترات النمو عند الكائن، ويُصاحَب بسلسلة من التغيرات تكون ظاهرة على مستوى الأعضاء التناسلية.

والمعنى الحقيقي لكلمة بلوغ بالأجنبية هو (puberté) التي تشتق من اللاتينية "puber" أو "pubes"، وتعني شعر العانة.

وفي الواقع يُقصد بالبلوغ المرحلة التي يتم فيها النضج الجنسي الذي يحصل عند الإنسان خلال مراحل تستمر لفترات طويلة، تنتهي عادة في الوقت الذي تصل فيه الفتاة إلى مرحلة نضج المبيضين وبدء الطمث[1]، والفتى إلى مرحلة القذف[2].

ولكن لا يجوز الاعتقاد بأن أول الحيض يُصاحَب، بالضرورة، بتحرر البيوض من المبيض، وأن أول القذف يحتوي على الحي المنوي الذكري.

هنا إذن تكمن صعوبة معرفة الفترة التي تبدأ وتنتهي فيها مرحلة البلوغ عملياً، أي الفترة التي يصبح فيها الكائن قادراً على التناسل، لأنه من الخطأ الاعتقاد، كما تجمع الدراسات، بأن البلوغ يُحدَّد بظهور الطمث أو قذف المني. فعملية البلوغ هي عملية تحوُّل كلي لمختلف أعضاء الكائن وأجهزته، وليس فقط عملية تغير في الجهاز التناسلي.

بصورة عامة، يُحدَّد ابتداء البلوغ عند الأنثى انطلاقاً من عمر ١١ سنة، ويستمر إلى حوالى ١٦ ـ ١٧ سنة؛ ويحدث البلوغ عند الذكر في وقت متأخر ويستمر لمدة أطول: من ١٢ إلى ١٨ سنة تقريباً.

وقد قسمت هذه المرحلة الطويلة في النضج المتدرِّج إلى ثلاث فترات:

ـ الفترة الأولى: ما قبل البلوغ (pré-puberté)، من سنة ونصف إلى سنتين

ـ الفترة الثانية: فترة البلوغ (puberté) التي يطلق عليها اسم أزمة البلوغ، مدتها من ستة أشهر إلى سنة.

ـ الفترة الثالثة: ما بعد البلوغ (post puberté) وتستمر من سنة إلى سنتين.

---

١ ـ الطمث: أو الحيض عند ابتداء انتاج البيوض Ovulation

٢ ـ القذف: Ejaculation des spermes (اي قذف الحي المنوي Spermatozoïdes)

إن هذه التحديدات وهذه الأرقام هي، في الواقع، تحديدات وارقام تقريبية، شأنها شأن التحديدات الزمنية لبداية البلوغ ونهايته. ذلك أن عملية البلوغ تختلف باختلاف العرق والجماعة الاجتماعية والظرف التاريخي.

العوامل التي توثر في إحداث البلوغ

تُجمِع الآراء اليوم على أن هناك ثوابت عرقية ووراثية لها تأثيرها في عملية البلوغ المبكر أو المتأخر. كما أن هناك اعتقادات خاطئة حول مؤثرات البلوغ، منها أن البلوغ يحدث في سن مبكرة عند الشعوب سكان المناطق الجنوبية، بينما يتأخر عند الشعوب سكان المناطق الشمالية.

ولتوضيح ذلك كان لا بدَّ من البحث في العوامل التي لها دور في تسريع عملية البلوغ أو تأخير ها.

١) إن المناخ الحار والشمس والضوء هي عوامل تؤثر في البلوغ المبكر. ولكن لوحظ أن هناك شعوباً إفريقية لا يظهر البلوغ عند أفرادها قبل عمر ١٦ سنة. ولا يمكن الأخذ بهذه الحالات كقاعدة عامة، وإنما هي في الواقع حالات استثنائية. فأمر طبيعي أن يحدث الطمث عند الإناث في إفريقيا عامة والشرق لدى بلوغهن ٩ سنوات أو ١٠ سنوات.

٢) ظروف الحياة والمستوى الاجتماعي لهما تأثيرهما أيضاً. فعادة تتأخر سن البلوغ لدى الطبقات الفقيرة عن تلك السن لدى الطبقات الغنية. ومن المنطقي الاعتقاد بأن سوء التغذية، بالاضافة إلى سوء العناية الصحية، يشكلان مصدر أمراض تضعف الجسم وتؤثر في تأخير عملية البلوغ كما تؤثر في تأخير عملية النمو بصور عامة. وقد تبيَّن أن جميع الأسباب التي يمكن أن يكون لها تأثير في عملية النمو تنعكس على عملية البلوغ. لذلك يلاحظ أن تطور ظروف الحياة في البلاد النامية اقتصادياً أدَّى إلى الازدياد المطرد والعام في طول قامة الأفراد. وهذا الازدياد في القامة صاحبه ازدياد في إمكانية البلوغ المبكر، وخصوصاً عند الذكور. فاليوم

نرى ان الذكور الذين تظهر عليهم علامات النضج الجنسي ما بين ١٢ـ١٤ سنة، هم أكثر عدداً عما كانوا عليه قبل ثلاثين سنة أو أربعين.

يفسِّر بعض الدارسين ذلك بشدة الاستثارات للجهاز السمباتي[٣]، والتي تحدثها الحياة العصرية. فالضوء الاصطناعي والضجيج والاستثارات البصرية والعاطفية تستثير جميعها الجهاز العصبي مما يؤدي إلى تنشيط عملية الأيض (métabolisme) وهذا ما يفسر التزايد في القامة والظهور المبكر لعلامات البلوغ.

تأثير المنشطات الجنسية:

لقد تبيَّن في الموتمر الذي عُقد مؤخراً في «فلورنسا» بدعوة من «الجمعية الإيطالية النسائية للطفل والمراهق» (Société italienne de gynécologie de l'enfant et de l'adolescent)، أن المنبهات الجنسية التي تبثها وسائل الإعلام والدعاية من تلفزيون وسينما وصحف ومجلات، لها تأثير كبير في ظهور البلوغ المبكر بسبب تنشيط الغدد المسؤولة عن الإثارة الجنسية الواقعة تحت تأثير المراكز العصبية. فالسؤال: كيف يتم هذا التأثير؟ لقد بينت «أنيبال ڤولبي» (Annibale Volpe) الأستاذة في جامعة «كالياري» (Cagliari)، وجود منطقة في الدماغ تعرف باسم «المركز الجنسي» (Gonadostat). ففي هذا المركز توجد أوالية تصدُّ إفرازات الهرمونات التي تستثير الخلايا الجنسية، أي الخصيتين عند الذكر والمبيضين عند الأنثى. في مرحلة البلوغ ينحسر هذا الصدُّ، وهذا مؤشر على بداية البلوغ. وهذه العملية المعقدة تتأثر بالإيوتالموس والغدة النخامية[٤]. وكما هو المعروف أن الغدد الجنسية واقعة تحت تأثير القشرة الدماغية. لذا فالمنبهات الجنسية تصل إلى القشرة الدماغية التي تؤثر بدورها في مراكز الصد أو الضبط.

ولكن يبدو أن العوامل الثابتة لتحديد بدء البلوغ هي من طبيعة داخلية وليس خارجية، مثل المناخ أو الظروف الاجتماعية.

---

٣ ـ السمباتي: Sympathique.

٤ ـ Hypophyse: الغدة النخامية (احدى الغدد الصماء).

تأثير عامل العرق

أولاً فالعرق له دور أساسي. إذ إن الدراسات المقارنة أظهرت أن البلوغ يحدث في سن متأخرة نسبياً عند اليابانيين والصينيين مهما كان المناخ. كذلك الإناث في العرق السامي يبلغن قبل الإناث في العرق الجرماني، على الرغم من كونهن يعشن في المناطق المناخية نفسها ويخضعن للظروف نفسها.

تأثير عامل الوراثة

ثانياً، الوراثة، يبدو أنها أهم العوامل التي لها تأثير في عملية البلوغ. فهناك عائلات يحصل فيها البلوغ في سن مبكرة، وهناك عائلات أخرى يحصل فيها البلوغ في سن متأخرة، وقد اكدت الدراسات أن الفتاة تتأثر بأمها في عملية الحيض نتيجة للتأثير الوراثي.

وقد أجريت بحوث حول التوائم من بيضة واحدة وبيضتين مختلفتين (homozygotes et hétérozygotes) أكدت على أهمية العوامل الوراثية في ايقاعية النمو في المراهقة وسرعتها، وبالتالي في التأثير المتبادل في عملية الحيض بين الأم وابنتها. وبحسب دراسات «تانر» (Tanner) فإن عامل الارتباط بين الأم وابنتها في الحيض هو في حدود ٠,٤٪.

كما قام كل من «ويدهولدر» و«كانترو»[٥] (Wid Holder-Kantero) بدراسة حول أنماط الحيض عن طريق استبيانات جرى توزيعها على مايقارب الـ٤٣٩٢ طالبة وأمهاتهن (وراوح عمر الطالبات ما بين ١٠ سنوات ونصف و١٧ سنة ونصف) في

---

٥ - O.WIDHOLDER R.L. KANTERO: Menstrual Patterns of Adolescent Girls according to Gynecolo Gycalade.

- In adolescentologie, comptes rendus du symposium international - fondation carlo erba - milan 1972.

مناطق مختلفة من «فنلندا» (Finlande). وقد اشتملت هذه الاستبيانات على أسئلة تتعلق:

١ ـ بالعامل الجبلّي

٢ ـ بالعمر الذي حصل فيه الحيض

٣ ـ بدورة الحيض

٤ ـ بمدة الحيض

٥ ـ باضطرابات الحيض

فجاءت النتائج لتؤكد أن الارتباط بين الحيض لدى الأم ولدى ابنتها له دلالة إيجابية، خصوصاً فيما يتعلق بالعمر الذي يحصل فيه الحيض وباضطرابات الحيض. وقد بينت هذه النتائج اختلافات في دورة الحيض ومدته.

أسباب البلوغ

أما السؤال عن أسباب البلوغ، فإن الدراسات لم تتوصل حتى اليوم إلى جواب نهائي. ذلك أن التفسيرات المختلفة والنظريات المتعددة لم تكشف بشكل أكيد عن هذه الأسباب. فالقول إن الغدد الجنسية التي كانت إلى الآن في حالة كمون تتيقظ بفعل الهرمونات التي تفرزها الغدة النخامية[٦] لا يجيب عن السؤال: لماذا وبأي وسيلة لا تتحرر هذه الهرمونات التي أُنتجت في مرحلة الطفولة وتقوم بوظيفتها إلا في فترة محددة؟

حاولت بعض النظريات الإجابة عن ذلك بفرضية النشاط المتولد عن «مركز جنسي» يقع في أسفل الدماغ. فمن هذا المركز تنطلق الشحنات التي تطلق النشاط الهرموني الذي سيكون مسؤولاً عن إحداث التغيرات المورفولوجية التي ستحدّد مظاهر البلوغ.

---

٦ ـ الغدة النخامية Hypophyse

ولكن هذا التفسير لا يكفي لأن المشكلة تظل قائمة: لماذا يقوم هذا «المركز» بوظيفته فجأة على الرغم من تشكُّله في مراحل سابقة؟ لا بد إذن من الرجوع إلى النظرية التي تقول إن التغيرات التي تحدث في البلوغ تتم، بحسب خطة مرسومة ومحدَّدة وراثياً، فهي نتاج عملية صبغية[7]: (الصبغيات: chromosomes). والتطور الجنسي يؤلف جزءاً من الإرث الصبغي للفرد. إن هذا الاتجاه في التفسير تؤكده اليوم التأثيرات الوراثية التي توجِّه النمو وشكل التطور عند كل فرد.

ولكن التجربة العيادية تبيّن أن هذه التأثيرات يمكن، نتيجة اضطرابات تحدث قبل الولادة أو بعد الولادة، أن لا تصل إلى غايتها. لذلك يمكن القول إن البلوغ هو ظاهرة طبيعية يتطلب ظهورها تكامل الأواليات العصبية والهرمونية الضرورية لاستكمالها.

فالمظهر الطبيعي للبلوغ يتوقف في نهاية الأمر على الفعاليَّة الوظيفية للغدة النخامية والغدد الصماء التي تنشط بفعل الشحنات المتأتية من الجهاز ما تحت السريري (الإپو تالموس).

البلوغ من وجهة النظر القانونية

لا يجوز أن ننسى أن مفهوم البلوغ ليس واحداً من وجهة نظر بيولوجية ووجهة نظر قانونية: ففي المعنى البيولوجي يعتبر الكائن «بالغاً» عندما يصبح قادراً على التناسل. أما في المعنى القانوني فإن الكائن يعتبر بالغاً عندما يصبح قادراً على الزواج. بينما في القانون الروماني لا نجد اختلافاً بين البلوغ والقدرة على الزواج، وكان يتحدَّد سن الزواج بالنسبة للذكر عند بلوغه سن الرابعة عشرة وبالنسبة للأنثى عند بلوغها الثانية عشرة.

ويلاحظ اليوم أن تحديد سن الزواج يختلف من مجتمع إلى آخر ومن حضارة إلى حضارة.

---

٧ ـ الصبغيات: Chromosomes.

يتبيَّن من هذا التحديد أن هناك نوعين من البلوغ: البلوغ البيولوجي والبلوغ القانوني. والبلوغ القانوني هذا يعتبر اعتباطياً لأنه يحدَّد بقوانين ارتأت الأنظمة الاجتماعية تبنِّيها لأجل تنظيم وضبط الحياة المدنية.

تعريفات أخرى

من بين أفضل التعريفات التي أعطيت للبلوغ تعريف «كْرُوشِه»[٨] (Cruchet): «إن البلوغ هو مرحلة من مراحل النمو تشتمل على سلسلة من المظاهر الشراحية والفيزيولوجية والنفسية. من نتائجها تحوُّل المتعضى[٩] الطفلي إلى متعضًّى جديد هو متعضى المراهق. ويعرِّف «مارشال»[١٠] (Marshall) المراهقة أو البلوغ بالمرحلة التي يصبح فيها الكائن ناضجاً جنسياً مع ظهور الخصائص التكوينية التي تؤدي إلى اختلاف كلي بين الذكورة والأنوثة. وخلال هذه المرحلة يصبح للخصائص الجنسية الثانوية أهمية كبيرة لأول مرة، بينما الأعضاء الضرورية للتناسل تأخذ حجمها الطبيعي».

إن هذا التعريف يتوافق مع الموقف الشعبي الذي يعتبر أن الجنس هو المصطلح المستخدم لوصف انقسام أفراد النوع الواحد إلى شكلين متكاملين ومتناقضين يعرفان بالشكل الذكوري والشكل الأنثوي.

وهناك بعض الدارسين يتوقفون في تعريفهم للبلوغ على الجانب الوظيفي، أي على قدرة الكائن على التناسل.

إن «أسدل»[١١] (Asdell) مثلاً، يحدِّد البلوغ بأنه «المرحلة التي يصبح فيها التناسل ممكناً لأول مرة، أي عندما يكتمل إفراز الخلايا الجنسية».

---

٨ ـ CRUCHET R.: LA PUBERTÉ - dans "Pratique des maladies des enfants" Paris - Bailliere.

٩ ـ المتعضى: Organisme

١٠ ـ MARSHALL F.H.A.: The Physiology of Reproduction LONGMANS -- LONDRES -

١١ ـ ASDELLA: PATTERNS of MAMMALIAN REPRODUCTION -- ITHACA -- N.YORK -- COMSTOCK

وكما نلاحظ، فإن مفهوم البلوغ، في هذه التعاريف، يختلط بمفهوم المراهقة. فلا بد إذن من توضيح العلاقة بين هذين المفهومين:

أولاً، لا بدَّ من القول إنه لا يوجد اتفاق بين الدارسين حول تقسيم مراحل نمو الكائن الإنساني.

وإن التصنيف الأكثر قبولاً اليوم هو الذي وضعه «ديتوني»[١٢] (Detoni) حيث يقسِّم المراحل العمرية كما يلي:

١ ـ مرحلة المولود الجديد، وتشتمل على الأسبوع الأول من الحياة.

٢ ـ الطفولة الأولى، أو السنتان الأوليان من حياة الكائن.

٣ ـ الطفولة الثانية، وهي المرحلة التي تمتد من عمر سنتين إلى ست سنوات.

٤ ـ الطفولة الثالثة، من ست سنوات إلى أعتاب البلوغ.

٥ ـ البلوغ ويشتمل على:

ـ ابتداء البلوغ، أو مرحلة ما قبل البلوغ، وهي مرحلة تختلف بحسب الجنس والعرق والمناخ والعوامل الاجتماعية والاقتصادية، بالاضافة إلى العامل الوراثي. وعادة تحدَّد هذه المرحلة بحوالى ١١ ـ ١٢ سنة بالنسبة للذكور، و١٠ ـ ١١ سنة بالنسبة للإناث.

ـ مرحلة البلوغ، ويمكن تحديدها بسهولة أكبر بالنسبة للإناث، حيث يظهر الطمث في عمر يراوح بين ١٢ ـ ١٣ سنة في المعدل الوسطي.

ـ مرحلة ما بعد البلوغ، وهي من عمر يراوح بين ١٤ ـ ١٥ سنة بالنسبة للذكور، و١٣ سنة بالنسبة للإناث تقريباً.

٦ ـ المراهقة، وهي المرحلة الواقعة ما بين نهاية البلوغ ونهاية النمو الجسمي الذي يتم بواسطة عملية تكليس غضاريف الوصلات، وينتهي بالتصاق عناصر

---

١٢ ـ DETONI G. : L´ACCRESCIMENTO UMANO - LA SCHOLA ,Ed. BRESCIA --

العظام الطويلة بعضها ببعض. إن نهاية المراهقة، من خلال هذا المنظور، تحدَّد عادة ببلوغ الذكر ١٨ سنة والأنثى ١٧ سنة.

٧ ـ مرحلة الرشد التي تقع ما بين ١٩ سنة و٦٠ سنة بالنسبة للذكور، وحوالي ١٨ سنة إلى ٥٠ سنة بالنسبة للإناث.

٨ ـ الشيخوخة، وهي تخطي الأعمار المبينة أعلاه.

إن هذا التصنيف يمكِّننا من التمييز بين البلوغ والمراهقة. ولكن إذا كان لهذا التمييز فائدة على الصعيدين النظري والمبدئي، فإنه لا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن هاتين الظاهرتين تختلطان عادة على الصعيد العملي لكون مظاهرهما تتقاطع في أغلب الأحيان. ويبدو أنه من الصعب أن نميز بشكل واضح بين الواحدة والأخرى، لذلك نرى أن غالبية الدارسين، على الرغم من قبولهم المبدئي بالتمييز بين مرحلة البلوغ ومرحلة المراهقة فإنهم، في الواقع، يعتبرونهما متلازمتين ولهما المعنى نفسه.

إن التعريف البيولوجي للمراهقة يقوم على اختزال هذه المرحلة بعلامات النضج الجنسي والجسمي، دون التعرض إلى نواحي النمو الأخرى، وعلى الأخص النمو العقلي والنمو العاطفي والاجتماعي. فالمراهقة ظاهرة نفسية ـ اجتماعية، وهي خاصة بالإنسان وحده، بينما البلوغ هو ظاهرة بيو ـ نفسية يمكن تحديدها بظواهر ومؤشرات محدَّدة، وهو مشترك بين الإنسان وغيره من الكائنات الحيَّة.

ثانياً: التعريف البيو ـ نفسي للمراهقة

إذا كان التعريف البيولوجي للمراهقة يركِّز على النمو الجسمي والجنسي، وما يصاحبه من تغيرات، معتبراً أن هذه التغيرات كافية لتحديد ماهية هذه المرحلة، فإن التعريف البيو ـ نفسي لا يهمل التأكيد على أهمية هذه المظاهر، ولكنه يشدِّد على ما يصاحب هذه التغيرات من غموض في هوية المراهق وميول متناقضة وصراعات نفسية وقلق جنسي.

كذلك يمكن القول إنه إذا كانت عملية النمو البيولوجي عملية محدَّدة وواضحة، فإن عملية النضج النفسي هي، على العكس، عملية غامضة وبطيئة وأثرها أبعد على حياة المراهق من التغيرات البيولوجية، لأن النظام العلائقي بكامله مع الآخرين يتعرض للتغيير. والتعريف البيو- نفسي نجده في تيارات التحليل النفسي.

بصورة عامة، نلاحظ أن علم التحليل النفسي لم يعطِ نظرة متكاملة للمراهقة. فهو يركز على أهمية السنوات السابقة في النمو النفسي ـ الجنسي، وتأثير الماضي والحياة اللاواعية في الحياة الواعية الظاهرية للمراهق، وبمعنى آخر، فإنه يؤكد على البُعد التاريخي والبُعد الانبنائي الداخلي من المراهقة.

فـ «فرويد» مثلاً تبنى، مع كثير من أتباعه في نظرته إلى المراهقة، المنطلقات التالية:

أولاً، أن المراهقة هي ظاهرة عالمية، وثانياً، أن المراهقة تحدَّد تحديداً بيولوجياً: النضج الداخلي ومبدأ التكرار أو الإعادة (recapitulation)، بمعنى أن المراهقة تعيد مشكلات الطفولة. ويعتبر «فرويد» أن في مرحلة «الكمون» (Période de latence) التي تمتد من حوالى ٦ سنوات إلى أعتاب البلوغ، يسود حياة الكائن الهدوء والراحة النسبيِّين، ثم تنتهي هذه المرحلة بابتداء البلوغ. فالنضج الجنسي يؤدي في هذه المرحلة إلى مجموعة من الاضطرابات ليس فقط في الحياة الجنسية، بل في مجالات السلوك الاجتماعي أيضاً. ففي البلوغ يعاني الحدث من انبعاث جديد للصراعات الأوديبية[١٣]، وخصوصاً أن هذه الصراعات لم تُحَلّ بشكل نهائي وكامل في مراحل

---

١٣ ـ الصراعات الأوديبية: (coufléits Œdipiers) هي نتاج تلاقي عمليتي التماهي بالوالد من نفس الجنس والانجذاب الجنسي نحو الوالد من الجنس الآخر... ان الصبي الصغير يعبر عن اهتمام كبير بأبيه، فهو يريد ان يصبح وان يكون كأبيه وان يحل محله في كل الأمور.. «ويجعل من أبيه صورة ثمالية... وبالوقت نفسه الذي يحصل فيه هذا التماهي بالاب أو في مرحلة لاحقة فان الصبي يبتدىء في توجيه رغباته الجنسية نحو أمه فيظهر عندئذ نوعين من التعلق يختلفان نفسياً: تعلق بالام كموضوع جنسي، وتماهي بالاب الذي ينظر اليه كنموذج للتماهي. فهذان النوعان من المشاعر يظلان لبعض الوقت جنباً الى جنب دون ان يؤثر الواحد في الآخر. ولكن بقدر ما تميل الحياة النفسية الى توحيد المشاعر بقدر ما يتقاربان وينتهي بهما الامر الى التلاقي. ومن هذا التلاقي ينتج «الأوديب» الذي هو عقدة طبيعية. الطفل الصغير يلاحظ ان والده يصده عن بلوغ موضوع حبه الذي هو الأم. فتماهيه بوالده يتخذ نتيجة لذلك مظهراً عدوانياً لينتهي بأن يمتزج بالرغة في ان يحل محل أبيه حتى يقرب الأم». (S.Freud: Psychologie collective et analyse du Moi)

النمو السابقة. من هنا كانت العلاقة، في مفهوم التحليل النفسي، بين مرحلة البلوغ وماضي الفرد النفسي. فهذه العلاقة هي إعادة لعلاقات ماضية، وهي إعادة لصراعات المرحلة الأوديبية كما قلنا، تؤدي عند الكائن إلى أصداء من تاريخه النفسي الماضي، ويمكننا أن نعتبر أن الصراع الأوديبي هو عبارة عن استباق للبلوغ، حيث ينخرط الطفل في وضعية عاطفية مع البالغين. بهذا المعنى يصبح البلوغ إعادة للمرحلة الأوديبية وانخراط حقيقي للكائن في مجتمع الراشدين. فهنا نحن أمام مشكلة مكررة، مشكلة مُعاشة في السابق ،تشكل مجموع تصرفات الفرد في مرحلة ما. إذن إعادة لمشكلة ولكن في ظروف مختلفة وجديدة. وبعد «الأوديب» يدخل كل شيء في حالة ركود، وهذه هي مرحلة الكمون التي يحدث خلالها تطور يؤثر في «الأنا»، أي في الجهاز الإدراكي ـ الواعي. ويتطور بشكل كبير نظام العلاقات مع الآخر، وتغتني تقنيات الحياة بوسائل جديدة، ولكن الأرضية الغريزية تظل كما هي ولا تتغير حتى مرحلة ما قبل البلوغ.

لذلك، فإن المشكلة الأوديبية تعود وتُطرح من جديد مع كل الوسائل المكتسبة خلال مرحلة الكمون. فهذا التنشيط الجديد في الشحنات الغريزية المتأتية من جهاز «الهو» (le ça)، يخلق توتراً وانهياراً في توازن الكائن، فتعمل قوى «الأنا» (le moi) المتماسكة لتستعيد التوازن المفقود مستعملة جميع الأواليات الدفاعية[١٤] (les mécanismes de défense) التي في حوزتها،

«يظهر عندئذ نوعان من التعلق يختلفان نفسياً: تعلق بالأم كموضوع جنسي، وتماهٍ بالأب الذي يُنظر إليه كنموذج للتماهي. فهذان النوعان من المشاعر يظلان لبعضِ الوقت جنباً إلى جنب دون أن يؤثر الواحد على الآخر. ولكن بقدر ما تميل الحياة النفسية إلى توحيد المشاعر، بقدر ما يتقاربان وينتهي بهما الأمر إلى التلاقي. ومن هذا التلاقي ينتج «الأوديب» الذي هو عقدة طبيعية. فالطفل الصغير يلاحظ أن

١٤ ـ الأواليات الدفاعية: العمليات النفسية الدفاعية التي يلجأ اليها الأنا لصد طغيان النزوات المتأتية من الهو. فالى جانب عملية الكبت هناك النكوص والازاحة والاسقاط والارتداد على الذات والتسامي وغيرها..

والده يصدُّه عن بلوغ موضوع حبه الذي هو الأم. فيتخذ تماهيه بوالده، نيتجة ذلك، مظهراً عدوانياً لينتهي إلى ان يمتزج بالرغبة في أن يحل محل أبيه حتى بقرب الأم».
(S. Freud: Psychologie collective et analyse du Moi)

إن إشباع الشحنات الغريزية، وخصوصاً الجنسية منها، ليس سهلاً في بدء مرحلة المراهقة، إذ يعترض تحقيق هذا الإشباع موانع ومحرمات العالم الخارجي والقيم الاجتماعية والأخلاقية. فيعمد «الأنا» عند ذلك إلى أوالياته مثل الإزاحة (déplacement) أو التسامي (sublimation) ...إلخ.

وصراعات المراهق لا تقتصر فقط على المشكلة الجنسية وإشباعها، وإنما تتعداها إلى مشكلة الصراع مع الموضوع الأوديبي. فالمراهق المدفوع برغبة تصفية «الأوديب» أو التخلص من سيطرة الآخر، وخصوصاً سيطرة الأهل، يجد نفسه في صراع مع رغبة معاكسة، وهي الرغبة في التعلق مع موضوع هذا الأوديب. فمن هنا ثنائية المشاعر[١٥](ambivalence): الرغبة في التحرر، يقابلها الرغبة في التعلق والاتكالية.

إن هذا التناقض في المشاعر يزيد من صراعات المراهق، لذلك يعتبر التحليل النفسي أن مرحلة المراهقة هي مرحلة الاضطرابات والصراعات والأزمات.

إن تحديد المراهقة بأنها مرحلة الأزمات يتوافق مع التحديد الذي يعطيه «دبس»[١٦](Debesse) لهذه المرحلة. فهو يؤكد أن المراهق واقع تحت تأثير الاختيارات المتنوعة: اختيار الذات واختيار القيم؛ وهو ضحية التجاذب والصدود المختلفة وإمكانيات الانتظار في إشباع الرغبات.

فالمراهقة هي أزمة لأنها تناقض بين الشحنات والنزوات والرغبات. أليست الأزمة هي هذا الصراع بين الرغبات والإمكانيات؟

---

١٥ ـ ثنائية المشاعر: عبارة عن تلازم وجود ميول ومواقف ومشاعر متعارضة ابرزنموذج لها الحب والحقد في العلاقة مع نفس الشخص (معجم مصطلحات التحليل النفسي: لابلاش وبونتالس ـ ترجمة د. مصطفى حجازي).

١٦ـ DEBESSE M. L'Adolsescence P.U.F coll. que sais - je no. 102. -

ثالثاً: التعريف الاجتماعي والعلائقي

يرى علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا أن المراهقة تختلف في شكلها ومضمونها وحدّتها من مجتمع إلى مجتمع آخر ومن حضارة إلى حضارة أخرى، وان المراهق يعكس في أزمته ظروفاً اجتماعية وحضارية معيَّنة لا ظروفاً بيولوجية ونفسية. فأزمة المراهقة ليست استجابة لتغيرات داخل الفرد نفسه وإنما نتيجة لاستجابات المجتمع أو الحضارة للتغيرات التي تطرأ عليه.

فالتعريف الاجتماعي للمراهقة يشدِّد على العوامل الاجتماعية ـ العلائقية، وتأثير موقف المجتمع ومؤسساته في شدَّة اضطرابات المراهقين. ويعتبر أن أزمة المراهقة هي نتاج التناقض وعدم الثبات والاستمرارية في معاملة الراشدين: فالتذبذب بين الشدة واللين، والعطف والحرمان، والإشباع والقساوة، مما يجعل المراهق يشعر بأن هذا السلوك يمس كيانه ويحطم تحفُّزَه إلى الاستقلالية وتحقيق الذات.

ويشدِّد التعريف الاجتماعي على أهمية المكانة والدور الاجتماعيين، وتحديد نوعية التفاعل الذي يحدث بين الفرد وحضارة المجتمع الذي ينشأ فيه، وكيف أن هذا التفاعل يظهر أثره في كل عمل يقوم به.

بالنسبة للمراهق يعتبر التعريف الاجتماعي أن ليس له مكانة خاصة. ولكن انعدام المكانة الخاصة للمراهق لا يعني غياب دوره. فالمراهق واقع بين حالين: حال الطفل الذي كان، وحال الراشد الذي سيكون. والمراهقة هي مرحلة تقاطع ومنطقة تداخل القوى المؤثرة والتوقعات. «إن دور الطفل واضح متميز، وهو يعرف ما يستطيعه كما يعرف ما لا يقدر عليه، والراشد يفهم كذلك بوضوح الدور الذي ينبغي له القيام به، أما المراهق فإنه في وضع غامض مبهم، فهو لا يعرف موقعه أبداً»[١٧].

١٧ـ سيكولوجية المراهقين للمربين: جلن مايزر بلير وستيورات جونز ـ ترجمة د. احمد عبد العزيز سملاة ود. ضياء الدين البو الحب ـ دار النهضة العربية ـ الفصل الاول.

فمكانة المراهق من الأسرة لم تعد مكانة الطفل الذي يخضع لسيطرة الأهل، لأنه من الناحية الفيزيولوجية والعقلية قد أصبح يماثل الراشد، ولكن في الوقت نفسه، فإنه لم يصبح راشداً بسبب عدم السماح له بتحمل مسؤوليات الراشدين.

إن هذه المكانة الغامضة هي سبب الصراعات عند المراهق، والصدُّ والحرمان المتأتيان من الدور المفروض عليه (التصرف بحسب نمط معيَّن من السلوك تجاه الكبار والمؤسسات بانتظار الرشد الذي يحدِّد مكانته الخاصة ويعيِّن علائقيته بالكبار والمؤسسات)، هذا الدور الذي لا يعطيه فرصة وإمكانية تحقيق المكتسبات التي تمنحها المكانة الاجتماعية كالافتخار بعمل، والرضى الذاتي، والشهرة والمال ... إلخ، هو الذي يدفعه إلى المواقف السلبية. من هنا إذن انطلاق النظرة الاجتماعية في تعريف المراهقة ودراسة الصراعات والأزمات التي تتخللها، أي اعتبار المراهقة مشكلة وربطها بما فيها من أزمات، بالعوامل الاجتماعية. وأزمة المراهقة، بحسب هذا التعريف، ليست عامة ولا حتمية، فهي تتباين باختلاف الانبناءات الاجتماعية والأنساق الحضارية، ففي المجتمعات البدائية يتم الانتقال من الطفولة إلى الرشد عن طريقين:

ـ أولاً: عن طريق طقوس رمزية تعني انتقال الكائن من مرحلة الطفولة والاتكالية، إلى مرحلة الرشد وتحمل المسؤوليات.

ـ ثانياً: عن طريق تشكُّل جديد للعلاقات بين الجنسين وإلقاء المسؤولية على المراهق في المحافظة على تقاليد وأعراف الجماعة التي ينتمي إليها. وهذه الطقوس لا تخلو أحياناً من العنف، ولها معنى في حياة الفرد والجماعة. فوضع المراهق في تجارب مؤلمة تهدف إلى إظهار قدرته على تخطي مرحلة الطفولة وتحمُّل مسؤوليات الشباب، إضافة إلى تعليمه وتدريبه على ما يجب تحمله من مسؤوليات في المرحلة المقبلة. وأخيراً الإعلام العلني على أنه لم يعد طفلاً، مما يؤدي إلى عدم معاملته كطفل. فهذا الإعلام هو عبارة عن إثبات هويته الجديدة، وبطاقة مرور له إلى عالم الراشدين.

وإذا كانت النظرة الاجتماعية للمراهقة تنطلق من نظرة مقارنة بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الحديثة، فإنها لا تهمل أثر عوامل المحيط الاجتماعي والحضاري الذي يضغط بثقله على حياة المراهق وسلوكه. فالتصنيع والإعمار والتطور التقني وارتفاع مستوى الحياة ووسائل الإعلام، قد غيَّرت ليس فقط هيكلية المجتمعات، وإنما أيضاً سيكولوجية المراهقين.

وربما كان هذا الذي دفع بعض المدارس الأميركية إلى المبالغة في نظرية «آدلر»[١٨] (ADLER)، بالتأكيد على المؤثرات الاجتماعية والتربوية، فمع «هورني»[١٩] (Horney) تطورت نظرية «العصاب الحضاري» (névrose culturelle)، إذ إن الصراعات التي تحدِّد الحالات العُصابية تقوم في التعارض بين الكائن في واقعه الحالي، وحضارة العالم الذي يعيش فيه أو ثقافته. إن وجهة النظر الاجتماعية هذه في تعريف المراهقة يمكن تلخيصها باتجاهين:

١ـ اتجاه ينظر إلى الكائن كونه ينتمي إلى نوع أو مجموعة أو طبقة اجتماعية خاصة: المنطقة والخاصيَّة الاثنية للمجموعة والطبقة الاجتماعية ـ الاقتصادية للأهل، مكان السكن، إطار الانتماء المفروض مثل المدرسة، أو الانتماء الحر مثل النادي أو المنظمات الرياضية والثقافية. فهذه الأنواع المتكونة تقولب بشكل قوي شخصية المراهق.

٢ ـ اتجاه ثانٍ يدرس سلوك المراهق بالنسبة للبنيات الطبقية للمجتمع: العائلة والتنظيم السياسي والدين وأوقات الفراغ.

---

١٨ و ١٩) ـ «الفريد أدلر» و«كارين هورني» من أهم الدارسين الذين صاغوا نظرية أصبحت الاهتمامات الاجتماعية من أهم دعائمها الفكرية. ومن أبرز ما أكدوا عليه هو المتغيرات النفسية ـ الاجتماعية في تكوين الشخصية. يمكن الرجوع الى المؤلفات التالية:

- ADLER A.: Individual Psychology in C. Murchison (ed.) Traduction Française: Psychologie Individuelle.

- HORNEY, KAREN: Neurotic personality of our times - NewYork: Norton.

رابعاً: التعريف التكاملي

إن التعريف التكاملي للمراهقة لا يقتصر على النظر من جانب واحد، وإنما يرى أن تتكامل جميع العوامل التي تشكل مظهراً من مظاهر هذه المرحلة. فلا يمكن إهمال العوامل المختلفة، من بيولوجية ونفسية واجتماعية ـ علائقية، في كل محاولة تهدف إلى تعريف المراهقة وتحديد بدايتها ونهايتها. فالمراهقة ليست عملية نمو جسمي وجنسي، أي عملية تزايد في أبعاد الجسم ،وتمايز في نوع الجنس فحسب، بل ربما كان النضج النفسي وما يصاحبه من انهيار التوازن في كل النظام الاجتماعي ـ العلائقي، له الدور المركزي في تشكيل شخصية المراهق وتعيين هويته.

بعض الذين يشدِّدون في تعاريفهم على أهمية التغيرات الفيزيولوجية، ويتحدثون عن هذه التغيرات كعوامل أولية وأساسية في أزمة المراهقة الإنفعالية والعاطفية، ويؤكدون على شدتها وعنفها دون التعرض إلى أهمية العوامل الاجتماعية أو أنها، في نظرهم، مرحلة قائمة بذاتها تحدِّدها خصائصها، كفترة الأزمات والانفعالات والشك والمبالغة والإفراط في تأكيد الذات، وفترة الميل إلى المواقف المأساوية والأهواء، هؤلاء لا بدَّ من أن يتلاقوا مع بعض الذين يعرِّفون المراهقة من ناحية أثر البيئة وتضخيم شأن المجتمع على حساب العوامل الأخرى، مشدِّدين على أن المراهقة هي نتاج البيئة، فلا يهتمون بالحالات الفردية ،بل يميزون بين بيئات أو مجتمعات تفسح المجال أمام المراهقين للاشتراك الحقيقي في الأحداث التي تقرر مصيرهم، واتخاذ القرارات التي تتناول حياتهم، وبين مجتمعات أو بيئات أخرى لا تشرك أفرادها المراهقين في هذه القرارات والأحداث.

المراهقة في حقيقتها، كما تبدو لنا، هي عملية ارتقائية وجدلية تتكون من ثلاثة مستويات:

تبدأ المرحلة الأولى على الصعيد الفيزيولوجي بالتغيرات الفيزيائية والفيزيولوجية الشاملة: النمو الجسمي والنمو الجنسي وظهور الخصائص الجنسية الثانوية التي تميز الشكل الخارجي للذكورة والشكل الخارجي للأنوثة.

أما المرحلة الثانية فتكون على مستوى التجربة النفسية عند المراهق، وتأثير التغيرات البيولوجية في وضعه الاجتماعي، وما يترتب على ذلك من استثارة اهتماماته بذاته الجسمية والنفسية، والتفتيش عن هويته ومكانته الاجتماعية كفرد في مؤسسات المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

أما المرحلة الثالثة فتحدث على مستوى النظام العلائقي والمظاهر السلوكية الفعلية، لأنه إذا كانت المراهقة هي مرحلة الانتقال أو التحول من حال إلى حال: من حال الطفولة إلى حال الرشد، فانها بذلك واقعة بين الحالين. فالمراهق هو ليس الطفل الذي كان، ولا هو الرجل الذي سوف يكون. فسلوك المراهق وعاداته وعلاقاته واهتماماته تتغير كلها.

هذه المستويات الثلاثة في حالة تداخل جدلي، ووحدة تكاملية، فلا يهمل أي عامل من العوامل المؤثرة في مظاهر هذه المرحلة، بل تعتبر جميعها مؤتلفات لها أبعادها في ارتقاء شخصيةالمراهق وتكاملها.

فتصبح المراهقة كما يعرّفها «هاييم»[٢٠] (Haïm) «المرحلة التي تتميز بنضج الدافع الجنسي، وظهور مجموعة من الصفات البيولوجية والنفسية والاجتماعية تدفع بالفرد إلى تكوين صورة جديدة عن ذاته وذات الآخرين، وإنشاء نظام علائقي جديد مع بيئته يساعده على تنظيم شخصيته وترسيخها».

---

٢٠ - HAIM ANDRE D.: Les suicides d'adolescents (Payot) .

الفصل الثاني

الاتجاهات الأساسية في دراسة المراهقة

أولاً: الاتجاهات البيولوجية: دراسة الجانب البيولوجي من المراهقة

١ ـ نظرية «هول» (Hall)

٢ ـ نظرية «جزل» (Gesell)

ـ بعض جوانب من سمات المراهقة حسب «جزل»

ثانياً: الاتجاهات النفسانية: دراسة الجانب النفساني في المراهقة

١ ـ الاتجاه «الفرويدي».

٢ ـ بعض المواقف التحليلية الأخرى:

ـ موقف «هيلين دويتش»: التطور الجنسي عند الفتاة ومراحله.

ـ موقف «أنا فرويد»: الأواليات الدفاعية

ـ موقف «اريكسون» (Erickson): الهوية الذاتية

ـ موقف «جرار مندل» (G. Mendel): أزمة الأجيال في عملية التماهي

ثالثاً: الاتجاهات الاجتماعية: دراسة الجانب الاجتماعي في المراهقة

١ ـ الدراسة الوصفية

ـ الدراسة الوصفية الاحصائية

ـ الدراسة الوصفية لمكانة المراهق: هامشية المراهقين

٢ ـ الدراسة التفسيرية

ـ المنطلق الأسري

ـ المنطلق المدرسي

ـ المنطلق الطبقي ـ الاقتصادي

ـ المنطلق الثقافي ـ الحضاري

اذا اعتبرنا علم نفس المراهقة فرعاً من فروع علم النفس، برز كقطاع مستقل على يد عالم النفس الأميركي «ستانلي هول» /(Stanley Hall) حوالى سنة ١٨٨٢، فإن الدراسات والاتجاهات المختلفة التي ظهرت فيما بعد، تعتبر ان مرحلة المراهقة هي حلقة من الحلقات المتصلة بنمو الكائن بشكل عام. وهي تؤلف جزءاً من تكوين الفرد، سواء أكان بيولوجياً أم نفسياً أم اجتماعياً ـ علائقياً.

واذا أردنا ان نتتبع مسار هذه الاتجاهات وتطورها، نجد أنها اتخذت في شكلها العام ودينامياتها المختلفة ثلاثة اتجاهات كان لكل واحد منها مؤيدوه وأتباعه الذين استطاعوا في فترات زمنية مختلفة ان يسلطوا الأضواء على الجوانب الأساسية من المراهقة: الجانب البيولوجي والجانب النفسي والجانب الاجتِماعي ـ العلائقي.

أولاً: الاتجاهات البيولوجية: دراسة الجانب البيولوجي للمراهقة

انطلقت الدراسات البيولوجية للمراهقة من أميركا مع كل من العالِمَيْن «ستانلي هول» (Stanley Hall) و«جزل» (Arnold Gesell)، مركزّة على عمليات النمو الجسمية والجنسية، الى جانب الملاحظات الطبية، ومعتبرة ان الحياة النفسية عند المراهقين يحددها النمو البيولوجي.

والنمو البيولوجي، بحسب هذه الاتجاهات، ليس فقط نمواً خارجياً يتميز بالتزايد في أبعاد الجسم وبظهور الخصائص الجنسية الأولية والثانوية وتطورها، وانما هو نمو داخلي أيضاً نتيجة لتغيرات هرمونية متعددة.

فالتغيرات الخارجية والتغيرات الداخلية التي تحدث في مرحلة المراهقة لها تأثير كبير وعميق في تحديد شخصية المراهق.

١ ـ نظرية «هول»

لقد حدَّد «هول» مرحلة المراهقة بأنها بداية البلوغ، تنتهي عند توقف النمو الجسمي الذي يكتمل خلال الفترة الواقعة ما بين ١٤ ـ ٢٠ سنة. ان هذا النهج الذي يتبعه «هول» في النظر الى المراهقة يجعلنا نؤكد أنه يتجه في دراسته اتجاهاً بيولوجياً كونه يعتبر ان بداية المراهقة هو ظهور العلامات الأولى لأزمة البلوغ أي:

أولاً: الازدياد المفاجىء في أبعاد الجسم (طولاً ووزناً)، خصوصاً عند الذكور الذين يشعرون أنهم أصبحوا راشدين.

ثانياً: ظهور الخصائص الجنسية الثانوية بعد استكمال الخصائص الجنسية الأولية.

فمن هذا المنطلق المحدد بعملية النمو الفيزيائي والجنسي، تصبح المراهقة مرحلة من مراحل النمو عند الكائن وبالتالي فإنها حتمية وعالمية. إذ إن النمو الطبيعي المحدَّد وراثياً هو الذي يعيِّن مراحل التغير وظهور الوظائف والقدرات. فبهذا المعنى يصبح النضج عاماً لدى جميع أفراد الجنس وهو محرك النمو الداخلي الذي تحدده الخلايا التناسلية.

و«هول» متأثر في نظرته الى المراهقة بالنظرية التطورية التلخيصية (Reductioniste)، وهي النظرية التي عرفت بمبدأ الإعادة أو التكرار (Récapitulation)، أي ان الفرد يعيد اثناء نموه الفردي (Ontogenèse) اختبارات النوع (Phylogenèse). فهو يعتبر ان تاريخ تجارب الكائن الانساني أصبح جزءاً من الوراثة البيولوجية لكل كائن بمعنى أن كل فرد في تطوره يعيد مراحل تطور الانسانية، فهو يعيش من جديد، في أثناء نموه، مراحل نمو الجنس البشري.

والنمو يرتبط، بحسب رأي «هول»، بعوامل فيزيولوجية وهرمونية محددة وراثياً، فالقوى أو العوامل الداخلية هي التي تنظم عملية النمو. لذلك، فان النمو هو، كما قلنا، عملية عالمية.

ويميز «هول» المراهقة بخصائص أبرزها:

١ ـ أنها مرحلة الأزمات والاضطرابات وسن العواصف.

٢ ـ أنها مرحلة الافراط في المثالية وانتشار عبادة الأبطال والتعلق بالأهداف.

٣ ـ أنها مرحلة الثورة على القديم والتقاليد البالية.

٤ ـ أنها مرحلة الانفعالات الحادة والعواطف والحب والميل الى الجنس الآخر والصداقة.

٥ ـ أنها مرحلة الشك والنقد الذاتي والأحاسيس المفرطة.

٦ ـ أنها مرحلة انحلال الروابط بين عوامل «الأنا» المختلفة التي تشكل تماسكها.

ويجعل «هول» تقارباً بين المراهقة والهستيريا كونها مرحلة التقلبات الشخصية والارتماء في الحلول المتطرفة. وهي مرحلة التناقضات والتأرجح بين النشاط المفرط والحماس القوي الذي يقابله اللامبالاة والخمول من جهة، والمرح والسرور الذي يقابله الانقباض والتشاؤم من جهة ثانية.

فاجتماع هذه التناقضات هو من خاصية هذه المرحلة التي يطلق عليها «هول» اسم الولادة الثانية. وفي آخر هذه المرحلة يعيد الفرد بداية الحضارة، أي بداية النضج والتوازن والعقلانية.

كان لموقف «هول» من المراهقة، تأثير كبير في توجُّه الدراسات نحو المراهقة، وخصوصاً من الناحيتين البيولوجية والتربوية.

ولكن وجهت الى هذه النظرية انتقادات شديدة خصوصاً من أصحاب الاتجاه الثقافي، كونها نظرة متطرفة وتلخيصية، أي أنها ترجع هذه الظاهرة الى عوامل النضج البيولوجي وتعتبرها عالمية، دون مراعاة العوامل الاجتماعية والحضارية ودون اعطاء أهمية للفوارق الفردية.

ب ـ نظرية «جزل»

وكان من أشد اتباع نظرية «هول» عالم النفس الأميركي الآخر «جزل» (Gesell) الذي يظهر تأثره باتجاه «هول» في دراسة المراهقة من خلال كتبه الثلاثة: «الحدث في ثقافة اليوم» (Le jeune enfant dans la civilisation moderne)، و«الطفل من ٥ ـ ١٠ سنوات» (L'enfant de 5 à 10 ans) و«المراهق من ١٠ ـ ١٦ سنة» (L'adolescent de 10 à 16 ans P.U.F.).

إن «جزل» يؤكد كسابقه «هول» أهمية النضج البيولوجي في النمو، وأن النمو يعيد في تشكل الفرد تطورَ النوع (النظرية التلخيصية أو نظرية الاعادة). وربما كان هذا التأكيد على أهمية النضج البيولوجي، هو الذي أدَّى الى توجيه النقد اليه باعتباره من اتباع النظرية العضوية. ولكن النظرة المتفحصة تظهر عن منطلق آخر: النضج عند «جزل» يرتبط بنمو الجهاز العصبي، والنضج العقلي يرتبط بنمو الجهاز العصبي. فالنمو العقلي اذن ينمو كما ينمو الجهاز العصبي، أو أنه بمعنى آخر، ينمو مع الجهاز العصبي. فالنمو هو عملية انبنائية تؤدي الى تغير البنيات في الخلايا العصبية التي تؤدي بدورها الى تغيرات متناسقة في بنيات السلوك. صحيح ان «جزل» يعتبر ان العوامل الداخلية في النمو لها الدور الأساسي، ولكنه، من ناحية أخرى لم يهمل دور البيئة في توجيه الخصوصية وتعيينها من طريق التأثير الحصري، وان كانت لا تخلق التطورات نفسها. فالكائن يولد على سمات وميول تكوينية في أكثرها فطرية (استعدادات)، تعيّن متى يمكنه ان يكتسب، والى أي درجة. فهذه السمات هي سمات عرقية ـ عائلية، أي وراثية ومحدَّدة وراثياً يصل اليها الكائن من طريق النضج الطبيعي، ويصل الى الارث الاجتماعي ـ الحضاري عن طريق عملية الاكتساب الحضاري. من هنا اذن كان عدم امكانية فصل العوامل الداخلية عن العوامل الخارجية في عملية النمو والتطور.

ويحاول «جزل» في كتابه «المراهق من ١٠ ـ ١٦ سنة» أن يحدد خصائص نمو المراهق من كل جوانبه، في كل مرحلة من هذه المراحل، موضحاً الاختلافات بين هذه

الخصائص في المراحل اللاحقة والسابقة، ومستخلصاً هكذا من دراسته: مستويات للعمر "NIVEAUX D'AGE" تُعيِّن مختلف مراحل النمو. فهذه المستويات للعمر هي مستويات النضج (NIVEAUX DE MATURITE) وهي التعبير الزمني الحقيقي عن مستويات النضج. ولكن الزمن الفيزيائي لا يتوافق بالضرورة مع زمن النضج الحقيقي لأن زمن النمو ليس له قيمة موحدة في مختلف فترات النمو. وربما أمكن القول ان اهمية النمو في الفترات الأولى من الحياة تفوق أهميته في الفترات المتأخرة، ثم إن هناك فترات هي عبارة عن محطات في حياة الكائن تمثل مرحلة طويلة من حياة الفرد.

ويرى «جزل» ان مجموع المستويات للعمر تؤلف مراحل مستمرة لدورة النمو، لذلك فان الانقطاع بين فترة وفترة أخرى هو انقطاع مصطنع، ولكنه ذو معنى من الناحية النفسية، فيصبح النمو عملية مستمرة تبدأ عند الاخصاب وتستمر من مرحلة الى مرحلة بشكل منتظم، وكل مرحلة من هذه المراحل تمثل درجة (GRADIENT) أو مستوى (NIVEAU) من النضج في دورة النمو، وكل واحدة من هذه المراحل أو الفترات تشكل لحظة عابرة بين الفترة السابقة والفترة اللاحقة.

ويخلص «جزل» بنظريته هذه في النمو الى مفاهيم اساسية، منها مفهوم «جوانب النضج» (Profils de Maturité) التي تتعيَّن من خلال ما أطلق عليه اسم «سمات النضج» (Traits de Maturité). ويحدد معنى «جوانب النضج» بأنه عبارة عن وصف توليفي للسلوك الكلي الخاص بكل مرحلة؛ بينما مفهوم «سمات النضج» هو عبارة عن وجهة نظر وصفية وتحليلية لمؤتلفات السلوك الخاصة بالنمو.

وهذه السمات تزداد خلال كل مرحلة من مراحل النمو. ففيما يختص بمرحلة المراهقة الممتدة من ١٠ ـ ١٦ سنة، يميز «جزل» عدداً من السمات تتمحور حول: النظام الحركي أو النمو العضوي والاهتمامات الجنسية، والصحة الجسدية التي تشتمل على التغذية والنوم والنظافة ثم الانفعالات أو الغضب والمخاوف، ثم «الأنا» النامي أو تقدير الذات والميول والمستقبل، ثم تأتي العلاقات الاجتماعية (العلاقات بالوالدين والاخوة والاخوات والأتراب من الجنس الواحد أو الجنس الآخر) ثم

النشاطات والاهتمامات (الحفلات، القراءة، السينما، التلفزيون) ويتبع ذلك الحس الخُلقي (مفاهيم الشر والخير ومفهوم العدل) وأخيراً الحس الفلسفي (أو مفاهيم الزمان والمكان والموت والألوهية...)[1].

فمجموع «جوانب النضج أو السلوك» تؤلف مقاطع عرضية (COUPES TRANSVERSALES) للشخصية، وكل جانب من هذه الجوانب يمثل شكلاً من أشكال النموذج السلوكي الخاص لمرحلة معيّنة من مراحل النمو.

و«جوانب النضج، إضافة الى «سمات النضج» الخاصة في كل مرحلة من مراحل النمو، تعطينا وصفاً توليفياً وتحليلياً لمحتوى هذه المرحلة.

وقد اعتبر «جزل» أن مرحلة المراهقة الممتدة من ١٠ ـ ١٦ سنة هي مرحلة كافية لأن تعطي نظرة كلية وشاملة عن المراهقة. فدرس كل سمة من سمات النضج خلال السبع سنوات. ولكن على الرغم من انه اشار الى ضرورة عدم أخذ هذه الجوانب كسلالم جامدة لقياس النمو، وإنما كمؤشرات تعكس الاتجاهات الأساسية في عملية النضج في ثقافة معينة، فإن «جزل» لم يتمكن من تجنب محاذير استخدام هذه الجوانب كمقاييس ثابتة أوقعت من استخدمها في اخطاء مهمة لأنهم اهملوا الفروقات الفردية في النمو وطبيعة هذا النمو ومظاهره في المراهقة.

بعض جوانب من سمات المراهقة بحسب نظرية «جزل»[2].

١) سن العاشرة: يعتبر «جزل» هذه السن هي سن الانتقال من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضج والتوجه نحو المراهقة. هذه المرحلة هي مرحلة التوازن في النمو، فالكائن يقوى وينشط خلالهما، وهو لا يشعر بعد بما ستحمله له السنوات المقبلة من صراعات وتوترات. وقد يظهر في هذه المرحلة طفرات من النمو السريع ينمُّ عن نضج مبكر في الاتجاهات والانفعالات ومظاهر التفكير: فالكائن يهمل ألعابه

١ـ GESELL A.: L’Adolescent de 10 - 16 ans (P.U.F) -

٢ـ هذه السمات هي خاصة بأطفال اميركيين ينتمون الى طبقة اجتماعية متوسطة.

السابقة، وتتحول مراكز اهتماماته، ويكون أكثر تعلقاً بالأسرة وأكثر ميلاً الى المشاركة في النشاطات العائلية.. ويظهر عند الحدث أيضاً ميل الى حماية اخوته الصغار والحيوانات. والفتيات يحلمن عادة في هذه السن أن يصبحن أمهات أو ممرضات أو مصلحات. والفتيان تستهويهم النشاطات الكشفية، الى جانب ميلهم الى الانخراط في الجماعات التلقائية، بينما الفتيات يملن الى الانخراط في جماعات صغيرة وتفضيل العلاقة مع صديقة واحدة يتبادلن معها المناقشات الحميمة التي تؤثر على تكوين شخصيتهن، إذ إن «الأنا» تتطور وتنمو في هذه التكيفات المتبادلة. لذلك نلاحظ ان الفتيات، في هذه المرحلة، أنضج عامة من الفتيان. وعلى العموم فان الكائن في هذه المرحلة يحب رفاقه ويحب التحدث عن صفاتهم ويظهر عنده ميل الى الجماعات من جنسه (ذكور أو إناث) ،ويفضل اللعب معهم. ويهتم حدث العاشرة بالمدرسة، وذلك بسبب حسن تكيفه العاطفي: فهو يحب ان يتعلم وأن يتقَّبلَ الفروض المدرسية دون تذمر. اما من الناحية التربوية، فيلاحظ عنده سهولة في الفهم وهضم المعلومات وميل الى الرياضة واللعب الذي يقوم على الحركة. ويمكن القول انه من الناحية الخُلقية فانه يُلاحظ بداية الوعي الاخلاقي عنده، فهو يكره الغش ويتجنب استعمال الكلمات النابية. وأخيراً من ناحية التطور الجنسي: كثير من الفتيان والفتيات أسهموا في العاب جنسية وسألوا اسئلة عن الجنس، وكثيرون منهم يعرفون عن دور الأم في انجاب الأولاد ودور الأب في الاخصاب. وبعضهم يهتم بالنكات الجنسية ويتفوه بكلمات جنسية، وبعضهم يلعب دور الحارس للأخت.

٢) **سن الحادية عشرة:** يعتبر «جزل» هذه المرحلة عتبة المراهقة. ومن أبرز خصائص هذه المرحلة التغير في الوظائف الفيزيولوجية: فهو في حركة دائمة وفي جوع مستمر، وشدة قابليته للأكل لا يوازيها الا شدة تعطشه الى العلم والمعرفة. ويشتد في هذه السن اهتمامه بما يفعله الكبار، فهو يراقبهم ويقلدهم ويميل الى المناقشة ويتجنب البقاء لوحده.

وتظهر أيضاً في هذه المرحلة شدة الاندفاعية ونوبات الطبع في الغضب

والحماس. ان جميع هذه الخصائص من معاندة ومجادلة وخصومة مع الأتراب وتمرد على الأهل،على الرغم من أنها مواقف سلبية، فإن لها وظيفة ايجابية وهي تهيئة الفرد للتوافق مع الواقع وتأكيد الذات. ويتزايد الاهتمام بالجنس في هذه المرحلة، إذ يعمل الحدث على الحصول على المعلومات الجنسية من الآخرين، ويهتم بالسلوك الجنسي عند الحيوانات.

٣) **سن الثانية عشرة:** مرحلة العقلانية والاجتماعية الهادئة. ففي المواقف الاجتماعية يظهر الحدث عن وعي ذاتي، وهذا دليل على النمو والتطور النفساني. ويتجسَّد هذا الوعي الذاتي في إجابته عن الأسئلة التي تطرح عليه. يميل الى الانفتاح الاجتماعي ويحب معاشرة الآخرين ومشاركتهم، وهو ايجابي ومتحمس وأكثر اجاباته تتصف بأنها موزونة وليست انفعالية.كما كانت. وفي المدرسة يُظهر ميله الى الدرس والجد، واعجابه باستاذه الشاب الذي يغني العمل المدرسي بروحه المرحة ويوجهه نحو المعارف الجديدة.

وتبدأ بعض المفاهيم الأخلاقية تتوضح له ليصبح لها قيمة مثل العدالة والشرعية والاخلاص والاجرام والحياة، ويصبح حسّه الخلقي أكثر واقعية.

ومن ناحية الجنس يتركز اهتمامه بالكتب الجنسية وكثرة الايماءات والنكات ذات الطابع الجنسي والتفتيش عن بعض الكلمات في القواميس، والاهتمام الشديد بالتكوين الشرجي وتكوين الحيوانات، ويمر بتجربة الانتصاب والاستمناء ومحاولة التحرش بالبنات في جماعة وليس فرداً.

٤) **سن الثالثة عشرة:** هذه السن هي أكثر المراحل تعقيداً لأنها سن التغيرات الأساسية التي ستؤدي الى تغير السلوك بكامله. فمن هذه التغيرات ما سيكون ظاهراً ملحوظاً، ومنها ما سيظل كامناً لأن المراهق في هذه المرحلة يميل الى الانكماش وعدم التعبير عما يشعر به في داخله. في البيت يقضي أوقاتاً طويلة صامتاً أو مستغرقاً في أحلام اليقظة والتأمل، على عكس ما يكون في المدرسة حيث يُظهر اهتماماً شديداً بالواجبات المدرسية والمناقشات ويبرهن عن قدرة قوية في اكتساب العلوم.

وأبرز خصائص هذه المرحلة هي المبالغة بالحس بالواجب: الميل الى نقد ذاته ونقد الآخرين وخصوصاً الأهل، والتأرجح بين الانطواء والانكماش والانفتاح. فهو يحب مشاركة الآخرين في نشاطاتهم ولكنه يشعر انه مدفوع الى الانكماش والاهتمام بمشكلاته الداخلية والخارجية. لا يحتمل الانتقاد بينما يميل الى انتقاد أهله وطريقة معاملتهم له: فهو يأنف ان يعانقه أحد الأبوين، اما الفتاة فهي تميل الى انتقاد أمها بشدة في طريقة لبسها واختيار زينتها وحليها.

وفي سن الثالثة عشرة يصبح المراهق صعباً في اختيار اصدقائه، فهو قليل الأصدقاء وأحياناً تقتصر علاقته على صديق حميم واحد. والعلاقة مع الجنس الآخر تتأرجح بين التجاذب والتباعد. وهذه المرحلة هي مرحلة الاهتمام بالمظهر الخارجي عند الفتاة والفتى على السواء (مرحلة الوقوف طويلاً أمام المرآة)، ومرحلة التأثر بالتلفزيون والسينما والقصص في تكوين صورة الأنا المثالي عن طريق التماهي (IDENTIFICATION) بالأبطال.

وبصورة عامة، فان هذه السن هي فترة انتقال معقدة تشتمل على النمو الجنسي والجسمي والعقلي، وبروز التفكير وأسلوب المناقشة واقامة الدليل وبروز القدرة على التجريد واكتشاف مفهوم القانون والعلاقات السببية.

٥) سن الرابعة عشرة: يظهر عند المراهق في هذه المرحلة الميل الى الانفتاح والانبساط ويشتد شعوره «بأناه» مما يساعده على الثقة بامكانيته، وبالتالي الشعور بالغبطة والارتياح. هذه الخصائص دليل على نضج اجتماعي عنده واهتمام بالعلاقات مع الآخرين التي تقوم على الاختيار: فهو يختار الاصدقاء على أساس التوافق معهم في السمات الشخصية والتطابق في الاهتمامات.

وكثير من المراهقين، في هذه المرحلة يستمنون ويحتلمون، مما يولد عندهم مشاعر الخوف على صحتهم: خوف من المرض أو من الموت. ويتوجه اهتمام الفتيان بشكل نهائي الى الفتيات، ولكن يظل اهتمام الفتيات أكبر من اهتمام هؤلاء بالبنات.

٦) سن الخامسة عشرة: تتميز هذه المرحلة، حسب «جزل»، بشدة الوعي الذاتي وظهور ميل أشد الى الاستقلالية والتكيف مع الجماعات العائلية والمدرسية

والمجتمعية. ويتزايد الاهتمام بالجنس الآخر. وتظهر محاولات المواعيد واللقاءات واقامة العلاقات العابرة أو الدائمة. وتبرز هنا مظاهر الحياة العاطفية والتعلق العاطفي وبدايات الغرام، ويبدي المراهق الحياء من العري امام الآخرين، وتسود مظاهر الاعتزاز بالخصائص الجنسية الثانوية.

٧) **سن السادسة عشرة:** المرحلة التي تسبق مرحلة الرشد. خصائصها تعتبر نموذجاً لخصائص الراشدين. فهنا يصبح المراهق أكثر وعياً لذاته وأكثر اعتماداً على نفسه، وأكثر تكيفاً مع المحيط. فهذا الوعي المتزايد بذاته يكسبه قدرة في ضبط انفعالاته واندفاعه. فيميل المراهق الى الصداقات الدائمة والترابط الاجتماعي وتبدأ عنده الاهتمامات بالمستقبل مثل التفكير بصورة الفتاة التي يرغب الزواج منها، أو الفتى الذي سيشاركها حياتها، وتصبح العلاقات بين الجنسين أوثق وان كانت تتصف بصفات المثالية والرومانسية.

ثانياً: الاتجاهات النفسانية: دراسة الجانب النفساني في المراهقة

تُركِّز هذه الاتجاهات، كما بيَّنا سابقاً، ليس فقط على النمو الجسمي والجنسي عند الكائن، وبل أيضاً على ما يصاحب هذا النمو من تأثيرات على حياة المراهق وسلوكه. فغموض هوية المراهق وميوله المتناقضة وصراعاته النفسية وقلقه الجنسي تؤلف جميعها، في هذه المرحلة، عوامل أساسية في انهيار توازنه عامة واضطراب علاقاته مع ذاته ومع الآخرين.

فهذا الانهيار في التوازن البيولوجي والنفسي وظهور الوظائف الجديدة في حياة الكائن، هي مظهر من مظاهر ما يطلق عليه اسم ازمة المراهقة: أزمة تخلق مواقف متناقضة ورفضاً وثورة. فالمراهق يرفض الخضوع لسلطة الأهل ويكف عن الثقة بالأفكار السابقة والأوامر المفروضة: فما كان يعتبر أفعالاً طبيعية لا يمكن الاستغناء عنها أو الامتثال لها في مرحلة، تصبح افعالاً غير مرغوب فيها ومرفوضة. فهو يريد الآن ان يفعل ما يريده، وان يمتنع عن القيام بما لا يريده. ان البحث عن أسباب هذه المشكلات التي يصادفها المراهق في هذه المرحلة، والتفحص في عملياتها وديناميتها وايجاد الحلول الملائمة الكفيلة بخفض مأزقيتها، هي التي تستأثر باهتمام أصحاب هذه الاتجاهات النفسانية.

أولاً: الاتجاه «الفرويدي»

إن «فرويد» في نظرته الى المراهقة يتوقف عند البُعد التاريخي لهذه الظاهرة: فهو لا يرى ان المراهقة هي ولادة جديدة، كما يقول «هول»، بل هي اعادة تنشيط لبعض العمليات التي حدثت في الطفولة، وخصوصاً في المرحلة الأوديبية.

ويمكن القول، بصورة عامة، ان جميع نظريات التحليل النفسي حاولت البحث عن الأسباب العميقة للتغيرات البنيوية التي تحدث في شخصية المراهق وسلوكه، ولكنها تقر بصعوبة هذا البحث بسبب مواقفه المتناقضة ومشاعره التي تتصف بالثنائية.

ان هذه المرحلة ـ الأزمة تذكرنا بأزمة أخرى حدثت في مراحل سابقة هي أزمة الأوديب التي توصف هي أيضاً بأنها عملية تنظيم بنيوي لشخصية الكائن. فمع الوصول الى النضج الجنسي في مرحلة البلوغ وتيقظ النزوات الجنسية تنشط من جديد المرحلة القضيبية[٣] (Phase Phallique)، بمعنى ان التوترات الجنسية تتزايد

٣ـ المرحلة القضيبية (Phose Phollique): هي مرحلة من مراحل «التنظيم الطفلي للبيدو» (أو الطاقة الجنسية) بعد المراحل الفمية والشرجية. وتتصف بتوحيد النزوات الجزئية تحت سيادة الأعضاء التناسلية. ولكن خلافاً لحالة التنظيم التناسلي عند البلوغ لا يعرف الطفل في هذه المرحلة، صبياً كان أم بنتاً، سوى عضو تناسلي واحد هو العضو الذكري، مما يجعل التعارض بين الجنسين معادلاً للتعارض:

قضيبي ـ مخصي. تتوافق المرحلة القضيبية مع ذروة عقدة الأوديب وأفولها، حيث تسود عقدة الخصاء (معجم مصطلحات التحليل النفسي ـ الطبعة الأولى ـ ص ٤٧٤٠ ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع).

أما فيما يختص بالمرحلتين الأوليتين: المرحلة الفمية والمرحلة الشرجية فقد عرض لها «فرويد» بالشكل التالي حسب «معجم مصطلحات التحليل النفسي ـ «لابلانش ـ وبونتالس» الترجمة العربية للدكتور مصطفى حجازي.

١ ـ المرحلة الفمية: هي أول مراحل التطور اللبيدي: ففيها يسود ارتباط اللذة الجنسية باثارة الفجوة الفمية والشفتين اللواتي تلازم تناول الغذاء. يقدم النشاط الغذائي الدلالات الانتقائية التي تنتظم من خلال علاقة الموضوع وتفصح عن نفسها؛ فمثلاً توضع علاقة الحب مع الأم بدلالات: أكل، يؤكل. (المرجع نفسه. ص، ٤٧٢).

٢ ـ المرحلة الشرجية: انها تبعاً «لفرويد» المرحلة الثانية من التطور الليبيدي التي تقع بشكل تقريبي ما بين عمر السنتين والأربع سنوات. تتميز هذه المرحلة بتنظيم اللبيدو تحت صدارة المنطقة الغلمية الشرجية حيث تصطبغ علاقة الموضوع بالدلالات المرتبطة بوظيفة الاخراج (الطرد والامساك) وبالقيمة الرمزية للبراز ويُلاحظ خلالها تدعيم السادو ـ مازوشيه في علاقتها مع نمو لضبط العضلي. (المرجع نفسه ص ٤٧٠).

وتضغط على الأعضاء التناسلية. ويظهر من جديد قلق الخصاء (CASTRATION). ويلاحظ في الوقت نفسه، كأواليات دفاعية، نكوصية الى مرحلة سابقة هي المرحلة السادية ـ الشرجية (SADO-ANAL)، أي المرحلة التي يكون فيها الطفل في حالة هيجان وعدوانية. فالمراهق يأكل بشراهة ويكره النظافة ويستعمل لغة وقحة في نكاته وأحاديثه بمستوى الكلام الشرجي (SCATOLIQUE).

إن هذا التنشيط القضيبي يظهر بشكل مغاير عند الفتاة:

ـ **الشكل الأول:** الاحتجاج الذكري (PROTESTATION VIRILE) عن طريق رفض انوثتها والرغبة في القضيب. نجد هنا الفتاة، التي يطلق عليها اسم «الصبي الناقص» (GARÇON MANQUE) تشارك في الألعاب الصاخبة وتعشق الرياضة الذكورية. فهي تعمل وتسلك لتنسى ولتجعلنا ننسى أنها أنثى، وتوجه عدوانيتها تجاه أمها التي تعتبرها السبب في كونها تنتمي الى الجنس الانثوي.

ـ **الشكل الثاني:** شكل الفتاة التي تقبل أنوثتها وتُظهر سيطرة الميول السلبية وميلاً مبكراً نحو الجنس الآخر.

ولكن لا بد من الاشارة إلى ان «فرويد» واتباع التحليل النفسي لا يعتبرون المراهقة اعادة طبق الأصل لمراحل حياة الكائن الأولية، لأن الشخصية التي تقع تحت ضغط هذه المشكلات الجديدة تختلف عن الشخصية في المرحلة القضيبية أو الأوديبية، إذ ان الشخصية تكون قد تشكلت وانتظمت في مرحلة الكمون، و«الأنا» أصبح يملك وسائل أخرى للسيطرة على صراعاته. صحيح انه لم يعد بامكانه الاعتماد على «الأنا» الداعم الذي كان يتجسد بالأهل لأنه ابتدأ الاستقلال عنهم، ولكن «أناه» الآن أصبح قوياً كونه قد وظف مرحلة «الكمون» التي تتصف بخمود الصراعات النزوية في اكتساب المعرفة والأواليات التي توجه نحو الواقع. فهو توصل الى اكتساب التماهيات الثابتة التي تجعله مستقلاً عن الآخرين، واستدمج القوانين والقواعد الأخلاقية والاجتماعية وأصبح أكثر اندماجاً اجتماعياً وأكثر قدرة على المشاركة في مجموعات الآخرين.

ففيزيائياً قد اكتسب المراهق القوة والمهارة، وذهنياً قد تطور تفكيره فلم يعد تفكيراً أنوياً (EGOCENTRIQUE)، بل أصبح تفكيراً موضوعياً.

ان هذا التوازن السليم في القوى والقدرات ينهار بشكل مفاجىء نتيجة تيقظ هذه الطفرة في الشحنات الجنسية. فتصبح المراهقة هكذا مرحلة استعادة التكيف النفسي ورد فعل الكائن أمام انهيار توازنه.

وبينما يعتبر بعض علماء التحليل النفسي ان الشحنات «اللبيدية» (LIBIDINAL) وحدها فقط هي التي تتزايد في مرحلة المراهقة، فإن «أنّا فرويد» (ANNA FREUD) ترى أن هذا التزايد يصيب أيضاً الشحنات العدوانية. فينتج عن تغير ميزان القوى «الليبدية» والعدوانية مشكلات ونتائج كثيرة، إذ يشعر «الأنا» بالتهديد من خطر طغيان هذه القوى الجديدة.

فكيف سيدافع «الأنا» عن نفسه تجاهها؟ وكيف سيتوصل الى السيطرة عليها؟ وماهي التغيرات البنيوية التي تحدث نتيجةً لهذه الصراعات الداخلية؟.. ثم ان هذه الشحنات هي، في طبيعتها، تتوجه نحو مواضيع يمكن إشباعها، فكيف تتكون هذه المواضيع وتتنوع؟ ان هذه المشكلات وطريقة معالجتها هي التي يتناولها التحليل النفسي في دراسة المراهقة.

من جهة العلاقة بالموضوع، يرى بعض اتباع التحليل النفسي ان المراهقة هي مرحلة قلق وحنين نتيجة ابتعاد المراهق عن أهله واهتمامه المتزايد «بأناه» وانخراطه في علاقات جديدة. ففي هذه المرحلة يحدث اعادة توظيف لمواضيع حب طفلية - أوديبية، كنتيجة لهذه الطفرة «اللبيدية»، وبالتالي اعادة تنشيط عقدة «الأوديب»، مما يهدد بمخاطر كثيرة - أكثر مما كانت في مرحلة الطفولة - لأن الجنسية هنا تكون أشد الحاحاً ومخاطر النبذ من الأهل أشد وقعاً، «فاللبيدو» الذي كان موظفاً كلياً في موضوع واقعي، يوظف هنا من جديد، نتيجةً لتيقظ الشحنات الجنسية، في هوامات (FANTASMES) سلفية.

ولكن بعضاً من أصحاب التحليل النفسي يفسر العلاقة بالموضوع بشكل آخر،

معتبراً ان المراهقة هي مرحلة فقدان صورة ما عن الأهل بسبب العلاقات المتبادلة. فالمراهق يعيش، في هذه المرحلة، هواماً موت أهل طفولته.

فبفضل امكانياته الجديدة المتطورة وفائض الطاقة التي يملكها فان هذا التخلي عن صورة الأهل هو المدخل الى نوع جديد من التعلق. فشيء طبيعي ان يكون هذا الانسلاخ عن الأهل ومسار التطور اللاحق يفرضهما توجه التطور نفسه الذي يرمي الى الاستقلالية والتمايز. بهذا المعنى يمكن القول ان رفض الأهل والعنف الذي يتخذه التوجه نحو الاستقلالية هما خاصتان دفاعيتان لأن ما يهرب منه المراهق هو الخطر المتأتي من الأب والأم «الأوديبين» ونوازعه تجاههما: فلأنه يتعلق بهما فهو يودّ الهروب منهما!.

ان هذا الموقف هو الذي يفسر التأرجح في الميل الى الاستقلالية والتعلق ومحاولة التماهي بصور الأهل.

تكلم «فرويد» عن هذه العملية في مقالته (DEUIL ET MELANCOLIE)[٤] : «الحداد والاكتئاب» حيث يعتبر ان الموضوع المفقود موجود دائماً في «الأنا»، والعدوانية (التي تتوجه في الأصل ضد الموضوع اللبيدي كون كل علاقة هي علاقة قائمة على ثنائية المشاعر: حب وكراهية) تتوجه الآن، في مرحلة المراهقة، ضد الكائن نفسه، فيسيطر عليه الحزن والكآبة ويقع ضحية العذاب الذي يفرضه على نفسه. فمن هنا وصف مرحلة المراهقة بأنها المرحلة التي تسيطر الكآبة فيها على المراهق دون ان يعرف سببها، وحيث يشعر بأنه لا يرتبط بأحد أو بشيء، ويميل الى الانطواء والعزلة. ولكن هذه الكآبة التي تسيطر على المراهق لها نتيجة ثانوية وهي انها تسمح لقسم من العدوانية أن تفرغ في موضوع الحب القديم. فيصبح أمام عدوانية دفاعية تتوجه نحو الموضوع الخارجي، وعدوانية حزن وكآبة تتوجه نحو الداخل.

٤ـ FREUD: Deuil et Mélancolie in métapsychologie cité par laplanche, J. dans l'article: Les normes morales et sociales leur impact dans la topique subjective in Bulletin de Psychologie IIVI 307 - 1972 - 1973 - 14-16.

ان هذه الصورة المأسوية للمراهقة، بسبب انقطاع العلاقة بالموضوع اللبيدي وفقدان هذا الموضوع، تفسر الشوق والحنين عند المراهقين: الحنين هو تعبير عن الرغبة في العودة الى وضعية ما قبل - أوديبية، حيث كان الكائن سعيداً مع أمه وأبيه في وحدة سلبية، فهو واقع أسير الرغبة في الحصول من جديد على الموضوع اللبيدي الذي فقده، وذلك على مستوى المرحلة السابقة، حيث لا يوجد صراع. ففي هذا المعنى تقول «هورني» (KAREN HORNEY) ان الحنين هو التعبير عن صراع بين التعلق بالأهل والثورة ضدهم، وهو مظهر من مظاهر ابتداء المراهقة.

وفقدان صورة الأهل يشكل عاملاً مهماً آخر هو التأثير الذي يحدثه على شخصية الكائن، إذ ان العلاقات التي كانت تربطه بأهله كانت علاقات متبادلة يتكامل بعضها ببعض. فكان الأهل يقدمون له الحب والأمن ومثال الصورة التي يكوِّنها عن ذاته، فهم الذين يحققون له قيمة الذات. فعندما يفقد صورة أهله وتنقطع علاقاته بهم فإن دوافعه تجاه ذاته تتغير، ويكفُّ «أناه» عن الشعور بالدعم والسند والتشجيع من الأهل، بل، على العكس، يشعر بأن عدوانيتهم كلها موجهة ضده، أو كأنهم يعملون على الانتقام منه لأنه يعاكسهم وينتقدهم. لذلك فان «الأنا» يدفع الى البحث عن أسس جديدة لتقدير ذاته وأواليات تعيد له الاعتبار، منها:

١) الاقلاب العاطفي: بمعنى انه يحوِّل عواطفه تجاه الأهل الى نقيضها أي ان الحب يتحول الى كراهية والاحترام والاعتزاز الى احتقار وتبخيس، معتقداً هكذا انه أصبح مستقلاً ومتحرراً منهم ولكنه في الواقع يظل أسير التعلق بهم.

«ان هذا الاقلاب العاطفي لا يؤدي الى ارضاء متطلبات المراهق لأنه استجابة عدوانية يستجيب الأهل بدورهم لها بعدوانية مماثلة، فيجد نفسه سجين علاقة سادية - مازوشية. فهذه الأوالية بدلاً من أن تحرره تزيد في قلقه: قلق فقدان العاطفة والأمن وخوف من اسقاط العدوانية على الذات. فهذا القلق وهذا الخوف هما سبب حالات الاكتئاب التي تسيطر على المراهقين»[٥].

---

٥ ـ المرجع نفسه: .Laplanche J

٢) الدفاع عن الذات عن طريق ازاحة[٦] (déplacement) «اللبيدو» على موضوعات جديدة من خلال علاقات عاطفية رمزية، فهنا عدة حلول:

ـ تعلق «اللبيدو» ببدائل عن الأهل: اساتذة ـ أصدقاء ـ رجال دين الخ...

ـ تعلق «اللبيدو» بالمُثل: مثال الأنا (تعلق شديد بالأهل) أو التعلق بالقائد أو الأبطال، أو بجماعات الأتراب وشلل المراهقين.

ان مثل هذه التوجهات التي يتخذها «اللبيدو» ليست شكلاً مرضياً أو شاذاً بل يمكن ان تغني الكائن وشخصيته على الصعيدين العقلي والعاطفي.

ولكن هذا الهروب العاطفي قد يصاحب، أحياناً، بهروب حقيقي يحمل الفتى أو الفتاة الى ترك البيت، أو قد يكون هروباً رمزياً: يظل في البيت ولكن كشخص غريب، يؤمن له المأكل والمأوى ولكن لا يجد فيه اشباعاته العاطفية.

٣) الدفاع عن الذات بتوظيف «اللبيدو» على الذات عندما لا يجد موضوعاً خارجياً نتيجةً للإحباط والقلق فانه يتجه نحو الذات: فيصبح «الأنا» هو موضوع الحب [وهذا ما يعرف باسم نرجيسية المراهقة[٧] (NARCISSISME)].

ان العشق الذاتي هذا يؤدي الى تضخيم الأهمية المعطاة «للأنا» ونشاطاتها (على الصعيد العقلي يعتقد المراهق انه دائماً على حق ولا يقبل بحكم أو منطق). ويميل المراهق الى الانطواء والعزلة (الاكتفاء بالذات)، والى الاستعراض الذاتي (عن طريق الثياب والتزين).

٤) الدفاع عن طريق النكوصية التي تؤلف نوعاً من الهروب أمام المآزم ومخاطر العلاقات بالموضوع. فيجد، بالرجوع الى التماهيات البدائية، راحة وسعادة. ولكن

٦ ـ ازاحة: (Déplacement): أوالية دفاعية من أواليات الأنا.

٧ ـ النرجيسية (Narcissisme): تكلم فرويد عن النرجيسية الأولية وارجعها الى الحالة المبكرة التي يقوم الطفل خلالها بتوظيف كل «اللبيدو» الخاص به في ذاته هو. وتشير النرجسية الثانية (وهي التي تظهر في المراهقة)، الى ارتداد اللبيدو المنسحب من توظيفاته الموضوعية الى «الأنا» (معجم مصطلحات التحليل النفسي: الترجمة العربية للدكتور مصطفى حجازي).ش

هذه الراحة تكون لفترة قصيرة، لأن قلقاً جديداً يبرز هو قلق الانهزام الانفعالي والتفكك والشعور بفقدان «الأنا» (قلق فقدان الهوية الذاتية). فيتكون عندئذ أواليات دفاعية ضد هذا القلق المستحدث، هي أواليات السلبية والثورة التي تمكن المراهق من رد الاعتبار إلى ذاته وتأكيد هويته.

كان «لفرويد» وأتباعه اسهامات كبيرة في دراسة وفهم الاضطرابات الجنسية والنفسية والسلوكية عند المراهق، وفي ابراز الصعوبات التي تنشأ في هذه المرحلة: الصراع بين الشحنات الجنسية في مرحلة البلوغ والقلق المرتبط بالتحريم الاجتماعي للجنس، والصراع مع الأب والسلطة التي ترمز الى الأب، وخصوصاً الصراعات الذاتية نتيجةً لثنائية المواقف.

واتخذت الأواليات الدفاعية، التي يلجأ اليها المراهقون لاستعادة التوازن الذي ينهار بسبب طغيان النزوات الجنسية، حيزاً واسعاً من الاهتمامات العيادية في التحليل النفسي. فكما بيَّنا أعلاه، فان أواليات «الأنا» المتماسكة التي تعمل على حلّ الصراعات، قد تنتهي بالكائن الى نتائج لها تأثير سلبي على سلوكه، لأنه اذا انتصر «الهو» وسيطرت الشحنات الغريزية حدث ازدياد في احلام اليقظة، ونكوصية لاشباع جنسي طفلي (نشاط غُلمي[٨] ـ ذاتي واستمناء وتصرفات عدوانية) بسبب ضعف الأواليات التي تؤدي الى التكيف الاجتماعي عند الكائن. أما اذا انتصرت «الأنا» كُبتت الغرائز والرغبات وأدَّى ذلك الى أشكال مختلفة من القلق وإلى اعراض عُصابية، لأن اشباعات المراهق تنحصر في حدود الحاجات الغريزية الضيقة لمرحلة الطفولة، بمعنى ان كمية الطاقة «الليبيدية» الزائدة في المراهقة، لم تستثمر ولم تستعمل، مما يستوجب توظيفاً ـ معاكساً وأواليات دفاعيةً تدفع بالمراهق الى مواقف متناقضة مثل: الأنانية يقابلها حب الآخرين، والميل الى الإنفتاح يقابله الميل الى الانكماش الذاتي، والتهالك على الملذات يقابله العفة والتعفف.

وفي المراهقة أيضاً تنسلخ «الأنا» عن «الأنا الأعلى» (SUR-MOI). وبما ان «الأنا

٨ـ غُلمي ـ ذاتي: Auto-erotisme.

الأعلى[٩] تمثل قيم المجتمع التي تتمثل، في هذه المرحلة، بارتباطاتها الحميمة مع الأهل، فإنها تصبح شيئاً محرماً ومشبوهاً (صراع «الأنا» مع «الأنا الأعلى»). ونتيجة لهذا الانسلاخ بين الأنا والأنا الأعلى يزداد الخطر المتأتي من الدوافع الغريزية الكامنة في «الهو».

ثانياً: بعض المواقف التحليلية الأخرى في المراهقة

١ ـ موقف «دوتش» (Hélène DEUTSCH)

لقد خصصت «دوتش» في كتابها «سيكولوجيا النساء»[١٠] فصلاً للكلام عن المراحل التي تمر بها الفتاة لتصل الى الأنوثة، وحاولت ان تبيِّن التطور الجنسي عندها وانعكاساته النفسية، ولقد اعتبرت ان مرحلة المراهقة عامة تتصف بالنسبة الى الفتاة بأنها مرحلة:

ـ النشاط المفرط ومواجهة العالم تدعيماً «للأنا» الذي خرج من «الأوديب».

ـ الانفصال عن الأهل والأسرة بشكل متجاذب عاطفياً.

ـ الانتقاد العنيف، خصوصاً للأهل والابتعاد عن الأم رغبة في تأكيد استقلاليتها.

ـ التماهي بالمثل العليا: هذه المثل التي قد تتجسد في معلمة أو صديقة أو أخت كبرى.

ـ التحالف مع صديقات من جنس واحد، وإنشاء جماعة مقفلة تقوم على مبادىء من السرية التي غالباً ما تتركز على الاهتمام الجنسي والحمل والميلاد، ويصبح كل شيء له دلالة جنسية (الايماءات.. الكلمات...).

---

٩ ـ «الأنا» الأعلى: النظام الثالث الذي ينمو من الشخصية، فهو الممثل الداخلي للقيم التقليدية للمجتمع ومُثله، كما تفرض على الطفل من الأهل بواسطة نظام الثواب والعقاب.

١٠ ـ Psychologie des femmes tome I (P.U.F) --

وقد قسمت «دوتش» المراهقة الى مراحل:

أولاً: مرحلة ما قبل البلوغ:

تتصف هذه المرحلة بالخصائص التالية:

١ ـ التطور الكبير في «الأنا» (استكمال مرحلة الكمون) في اتجاه الاستقلالية والمسؤولية والميل الى احتكاك أكبر بالواقع. فهنا يلاحظ ان دائرة الافراد الذين يستثيرون اهتمام الفرد تتوسع مما يؤدي الى ارادة الخروج من الأحلام والخيال.

ب ـ يصاحب نمو «الأنا» تبخيس بقيمة الأهل، فيخرج من حالة الذوبان والاندماج معهم بحيث لا تمر علاقاته بالعالم من خلال أهله.

ج ـ تقوم الفتاة باختيارات عاطفية جديدة تتجه نحو المعلمة أو المعلم الذي توليه جزءاً كبيراً من الثقة التي كانت توليها لأهلها سابقاً، وتظهر نحو الأهل عدوانية وكراهية نسبية، وتتخذ كمثال لها صديقة أختها أو أخت صديقة أكبر منها سناً، وهكذا فانها تنقل توظيفها العاطفي من فتاة صغيرة في عمرها الى فتاة أكبر، فهنا الانتقال من مصاحبة أقرانها الى تقليد نموذج شخصي أكبر.

ان التحليل النفسي قد بيَّن كيف يتم هذا الانتقال في العلاقات العاطفية: انها تحب من خلال صديقتها جميع الذين تحبهم صديقتها.

والفتاة أيضاً يمكن أن تتماهى ببطلة معروفة، وتميل الى معرفة أسرار الكبار. وهي تختار الصديقة الحميمة، فهذا الاختيار يمثل مظهر الانفصال عن الأهل، وعادة يصاحب هذه الصداقات الحميمة بين البالغات الصغيرات طقوس يقلدن بها الراشدات: التبرج والتزين والتظاهر بالحمل.. وفي هذه العلاقات الحميمة نلاحظ دينامية لعب الأدوار: فواحدة تلعب الدور الايجابي والأخرى الدور السلبي، والأولى تأمر والثانية تطيع..

جميع هذه المظاهر هي مظاهر ما قبل النضج. فمن خلالها نشهد سلسلة من

التصرفات لا ترغب الفتاة فيها، ولكنها تقوم بها نتيجة تطور هائل في الخيال، فنجد لديها تركيباً خيالياً لنضوج لم يأت بعد. فالميل الى الجنسية الغيرية هو ميل جنسي خيالي، حيث نجد استباقاً ونكوصية الى مرحلة الطفولة. يوجد هنا دائماً التباس في هذه المرحلة حيث يظهر الخوف والرغبة في حياة الراشدين، واستمرار الحاجة الى الحماية، وفي الوقت نفسه ارادة التخلي عن هذه الحماية. لا شك ان هذا الالتباس تعززه مشاعر الأم التي تمثل النقيض أو المكمِّل لاتجاهات الفتاة: فالأم ترغب في كبر ابنتها، ولكنها تشعر في الوقت نفسه بالأسى لأن أبنتها «تفلت» منها ومن حمايتها.

ان قلق الأم تجاه هذه التغيرات في هذه المرحلة يزيد من قلق الفتاة. فالبلوغ قد يكون مكمنا خطراً له تأثير مضر على حياة الطفلة الراشدة اذا كان الجهد في التحرر من الأهل قوياً أو ضعيفاً. فالتطور الحقيقي والنضج الحقيقي يقومان على ظاهرة مزدوجة: تخطي الماضي والاحتفاظ به. ان التخطي الحقيقي هو احتفاظ في الوقت نفسه: عندما نصبح شيئاً آخر لا يجب ان نرفض ما كنَّا عليه. فاذا كان الانقطاع عنيفاً أدى ذلك الى طفلية طويلة عند الراشد (تعلق ـ ضعف في العلاقات مع الآخر ـ صداقة وحب يستعاض عنهما بتعلق عاطفي سلبي وطلب للحنان...).

ثانياً: مرحلة البلوغ

في مرحلة ما قبل البلوغ لا وجود لجنسية غيرية في العلاقات العاطفية.

في هذه المرحلة يتم الانتقال الى الجنسية الغيرية بطريقة غير مباشرة بواسطة العلاقة الثلاثية: اذ ان الفتاة تلعب دور الوسيط، أو قد تحب من خلال هذا الدور الذي تقوم به بين الأخت الكبرى وصديقها أو الأخ وصديقته. فسلوكها يترجح ما بين الفتاة التي يحبها أخوها والتعلق بها، وتكريس نفسها لتسهيل مهمتها للتواصل مع أخيها أو المزاحمة والتنافس، أي انها قد تحاول أحياناً أن تحل محل أختها في محبة صديقها. وهذه الوضعية نجدها في حب فتاتين للمعلم نفسه.

ويسيطر في هذه المرحلة على الفتاة شعور بالفراغ، فهي تشعر بالضيق وعدم الارتياح في وضعها لأنها لم تعد طفلة ولم تصبح بعد راشدة في آن معاً.

ثالثاً: مرحلة المراهقة

تتصف هذه المرحلة بنوعين من العمليات:

أ ـ مجابهة النوازع الجنسية نتيجةً لتطور الأنا الأعلى.

ب ـ طفرات نمو الأنا: النرجسية.

في هذه المرحلة ينمو «الأنا» ويقوى، وهذا النمو يدفع الفتاة الى الاستقلالية والتحرر التدريجي من قيود الأهل والبحث عن علاقات جديدة.

والأنا في بحثه عن الاستقلال الذاتي يحول الشحنات اللبيدية الى الذات بعد ان تحرر من الوالدين، وهذا يؤدي الى الشعور بأهمية الذات وشعور بالتعالي. فهذان النوعان من الشعور يدفعان الفتاة الى الانفراد والانطواء على ذاتها، والانكفاء في وحدة مؤلمة تكون مجالاً للتخيلات والأحلام وتصور الذات في حالات مختلفة (خطوبة ـ زواج ـ حياة عائلية ـ أولاد...). وهذه الحياة الانسحابية قد تكون سبباً في حالات مرضية اذا لم تنشأ علاقات مع الآخرين.

وتعتبر «دوتش» ان الفتاة، لحماية ذاتها من طغيان النزوات ولتدعيم «الأنا»، تنخرط في مغامرات أو أشباه مغامرات تحاول فيها ان تحظى باهتمام أكبر عدد من الفتيان وبإعجابهم (استعراضية الفتاة لذاتها).

ولكن هذه المغامرات وهذه العلاقات الخيالية، بدلاً من حل صراعاتها، تزيد من تضخم الذات وتضخيم خيالها فتنطلق وراء مشاريع وأحلام: ان تصبح شاعرة ـ فنانة أو أديبة أو ممثلة.. فهذه المشاعر كلها تصطدم بمشاعر مضادة من النقص والعجز، مما يؤدي الى انعدام الثقة بالنفس وأحياناً الى اليأس. فتنشط أوالياتها الدفاعية، وتحاول ان تسقط على غيرها، وخصوصاً الأهل، عجزها وتتهمهم بمنعها من الانطلاق.

وترى «دوتش» ان الفتاة قبل ان تصل الى الجنسية الغيرية من طريق الزواج، تتصارع في نفسها النزوات الجنسية وتلح عليها، فتشعر بالحاجة الى اللجوء الى أواليات دفاعية منها:

أ ـ الهروب من الحياة الجنسية والعيش في عالم الخيال. وهنا نجد نمطين من الفتيات:

ـ نمط أول: البنت الحالمة: عادة ما تكون خجولة تقيم عالماً ذاتياً زاخراً بصور الحب والزواج يبعدها عن العالم الواقعي.

ـ نمط ثانٍ: البنت التخريفية: التي تنسج القصص والروايات وتدعمها بوسائل مثل كتابة رسائل لنفسها أو شراء أزهار لنفسها.

ب ـ مجابهة الحياة الجنسية: وهنا نجد أيضاً نمطين من الفتيات:

ـ نمط أول: البنت المغامرة: التي تجابه النزوات الجنسية بمغامرات واقعية وتنادي بالتحرر الجنسي.

ـ نمط ثانٍ: البنت التي تستعلي على حياتها الجنسية من طريق المشاريع الاجتماعية أو الانسانية أو المهنية أو السياسية.

٢ ـ موقف «انًا فرويد» (ANNA FREUD): المراهق والأواليات الدفاعية

تميزت أعمال «انًا فرويد» في دراسة الأواليات الدفاعية ضد نزوات «الهو» في كتابها «الأنا والأواليات الدفاعية»[11]. فهي تعتبر ان «الأنا»، في مرحلة البلوغ، يستخدم جميع الوسائل الدفاعية التي يملكها لاسترجاع التوازن الذي ينهار نتيجة لطغيان النزوات المتأتية من «الهو» وسيطرتها على «الأنا». فمن هذه الأواليات التي تتكلم عنها:

أ) أوالية التعفف: (Ascetisme)، أي التحرر من اللذة بمعناها العام، ورفض جميع الدوافع الغريزية ومجابهة الرغبات الطاغية بوسائل دفاعية. وقد يمتد هذا التحرر من الشحنات والرغبات الى ان يشمل الحاجات الطبيعية العادية. فيصبح كل ما يمكنه ان يؤدي الى لذة ما مشبوهاً يجب تجنبه: معاشرة الأتراب والنشاطات الجماعية، وحتى أحياناً الاشباعات الغذائية الضرورية.

---

١١ ـ FREUD A.: Le moi et les mecanismes de defense (P.U.F). chapt XII -

ومن مظاهر التعفف المتطرف المخاطرة بالصحة كارتداء الملابس التي لا تتلاءم مع الطقس، أو الزام النفس بالنهوض باكراً والاقتصاد بالطعام الخ... ان ما يميز التعفف، كوسيلة دفاعية ضد النزوات، عن غيره من وسائل الدفاع في العُصاب مثلاً، هو أن التعفف لا يقوم على التوفيق بين النزوات. إذ ان الرفض هنا هو رفض قاطع لجميع أنواع النزوات، بما فيها تلك التي تحاول ان تظهر بشكل مقنَّع.

ان صدَّ النزوات من طريق التعفف يؤدي الى اشباعات نرجيسية: الشعور برضى وحماية «الأنا الأعلى» المسيطر، والشعور بالاعتزاز لسيادة الأخلاق والفضيلة. ان هذه المشاعر تجعل المراهق يشعر بالتفوق على الآخرين.

وفي لاوعي المراهق العميق، فإن هذا الصد للنزوات التي يفرضها بالنسبة الى دوافعه، تكون مصدراً لإحساس باللذة شبيه بالاحساس الذي يشعر به «المازوشي»، والذي يمكن تسميته بالألم اللذوي (Souffrance érotisée).

إن أوالية التعفف هي ظاهرة مؤقتة تعود بعدها النزوات المكبوتة وتخترق فجأة السدَّ فيحصل تحول كلي في سلوك المراهق، مثل العدوانية تجاه المؤسسات الاجتماعية.

ب) أوالية العقلنة (INTELLECTUALISATION): اذا كان التعفف هو الصدَّ لنزوات «الهو»، فإن هدف أوالية العقلنة هو اعطاء هذه النزوات محتوى فكرياً أي عقلنتها واخضاعها لحكم العقل. فيلجأ المراهق الى المناقشات حول الأمور الحياتية والاجتماعية، ويتدخل من طريق ابداء الرأي والبراهين التي لا تقوم في أغلب الأحيان على منطق واضح. فهذه المناقشات لا تعني ان المراهق قد أصبح قادراً على الاقناع، والعقلنة ليست غايتها الواقع والموضوعية، وانما تستخدم للدفاع ضد النزوات والغرائز. فبدلاً من الهروب امام طغيانها يحاول ان يتحول اليها ويجابهها فكرياً.

يمكننا ان نضيف الى هاتين الأواليتين اللتين تكلمت عنهما «انَّا فرويد» وسيلة أخرى تعتبر وسيلة دفاعية يلجأ اليها المراهق، لمجابهة طغيان الشحنات الغريزية أو صدِّها. عنيت أوالية الانخراط في عُصب الأحداث.

ان المراهق، هرباً من ضغط الصراعات التي تظهر بين أجهزة الشخصية والعالم الواقعي، يلجأ الى الانخراط في عُصب الأحداث، لأن المراهق، تجاه هذه الصراعات، يشعر انه يقف وحيداً. فهذا الشعور يظهر في مظاهر أبرزها ان الراشدين لم يعودوا يفهمونه. نتيجة لذلك، يعمد المراهق إما الى مذكراته يسجل فيها ما ينتابه من شعور بالقلق والاضطراب، وإما إلى الانخراط في شلل الأحداث على أساس أنهم وحدهم يفهمون مشاكله.

ويجد المراهق في هذه الجماعات الفرصة لتعلم الحياة الجمعية، مثل التعاطف والمساعدة المتبادلة والتضحية في سبيل الصديق، دون ان تكون خاضعة لقوانين مفروضة من الراشدين.

ولكن اذا كان الانخراط في عُصب الاحداث غالباً ما يكسب الفرد امكانية الاندماج الاجتماعي، فقد اتضح للمحللين الذين درسوا هذا الأمرعدم امكان التعميم المبسط، لأن الذوبان في عُصب الأحداث قد يأخذ مظهراً واتجاهات ربما كانت بذوراً لعدد من الانحرافات، مثل الجنوح والعدوانية المتطرفة والعُصاب، وأحياناً الذهان والانتحار.

«موكياللي» (MUCCHIELLI) في كتابه «كيف يصبحون جانحين»[١٢] تقدّم بتفسير افتراضي لعملية الانتماء الى عُصب الأحداث، معتبراً انها عبارة عن رفض المجتمع المنتظم وتفضيل الجماعة التي تفهم مشاكل المراهق. ان هذا الانتماء ليس له صفة الالتزام والقسر الذي يعانيه المراهق في علاقاته الأسرية.

فيصبح الانتماء الى عُصب الأحداث، بهذا المعنى، سلوكاً تعويضياً، كما يقول «أفانزيني»[١٣] (AVANZINI) عن بعض ما فقده المراهق وعن الحرمان الذي يعانيه المراهق. فهو، في الواقع، استجابة لانواع ثلاثة من الحاجات: العاطفة والأمن والتقويم الذاتي.

---

١٢ - Mucchielli R.: Comment ils deviennent delinquants (coll. ESF)

١٣ - AVANZINI G.: Le temps de l'Adolescent (universitaires)

فالحياة في العُصب تعوّض عن النقص العاطفي العائلي من طريق ازالة الشعور بالنبذ والعزلة. والمراهق الذي تطغى عليه مشاعر النبذ وعدم الاهتمام، يستولي عليه الشعور بالضياع وعدم الاطمئنان أيضاً. فالمحيط النابذ أو القاسي يدفع المراهق الى البحث عن محيط آخر يجد فيه الأمن والاطمئنان النفسي. وأخيراً، يؤدي الشعور بالنبذ والحرمان حتماً الى الشعور بالدونية. فتصبح عُصب الأحداث المكان الصالح والفرصة الملائمة لتقويم جديد.

٣ ـ موقف «اريكسون» (ERICKSON): المراهق ومسالة الهوية الذاتية

«اريكسون» وجه من وجوه التحليل النفسي كان لآرائه وكتاباته أثر كبير في معالجة مشكلة المراهقة، خصوصاً في كتابيه «أزمة المراهقة»[١٤] و«شبيبة اليوم في تفتيشها عن هويتها الذاتية».

يعتمد «اريكسون» في تفسيره على التحليل النفسي وعلم الانتربولوجيا. ويعالج مشكلة المراهقة من زاوية أزمة الهوية مركزاً على خطورة ما يسميه الدور وغموضه الذي يصل، في هذه المرحلة، الى حد احساس المراهق بالعجز التام الذي تصاحبه، في أغلب الأحيان، مشاعر الحيرة والضياع.

فمسألة الهوية الذاتية هي كما يقول «اريكسون» «هذا الاستقطاب الخلاّق لما نملك من انطباعات عن ذاتنا ولأفكار الآخرين عنا». وتحقيق الهوية الذاتية مرهون بشعور الكائن بالانتماء الى مجموعته، وهو وليد النمو والتطور والتماهيات التي تحدث في الطفولة وتصل الى قمتها في المراهقة.

إن أزمة الهوية أو التقدير الذاتي تتم في نهاية المراهقة. وبقدر ما يصبح المراهق واثقاً من هويته الذاتية، بقدر ما يميل الى التفتيش عن تحقيقها في الصداقة والحب والخلق والقيادة. وتلعب صورة الذات الجسمية (LE MOI CORPOREL) دوراً أساسياً في تشكل صورة الكائن عن ذاته. فالعامل الأساسي لتطور الوعي بالذات

---

١٤ ـ ERICKSON: Enfance et société (tra.Français) delachaux et Nestlé).

هو أولاً، تمثل صورة الجسم الذاتي، وثانياً التماهيات العديدة ابتداء من مرحلة الطفولة. ان التفاعلات العائلية، خصوصاً الأولية منها، تقدم للفرد الوضعيات والمواقف التي تتشكل من خلالها الذات.

فاثناء الطفولة تلعب العلاقات بين الطفل والأم دوراً حاسماً في تشكل صورة الذات. فالعلاقة السيئة تؤدي الى تكوين صورة سيئة عن ذاته وعن العالم، ويصبح كثير القلق وقليل الثقة بذاته.

وقد بيَّنت دراسات بعض علماء النفس، اما مباشرة واما بواسطة أدوات اسقاطية، ومن خلال مقارنة أفعال أطفال أسوياء وغير أسوياء يشكون من اضطرابات انفعالية، ان هناك معامل ارتباط بين صورة الذات عند الطفل وصورة الطفل كما هي بالنسبة إلى الأم. إن تقبل الأهل يعطي الطفل الشعور بالأمن، أي الاعتقاد بأنه قادر على السيطرة على حياته. وعلى العكس، فان عدم الاهتمام به يؤدي الى انخفاض التقدير الذاتي. فالشعور بأهمية الذات في نظر الآخر أساسي في تطور الشعور بالقيمة الشخصية.

ولل«الأنا المثالي» أهمية مشابهة تساعد في تحقيق الذات. عندما ينخفض تأثير الأهل وتحل المُثل محلَّ الأهل في تماهيات الطفل (أبطال السينما والرياضة والقصص...).

في المراهقة، كون المراهق لم يعد طفلاً ولم يصبح راشداً، نجد غموضاً في مفهوم الذات لديه. ان المراهقين يجهلون حقيقة ذاتهم، ولا يدركون الا حقيقة واحدة هي رفض الماضي مع افتقار الى نظرة واضحة إلى المستقبل. والتحولات الفيزيولوجية والنفسانية، اثناء البلوغ، لها نتائج مهمة على الصورة التي يكونها المراهق عن ذاته، إذ ان التغيرات السريعة تفرض تغيراً في صورة الجسم، مما يؤدي الى اضطرابات خاصة عند الاناث (الجسم ـ الموضوع "CORPS - OBJET" الواقع تحت نظر الآخرين). فهنا تطرح مشكلة النمو المبكر والنمو المتأخر على صورة الذات.

ومن جهة أخرى فان اعادة تنشيط الصراع الأوديبي نتيجةً للنضج الجنسي يخلق اضطراباً في نظام المراهق العلائقي بالنسبة الى الصور العائلية: فرفض هذه الصور وصراع التماهيات الذي يتبعه هما مظهر من مظاهر البحث عن الهوية الذاتية.

«فالمشكلة المركزية اذن بحسب «اريكسون» في مرحلة المراهقة، هي الوصول الى الشعور بالهوية الذاتية. ويرى أن هذه المرحلة تحمل خطر امتداد «الأنا» وتوسّع مجالاته. ولكن هذا الامتداد لا يتم بسهولة، وأحياناً كثيرة يؤدي الى سوء تكيف (جناح وعُصاب)، ويتوقف ذلك، الى حد كبير، على ماحدث في المراحل السابقة من النمو: فاذا كان سير النمو طبيعياً وسليماً يتولد شعور بتقدير الذات نتيجة تجارب ناجحة، فيجد أمامه دوراً يجب ان يقوم به في المستقبل. ولكن بالنسبة إلى مراهقين آخرين فإن هذا التقدير الذاتي لا يخلو من صعوبات لأنهم أمام الشعور بعدم فائدة نضجهم التناسلي والجسمي، يطرحون مشكلة تقدير ذاتهم، والبحث عن صورة مرضية عن ذاتهم تكون قادرة على اعطائهم الاطمئنان النرجسي، لكنها تصطدم بما يشعرون بما هم عليه (الذي يرفضون قبوله) وبما يرغبون بأن يكونوا عليه. فنجد لدى المراهقين، مسافة بين تبخيس لذاتهم ومستوى طموح مرتفع سببه عدم الرضى عن مكانتهم الحالية. وهذا يوقعهم تجاه ذاتهم في مشاعر متناقضة.

ان الحل السليم لمشكلة الهوية الذاتية يمكن ان يتم في التماهي الايجابي بصور راشدين أو بجماعة تؤمن لهم اكتشاف ذاتهم. فالثقافة هنا، والانخراط في منظمات الشباب، لهما تأثير في تأكيد الذات لأن الاندماج فيهما يثبت في نفوسهم الشعور بالأمن والانتماء، ويتيح لهم الفرص لاظهار انفسهم وتوكيد ذاتهم، وتزويدهم بخبرات ومهارات جديدة. وتكون هذه المنظمات أيضاً مصدراً لثقافة المراهقين، الى جانب المصادر الأخرى، فتوجههم الى استثمار وقت الفراغ وابعاد الضجر، مما يردعهم عن الانكماش الذاتي الذي يؤدي الى سلوك متصف بشدة الهيجان، وتقيهم من الدوافع الجنسية والعدوانية من طريق إعلاء هذه الدوافع.

٤ ـ موقف «ماندل (MENDEL): المراهقة وأزمة الأجيال

ان «جيرار مندل» (GERARD MENDEL) يجمع في كتبه العديدة، وخاصة في الكتابين: «أزمة الأجيال»[١٥] و«الثورة ضد الأب»[١٦]، بين موقف «فرويد» التحليلي وبين معطيات المجتمع الصناعي في نظرية يسميها: التحليل النفسي الاجتماعي (Socio-Psychanalyse). تقوم أسس هذه النظرية على فكرة مفادها ان أزمة الأجيال هي التي تحدد العلاقات الحالية بين المراهقين والراشدين. فأزمة الأجيال هي نوع جديد من الصراع كون المراهق، نتيجة لانقلاب الأوضاع في المؤسسات الاجتماعية والحضارية وانهيار سلطة الأهل، وبخاصة سلطة الأب كمثال للتماهي، يجد نفسه مجبراً على رفض صورة السلطة الأبوية كمثال له، وبالتالي رفض كل ما يتأتى عن هذه السلطة من قيم ومعايير. ففي رأي «مندل» أن الثورة الصناعية وضروراتها التقنية أحدثت تفسخاً وانشقاقاً في المؤسسات الاجتماعية، هذه المؤسسات التي كانت تؤلف الاطار التقليدي للتربية والثواب والعقاب. فاليوم تبدل مبدأ السلطة بمبدأ «الفعالية» (EFFICACITE) والبحث عن المردود والانتاج، وحدث تحول من سيطرة التقاليد الى سيطرة الآلة، ومن سيطرة الماضي الى سيطرة الآتي والحاضر. فأدى ذلك الى انهيار الكبار كمُثُل يحتذى بها، وأصبح جيل المراهقين الحاليين جيلاً بلا تماه. فهذا يفسّر ظهور النزعات العدوانية لدى المراهقين اليوم وشدة إعلاء النزوات الجنسية، والميل الى التسلط والعنف والرفض.

ان ظاهرة صراع الأجيال هي بلا شك، في رأي علماء النفس والاجتماع، «أحد العوامل الرئيسية في دراسة مشكلات المراهقين والشباب. وما درجت دراسات هؤلاء العلماء على تسميته بصراع الأجيال يعود، في التحليل الأخير، الى هذا الميل أو الرغبة لدى المراهقين والشباب في الانفلات من سيطرة الكبار، وتعميماً، من سيطرة المؤسسات والتحرر من هيمنتها من خلال الثورة على القيم الثقافية التي هي قيم الراشدين. فارادة تحطيم قيم الواقع الاجتماعي تصبح ضرورة وجودية

---

١٥ ـ MENDEL. G.: Crise de generation (P.B.Payot).

١٦ ـ MENDEL. G.: La revolte contre le pere (P.B.Payot).

لتحقيق الجيل الجديد لذاته وللتعبير عن حاجاته ومتطلباته وحماية هذه الذات من خطر الاستسلام والتقوقع في القوالب التقليدية والنظم البالية. ولا بد من الاشارة هنا الى ان صراع الأجيال هو صراع تاريخي كان ولم يزل صراع القديم والجديد أو صراع سلطة الكبار وضمان استقرارها واستمراريتها، وجماعات الشباب التي تنزع الى تحقيق أمانيها وتطلعاتها من خلال الانعتاق من قيود التقليد وتحدي قيم الراشدين»[١٧].

ان ثورة الشباب ضد السلطة الأبوية في مظاهرها المختلفة: سلطة الأب والمدرسة والجامعة والمؤسسات، والحركات التي تتصف بالعنف والجماعات الهامشية وانهيار الكبار كمثل للتماهي، دفعت المهتمين بأمور المراهقين والشباب الى التساؤل عن الدوافع العميقة، وأحياناً الباثولوجية، وراء الاحتجاج من قبل الجيل الجديد، ولماذا شبيبة اليوم تتحدى أهداف الراشدين أو ترفضها، وترى أن التطلعات الاجتماعية والسياسية ليست أفكاراً قادرة على تحقيق حاجاتهم العاطفية والفكرية.

لا شك ان الاجابة عن هذه التساؤلات تتطلب تحليل القوى النفسية والدينامية التي تؤثر في علائقية المراهقين والشباب المأزمية. ان هذه القوى ترتبط «بالعوامل الداخلية التي تصبغ جماعات المراهقين بصبغة خاصة، والعوامل المحيطية التي ينظر اليها من منطلقين: منطلق المجتمع بمعناه الواسع حيث يعيش المراهق ويعمل، ومنطلق المحيط الذي كان مسرحاً لطفولته في الوسط العائلي.

يمكن، من هذا المنظور، التأكيد على أن علاقة المراهقين والشباب بالواقع الاجتماعي تتوقف على وضعيتهم الداخلية، أي التوصل الى حل صراعاتهم الداخلية، وحل صراعاتهم هذه يتوقف على مدى اتصاف علاقاتهم بالواقع الاجتماعي بالانسجام والتوافق، لأن المراهقين يؤلفون مرحلة الالتقاء بين جيل هو في دور محاولة التفتيش عن هويته، وجيل آخر وظيفته الأساسية ان يستجيب

١٧ـ معاليقي عبد اللطيف: صراع الشباب والراشدين: صراع الأجيال أو صراعات الثقافات، مجلة الوحدة ـ العدد ٣٩ ـ كانون الأول ١٩٨٧.

لتساؤلاته وطروحاته. لذلك يتوجب حتماً ان يحصل تفاعل بين الجيلين. فهذا التفاعل المتبادل يكوّن أحد الشروط الأساسية والمهمة في عملية النضج وتقبل الذات، وبالتالي التكيف الصحيح. وتوقُّفُ هذه الحركة التكاملية يولّد حركة الرفض بين الجيلين، ويؤدي الى انعزال كل من جيل المراهقين وجيل الكبار، فينشأ، نتيجة لذلك، الصراع الذي يعرف بأزمة الأجيال»[١٨].

ثالثاً: الاتجاهات الاجتماعية: دراسة الجانب الاجتماعي في المراهقة

تستند الاتجاهات الاجتماعية الى نتائج الاحصائيات والمعطيات الميدانية التي تحاول تلخيص الوقائع في أرقام ومقارنات. ومنها تستخرج قوانين تفسيرية للظاهرات الخاصة بمرحلة المراهقة.

هناك نوعان من الدراسات المستخدمة في صدد المراهقة: الدراسة الوضعية والدراسة التفسيرية. وللدراسة الوضعية انواع تتفاوت في مدى شمولها لظاهرة المراهقة. فهناك الدراسة الوضعية الاحصائية التي تهتم بمكانة المراهقين من مجموع السكان (النسب العددية)، والدراسة الوصفية التي تهتم بمكانة المراهقين من المؤسسات الاجتماعية، والتفاعل الذي يحدث بين الفرد وثقافة المجتمع الذي ينشأ فيه: مكانة المراهق من الأسرة والمدرسة والمهنة، أي تصرفات المراهقين بالنسبة إلى هذه المؤسسات.

أما الدراسة التفسيرية التي تُستخدم في دراسة المراهقة فانها، بالاضافة الى ما سبق، تتعرض لقضايا عديدة. أهمها: انطلاقها من دراسة العوامل في اضطرابات المراهقة وارجاع هذه العوامل الى عوامل بيئية وثقافية ـ حضارية.

١) الدراسة الوصفية

أ ـ الدراسة الوصفية الاحصائية

بحسب الاحصائيات الأخيرة عن عدد الشباب في العالم (١٩٨٤)، يتبيّن ان

---

١٨ ـ معاليقي عبد اللطيف: المرجع نفسه.

هناك ما يقارب من ٩٢٢ مليون شاب، ٥/٤ من هذه المجموعة يعيشون في العالم الثالث، وتراوح اعمارهم ما بين ١٥ ـ ٢٤ سنة. هذه الاحصائيات تتوزع على الشكل التالي:

ـ ١٨٧ مليوناً من الشباب يعيشون في المناطق الأكثر نمواً اقتصادياً واجتماعياً.

ـ ٧٣٤ مليوناً يعيشون في المناطق التي هي في طريق النمو أو غير النامية.

ويقدَّر أن:

ـ ٦٠٪ من الشباب يعيشون في آسيا.

ـ ١١٪ يعيشون في إفريقيا.

ـ ٩٪ يعيشون في أميركا اللاتينية.

ـ ٨٪ يعيشون في أوروبا.

ـ ٥٪ يعيشون في أميركا الشمالية.

ـ ٥٪ يعيشون في روسيا.

ـ ٠,٥٪ يعيشون في الاقيانوس.

ـ ٤١٠ ملايين يعيشون في المدن.

ـ ٥١٢ مليوناً يعيشون في الريف.

ويبين هذا الوصف الاحصائي ان عدد الشباب الذكور يقارب الـ٤٧٠ مليوناً، وعدد الشباب الإناث يقارب الـ٤٥٢ مليوناً.

ان هذه الاحصائيات، اذا قارناها باحصائيات سابقة، تظهر لنا ان عدد الشباب بالنسبة الى مجموع السكان في العالم هو في ازدياد مطرد. ان الاحصائيات التي أجريت من قبل وكالات عالمية متخصصة سنة ١٩٥٠، بينت ان عدد الشباب في العالم كان ٤٥٠ مليوناً، اما احصائيات سنة ١٩٨٥ فكانت ٩٤٠ مليوناً أي ما يقارب

الضعف. وتقدر هذه الدراسات الاحصائية ان عدد الشباب في العالم سيزيد على المليار سنة ١٩٩٠، أي ما يعادل ٥ / ١ من سكان العالم.

ولكن هذه الاحصائيات وغيرها من الاحصائيات الأكثر شمولاً لا تغطي ظاهرة المراهقة بأكملها. لأن بلاداً كثيرة لا تشملها هذه العمليات الاحصائية، إما لأنها لا تعتمد هذه الوسيلة في احصاء عدد سكانها لأسباب مختلفة، وإما لأنها تعمد الى شكلين من الاحصائيات: المعلن وغير المعلن. فالمشكلة تكمن في الفرق بين الاثنين. ويجمع بعض الدارسين على ان هذا الفرق يتفاوت في حجمه، فهو صغير في مجتمعات، ولكنه كبير جداً في مجتمعات أخرى.

وعلى الرغم من هذه المآخذ على الدراسات الوصفية الاحصائية، فإنها تقدم لنا صورة عن أهمية الشباب التي لا تتوقف عند حدود مجتمع ما، بل تبرز بحدة أكبر عند محاولة الدراسة الوصفية المقارنة بين مختلف البلدان: البلدان المتطورة والبلدان المتخلفة.

ب ـ الدراسة الوصفية لمكانة المراهق

نأتي الآن الى الدراسة الوصفية التي تهتم بمكانة المراهقين من المؤسسات الاجتماعية. تتعرض هذه الدراسة لمشكلات المكانة والدور بالنسبة الى المراهق. ومن أهم انطلاقاتها التأكيد على ان ليس للمراهق مكانة خاصة. وكما بيَّنا سابقاً، فإن المراهق لم يعد طفلاً ومكانته من الأسرة لم تعد مكانة الطفل الذي يخضع لاتكالية الأهل والكبار وسيطرتهم. ولكن في الوقت نفسه، لم يصبح راشداً لأنه لا يعطى له امكانية تحمُّل مسؤوليات الراشد. فتصبح المراهقة واقعة بين الحالين: حال الطفولة وحال الرشد، ولا يغدو المراهق ذلك الطفل الذي كان، ولا هو بالرجل الذي سوف يكون، وبمعنى أعم: ليس له مكانة خاصة.

هناك من يعتبر ان المجتمع قد لحظ للمراهق مكانة هي مكانته كطالب في المرحلة الثانوية. ولكن هذه المكانة لا يمكن اعتبارها مكانة حقيقية، لأنها غير ثابتة، وليست شكلاً من اشكال المكانات المستقرة في النظم الاجتماعية، إنما يمكن النظر اليها

كواسطة أو مكانة انتقالية، تهيء للمكانة اللاحقة التي سيحتلها الكائن في المستقبل.

فهذه المكانة الغامضة بين الطفولة والرشد هي من الأسباب الرئيسية في صراعات المراهق. والنظرة الوصفية ـ الاجتماعية تنطلق من دراسة هذه الصراعات والمآزم في المراهقة، واعتبارها مشكلة في كل معنى الكلمة، في محاولة لتفسيرها بعواملها المختلفة.

وهامشية المراهقين هي من المشكلات التي تنتج من مكانتهم الغامضة هذه، إن هذه الهامشية تزداد في العالم يوماً بعد يوم، على الرغم من الجهود المبذولة لتحديد سياسة للمراهقين وللشباب. والواقع انه ابتداء من الستينيات حاولت بعض المجتمعات والمنظمات العالمية ان تفهم، بشكل أفضل، وان تستجيب للمشكلات الخاصة بالشبيبة. ولكن يمكننا القول ان هذه الاهتمامات جاءت مجزَّأة، وبُعدها الاجتماعي أهُمل لصالح البُعد الاقتصادي. ولا شك ان المراهقين الشباب يؤلفون المجموعة الأكثر عرضة من غيرها من الطبقات الاجتماعية. وترى الدراسات الحديثة ان المشكلات الأساسية، التي تهم المراهقين والشباب اليوم في المجتمعات المختلفة تتعلق بالانماء والعمل والعائلة والحضارة. فانخراط المراهقين والشباب في عملية الانماء لم تكن كافية. ومشكلات البطالة وسوء العمل زادت خطورة. وعلاقات الشباب بأهلهم أصبحت علاقات واهية. كما ان عملية التنشئة الاجتماعية لا تقوم فقط على نقل سلسلة القيم والاتجاهات والأدوار المعروفة بواسطة العائلة. ان نظام القيم وصور السلطة، حلَّت محلها افكار واتجاهات لم تؤلف حتى الآن نظاماً مرجعياً متماسكاً.

لذلك، وتعميماً يمكن القول، ان هامشية المراهقين والشباب اليوم تطرح مشكلة التخلف الاقتصادي والتخلف الاجتماعي أيضاً: فالشباب المهمّش هو شباب فقير وغير منخرط كلياً في المدنية الحديثة، وغير مُستوعَب على الصعيد الحضاري، وهو منعزل جغرافياً، ومنبوذ ومتروك على هامش المجتمع.

وهذه الدراسات تبيّن، اضافة إلى ذلك، ان الشباب، هم في وضعية اقتصادية لا

يُحسدون عليها. فاكثرهم يحملون غالباً عقود عمل مؤقتة، ولا يُستشارون في أمور العمل الذي يقومون به، والتراتبية القائمة على القدم في العمل تحدُّ كثيراً من مشاركتهم.

وعلى الرغم من الاصلاحات العديدة في مجال المدرسة والتعليم عامة، فانه ما زال هناك هوة تفصل ما بين التعليم التقليدي وسوق العمل.

٢) الدراسة التفسيرية

ان الدراسة التفسيرية تهتم بالأسباب والعوامل التي تشكل ما يطلق عليه اسم ازمة المراهقة، وتحاول ان تُرجع هذه الأسباب والعوامل الى أسسها الاجتماعية والحضارية.

فالعوامل الاجتماعية ـ البيئية تتناول عدة جوانب تتعلق ببعض منطلقات أساسية: المنطلق الأسري، والمنطلق المدرسي، والمنطلق الطبقي ـ الاقتصادي، والمنطلق الثقافي ـ الحضاري.

أ ـ المنطلق الأسري: يستخلص من هذا المنطلق الدراسة التي تنظر الى مكانة المراهق من الأسرة كعامل مؤثر في تكيفه، ووصف الواقع الاجتماعي للأسرة، وعلاقة المراهق بأفرادها، وخصوصاً الأب، ثم التساؤل عن الأسباب التي تجعل من أزمة المراهقة في بعض الأسر أخف وطأة منها في أسر أخرى. لا شك ان مكانة المراهق في الأسرة ذات صلة بتركيب الجماعة العائلية، وبنظام العلاقات القائمة بين افرادها، وبدرجة التسامح أو التزمت، والقبول أو الرفض. كما ان حجم الأسرة واختلاف البيئة الاجتماعية تشكل هي أيضاً عوامل أساسية في مشكلات المراهقين.

وتشدد الدراسة التفسيرية على الأبعاد السلبية الحقيقية لعلاقات المراهقين بأسرهم، والتي يمكن ارجاعها الى عدم الثبات في العلاقة بين المراهقين وأفراد العائلة نتيجةً لتفكك الحياة الأسرية، أو لعجز الأباء خاصة، عن مواجهة مشكلات أبنائهم لانعدام الرؤية الصحيحة عندهم وعدم مراعاة البيئة والعصر أو نتيجة لظروفهم ومآزمهم النفسية.

في الماضي كان التنظيم العائلي يستند كلياً على السلطة، وبخاصة سلطة الأب التي كانت تؤلف سنداً ودعماً وحماية واطمئناناً يجنب المراهقين الشعور بالقلق. أما اليوم، فان هذا التنظيم الأبوي في العائلة قد زال، خصوصاً في المجتمعات المدينية. فالتطور الاجتماعي أحدث انقلاباً في العائلة فهي قد ضاقت من ناحية، وتمزقت، من ناحية ثانية، خصوصاً في المجتمعات الصناعية. وظروف العمل بعثرت افرادها الذين لا يتلاقون الا في أوقات قصيرة جداً. لذلك فان سلطة الأب المطلقة لم تعد مقبولة في كثير من البيئات، اذا لم تكن قائمة على القبول والاختيار الحر والعاطفة والحب. وهذا الحب جعل الآباء يتنازلون عن سلطتهم ودورهم في التربية، فلم يعد بامكانهم ان يكونوا النماذج الجيدة في عملية التماهي. وفي حالات أخرى يشعر الأب بخطر هذه العلاقات، فيحاول ان يسترجع السلطة المفقودة. ولكن، كما انه ليس من السهل القبول بتغير الموقف بشكل فجائي، فانه يجد نفسه مجبراً في النهاية على فرض سلطته من طريق العنف والقساوة، فيصل الى الشعور بعدم الرضى عن هذا التصرف، ويحاول ان يعوض عنه بمضاعفة ضعفه عاطفياً. فنلاحظ، في النهاية سلوكاً أبوياً مترجحاً بين القساوة والحب. والنتيجة، في كلا الحالتين، خلل كامل في العلاقات بين الأب والمراهق.

ولا ننس هنا أيضاً دور الأم المركزي في هذه العلاقات العائلية. فدور الأم تغير بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية. فتطلع المرأة الى العمل الاجتماعي جعلها مرهونة بدورها كأم وكربة بيت، فتشعر ان هذا الدور وهذه الوظيفة الأمومية والعائلية هما كعبودية تمنعانها من تحقيق طموحاتها في الاستقلالية والنمو الشخصي، وتعتبر نفسها ضحية قمع اجتماعي. واذا توصلت الى تحقيق بعضٍ من طموحاتها، فإنها لا تجد الوقت الكافي للاعتناء بمشكلات أولادها العناية الكافية. ان هذا الوضع، ربما ساعد المراهق في الحصول على استقلالية مبكرة، ولكنها استقلالية ثمنها مرتفع نتيجة الجرح الذي يتركه عدم الاشباع العاطفي. فالمراهقون، كالأطفال، بحاجة الى استقرار العائلة وتماسك أفرادها للتوصل الى التوازن السليم والصحة النفسية السوية.

إضافة إلى ذلك، يعتبر تدخل العائلة في شؤون المراهقين الخاصة: في اختيار الأصدقاء، وفي انتماءاتهم الرياضية أو الترفيهية ،وفي اختيار مستقبلهم من طريق فرض المهنة التي يجب ان يمتهنوها، هذا التدخل يؤدي الى شعور المراهقين باغتصاب ارادتهم وحجز حريتهم، مما يفرض عليهم الشعور بتبخيس قيمة ذاتهم نتيجة لعدم ثقة أهلهم بهم.

وتهتم الدراسة التفسيرية الاجتماعية بالرجوع الى عوامل أخرى أيضاً، مثل ترتيب المراهق في الأسرة: الإبن الأول أو الثاني... الولد الوحيد، ثم الاختلافُ والتمايز في بعض الأسر بين الأخوة والأخوات: تفضيل الذكر على الانثى الذي يتولد منه شعور الصبي بالسيطرة على الفتاة، وشعور الفتاة بالحقد على الفتى. وأخيراً الحقوق والامتيازات التي تُمنح لواحد وتحرم على الآخر.

ان جميع هذه المشكلات تشكل عوامل من نتائجها اعاقة تطور المراهق النفسي والاجتماعي.

ب ـ المنطلق المدرسي

ان المدرسة عامل من عوامل التأثير في حاجات المراهق النفسية لا يقل أهمية عن عامل الأسرة. فالمدرسة قد تهيىء للفرد الامكانيات والوسائلَ التي تجعله يتوجه نحو الاعتماد على ذاته وتحمل المسؤوليات واحترام القوانين ومزاولة النشاطات المختلفة، من طريق الأندية المدرسية والنشاطات وقاعات المحاضرات والسينما والمسرح والمشاركة؛ أو على العكس، فانها قد تضع العراقيل والعوائق والصدود أمام تطلعاته وتحفزاته الذاتية، فيشعر بالإحباط والصدّ والمرارة.

والمعلمون والأساتذة يلعبون دوراً أساسياً في مساعدة المراهقين على تخطي مشكلاتهم الذاتية والاجتماعية: الأساتذة واسقاطاتهم ومعاناتهم في علاقاتهم مع المراهقين «أما ان يكون (المعلم) متفهماً وعطوفاً ومضحياً، أو قاسياً عنيداً وعنيفاً في تصرفاته لا لتقدير موضوعي منه لسلوك المراهق، بل لخلفيات لاواعية (شعور بالذنب ـ الرغبة في عقاب الذات ـ الاحساس بالمرارة بسبب اخفاق أو احساس

بالغبن...)... والاستاذ هو بديل عن الأب أو الأم، وباعتباره ممثلاً للسلطة، فهو عرضة لمشاعر الحب والتقدير ولانفعالات عدوانية يحملها الشاب عادة للكبار...»[١٩].

وتتداخل أيضاً عوامل الأنظمة التعليمية والبرامج وملاءمتها مع الواقع الاجتماعي. فالمدرسة التي تتمسك بأطر التربية والتعليم البالية، وتعتمد الأساليب القديمة في التعليم تزيد مشكلات المراهقين بدلاً من الإسهام في حلّ صراعاتهم مع أنفسهم.

فالمدرسة يجب ان تكون المكان الصالح للاجابة عن التساؤلات والطروحات التي يطرحها المراهقون. اذ ان لهؤلاء المراهقين متطلباتهم وتطلعاتهم إزاء المواضيع التي تتعلق بحياتهم وتاريخهم ومستقبلهم. وأخيراً فإن المشكلة الأساسية التي تثير قلق المراهقين اليوم هي مشكلة النظام التعليمي، والبرامج التي لا تؤهلهم للحياة المنتجة والعمل الملائم.

ج ـ المنطلق الطبقي ـ الاقتصادي

ان التفسير الاجتماعي لظاهرة المراهقة يتوقف على شروط حياة كل طبقة اجتماعية تتأثر بدورها بالمستوى الاقتصادي. فمثلاً، يلاحظ ان اضطرابات المراهقة تكون أكثر شيوعاً بين الطبقات المتوسطة، أما في الطبقات الغنية فتتميز حياة المراهقين بشيء من التكيف الاجتماعي والوصول الى النضج المبكر.

ففي الطبقات الغنية يُحدَّد مستوى الطموح في ان يحصل الأبناء على النجاح لابقاء المكتسبات العائلية ضمن الأسرة الواحدة، ومحاولة المحافظة على المركز الاجتماعي. لذلك فان الأهل، في هذه الطبقات، يشجعون الأبناء ويقدمون لهم ما يحتاجون اليه وما يساعدهم على بلوغ هذه المكانة. فيتوفر لهم بذلك الاستعداد لتجاوز ازماتهم، والوصول الى التحرر والاستقلالية.

---

١٩ ـ د. عزت حجازي: الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها، عالم المعرفة عدد ٦ ـ الكويت.

أما في الطبقات الفقيرة، فانه يلاحظ وفرة في الأولاد تؤدي الى تضاعف المسؤوليات الاقتصادية. يضاف الى ذلك التربية القائمة على القسر والطاعة والعقاب مما لا يعطي المراهق الفرصة للنمو السريع.

والأمر المثير في هذه الطبقات هو الخجل الذي يتميز به المراهق من والديه ومن مهنة أبيه. ان هذا الأمر يعيق عملية تماهيه ويؤخرها. ثم لا شك ان تنازل الأب عن سلطته لأسباب اقتصادية تتعلق بمشكلة العمل والارهاق، وقلة الاحتكاك بالأبناء، تنتهي جميعها الى الشعور لدى هؤلاء الأبناء بعدم الاهتمام بهم وباللامبالاة والنبذ.

وأخيراً يظهر في الطبقات المتوسطة التأرجح بين تطلعات الطبقات الغنية ومعاناة الطبقات الفقيرة. وتتفاوت المواقف في هذه الطبقة ما بين النزعة الى التحرر والنزعة الى المحافظة.

فالطبقات المتوسطة هي أكثر الطبقات تأزيماً لحياة المراهقين، وأكثرها قلقاً إزاء بلوغ ابنائها. فكثيراً ما تتمسك هذه الطبقات بالتقاليد والعادات وتشدد من الرقابة خوفاً مما يقوله الناس.

وتشجع الطبقات المتوسطة أبناءها لاكمال دراستهم، وعادة ما تكون اهداف المراهقين فيها الالتحاق بالوظائف الحكومية والتدريس، وتمارس أحياناً ضغطاً على أبنائها للتحصيل المدرسي يبلغ حداً يفوق أحياناً ما تبذله الطبقات العليا وعلى عكس الطبقات الفقيرة التي غالباً ما تدفع، بطريقة مباشرة، أبناءها الى ترك الدراسة ليجدوا لأنفسهم عملاً والحصول على المال والمركز الاجتماعي بسرعة، وأحياناً الزواج المبكر، فينتقلون الى حياة الرشد انتقالاً سريعاً.

د ـ المنطلق الثقافي ـ الحضاري

قدم هذا التفسير علماء «الانتربولوجيا» من خلال دراساتهم المقارنة بين الشعوب البدائية والشعوب المتحضرة. فتوصّلوا الى استنتاجات مفادها ان ما يصيب المراهق من اضطراب في اتزان شخصيته يعقبه ازدياد في توتراته، بحيث

تصبح معرضة للانفجارات الانفعالية واختلال علاقاتها الاجتماعية بأعضاء الأسرة، ترجع في أساسها الى أسباب ثقافية ـ حضارية.

من أبرز الانتربولوجيين الذين اهتموا بدراسة هذه العوامل نذكر «روث بنديكت» (RUTH BENIDICT) خصوصاً في كتابها: «نماذج حضارية» [٢٠] و«مارغريت ميد» (MARGARET MEAD). تنطلق هذه الدراسات من التأكيد أن ليس هناك نموذج واحد للمراهقة بل هناك نماذج متنوعة بتنوع البيئة والمستوى الحضاري: فهناك المراهقة الهادئة والمتزنة في المجتمعات البدائية، والمراهقة في حضارات العصر الحالي حيث يسود القلق والتنافس والسرعة، فيشب الكائن ليجد نفسه في دوامة الآفاق المتعددة والمحيرة: أي طريق يختار، وأي قيم ومعايير يتبع؟

ان «ميد» في دراستها عن «الجنس والمزاج في مجتمعات أولية ثلاثة»[٢١]. و«المراهقة في الساموا» حاولت ان تعطينا صورة عن بعض انماط التربية وأساليبها في مجتمعات مختلفة، وتأثيرها في تشكل شخصية المراهق. ومن خلال دراساتها لتلك المجتمعات، حاولت ان تصل الى اجابات عن تساؤلات مهمة: ما هي طبيعة المراهقة، وهل المشكلات والاضطرابات التي تواجه المراهقين تنجم عن طبيعة هذه المرحلة نفسها، أم تسببها طبيعة المدنية؟ وهل تختلف صور المراهقة وأوضاعها باختلاف الظروف التي تحيط بالأفراد، أي باختلاف المجتمعات؟

للاجابة عن هذه التساؤلات، قامت «ميد» بدراسات ميدانية لمجتمعات تختلف في نمط حياتها وأساليب التربية والعلاقات السائدة فيها. وتوصلت، في النهاية، الى نتائج تبيِّن أن شخصية المراهقين تتأثر بالنظام العلائقي الذي يقوم بين الكائن وافراد العائلة، بخاصة الأم في أثناء مرحلة الطفولة. وبالتالي، فإن اختلاف التربية في نماذج المجتمعات البدائية التي قامت بدراستها عن التربية في المجتمعات الحديثة ينعكس على مرحلة المراهقة.

٢٠ـ BENEDICT. R.: Echantillons de culture. -

٢١ـ MEAD. M.: Mœurs et sexualité en Océanie (ed. Plon). -

نماذج المراهقين بحسب دراسات «ميد»

أ ـ المراهق في مجتمع «الأرابيش» (ARAPESH)

ان شخصية المراهق في هذا المجتمع هي شخصية هادئة ومتعاونة، لأن طفولته كانت قائمة على العطف والرعاية والشعور بالأمن: يظل الطفل يرضع من ثدي أمه حتى سن الثالثة أو الرابعة، ويمتنع الأب عن كل إتصال جنسي بالأم طيلة مرحلة الرضاعة، حرصاً على سلامة الرضيع. ولا تترك الأم طفلها وحده مطلقاً، فهو دائم الاحتكاك بالآخرين، وتحمله معها أحياناً عندما تذهب الى العمل، وتلقمه ثديها كلما بكى، وينام عادة إلى جانبها. وعندما يكبر قليلاً ويتمكن من المشي وتعجز عن حمله، تتركه مع أبيه أو أحد أقاربه ولكن عندما تعود تعوِّض عن غيابها بإرضاعه مدة طويلة. واذا طالت غيبتها طيلة النهار، فإنها تكرس وقتاً طويلاً لتداعبه وتغمره بحنانها.

عند البلوغ يشترك الصبي في طقوس خاصة مع صبيان من عمره. وهذه الطقوس تعني الانتقال الى حياة جديدة، وتحمل المسؤوليات، والقيام ببعض الواجبات، مثل الاعتناء بشيخوخة أهله أو بأخواته الصغار، والخروج الى الصيد.

فيلاحظ اذن ان شخصية المراهق هي وليدة عاملين أساسيين: الطفولة حيث يكتمل نمو الفرد العاطفي من طريق الحب والحنان، والبلوغ حيث يتكامل الفرد من الناحيتين الجنسية والاقتصادية، مما يسمح له بأن يتكيف تكيفاً سوياً في مجتمع الراشدين.

ب ـ شخصية المراهق في مجتمع «الموندوكومور» (MUNDUGUMOR)

في هذا المجتمع تتصف شخصية المراهق بأنها قاسية وعدوانية، نتيجةً لتأثير حياة الطفولة وأنواع القساوة وعدم الاهتمام: ان الأم تعوِّد طفلها، منذ الأيام الأولى، على الحياة الصعبة، اذ يوضع في قفص من القش الخشن منكباً على وجهه. واذا بكى يُصدُّ بالصراخ في وجهه. وترضع الأم طفلها وهي واقفة، ولا تسمح له ان

يرضع كفايته، لذلك فانه يتمسك بثدي أمه ويحاول ان يرضع بسرعة. والفطام يتم بطريقة فجائية وقاسية، وتمنع الأم طفلها من النوم بقربها.

فالطفل الذي يشعر، منذ صغره، بالقساوة والصد ينشأ على ميول عدوانية تظهر في مراهقته. لذلك فان المراهق يلجأ الى التمرد والعدوانية لتحقيق ذاته.

ج ـ شخصية المراهق في مجتمع «الشامبولي» (CHAMBULI)

ان ما يميز شخصية المراهق في هذا النمط الاجتماعي هو الانطوائية والسلبية. يعود ذلك الى أن المرأة هي صاحبة السلطة، وهي الحاكمة ورب العائلة. فالجنس الذكري في هذا المجتمع يعمل على تكيّف نفسه بالنسبة الى هذا الوضع الانثوي، وعندما يشبّ ويترعرع يجد نفسه مدفوعاً الى العيش على هامش الحياة الاجتماعية: فالرجال يطردونه من تجمعاتهم، وكذلك النساء، فيشعر بالعزلة التي تدفعه الى الانطواء والوحدة..

واهتمت «ميد» بدراسة خاصة عن المراهقات في مجتمع «الساموا» (SAMOA)[٢٢] حيث تتساءل: هل ان مرحلة المراهقة هي فترة عاصفة وأزمة لا سبيل الى تفاديها؟ تجيب «ميد» بالنفي اذ تبيَّن لها، من دراستها الميدانية، ان الفتاة الصغيرة، في الساموا، لا تختلف عن رفيقتها، التي تمر بمرحلة النضج الجنسي، الا في ناحية رئيسية واحدة هي ان الفتاة الأكبر سناً يلاحظ عندها تغيرات على الصعيد الجسمي لا وجود لها عند الفتاة الأصغر سناً. وليس هناك أي فوارق في الوضع الاجتماعي.

وتعتبر «ميد» أن لا وجود لأزمة مراهقة في مجتمع «الساموا» في المعنى الذي تتحدد فيه في المجتمعات المتحضرة وخصوصاً المجتمع الأميركي. وترجع ذلك الى أسباب عديدة أهمها:

---

٢٢ ـ الساموا: مجموعة جزر تقع ما بين نيوزيلاندا وهاواي.

١ ـ ان الفتاة تعوّدت، منذ السنوات الأولى من حياتها، على تحمُّل مسؤولية العناية بأخوتها الصغار. و تتعرف منذ الطفولة المبكرة على أسرار الجسد لأن الجميع يعيش عارياً، كما تتاح لها كثيراً فرصة حضور عملية الولادة وعملية الموت، وكثيراً ما تشاهد العمليات الجنسية سواء في الكوخ حيث لا حواجز بين المتزوجين تحجبهم عن بقية الأفراد، أو في غابات النخيل حيث النساء يطاردن العشاق.

٢ ـ عند البلوغ لا يفرض على الفتاة أي قيود: تتلقى الحيض بسهولة، والجميع يعرفون انها بدأت تحيض. وتقضي الفتاة عدة سنوات بعد البلوغ قبل ممارسة الحياة الجنسية. وليس للعذرية أي قيمة اجتماعية، الا بالنسبة لفتيات الرؤساء اللواتي يحافظن على بكارتهن الى وقت الزواج. وتُدرب الفتاة قبل الزواج على يد رجل خبير ومتقدم في السن. والعمل الجنسي يعتبر عملاً مألوفاً وطبيعياً.

٣ ـ التسامح في التربية وفي العلاقات: فلا وجود للضبط الاجتماعي العنيف، مما يسهل عملية النضوج والنمو ويبسطها، على عكس المجتمعات المتمدنة حيث يمتد نطاق الضبط الاجتماعي الصارم ليشمل كل جوانب الشخصية والقيم والمواقف. ففي تلك المجتمعات البدائية يأكل الفرد وقت يشاء، ويلعب كما يحلو له، وينام حيث يطيب له، ولا يلتزم بشكليات الاحترام في التعامل مع أبويه ومع الكبار.

٤ ـ لا وجود في مجتمع «الساموا» للتسابق والمنافسة وبذل الجهد والنشاط للتحصيل، كما أن الكسول والمتخلف لا يصيبه أي ملامة أو عقاب.

٥ ـ في «الساموا»، وعلى عكس المجتمعات الحديثة، لا يجد الفرد نفسه أمام مجموعة من الاختيارات. فهنا وضوح المجال الذي يقابله هناك تناقض الأسس التي تحكم الحالات المختلفة والحالة الواحدة أحياناً، وتعارض القيم المعلنة مع السلوك الفعلي. وهنا أيضاً مجال الاختيار ضيق ومحدود، بينما في المجتمعات المعاصرة هناك القيم والمعايير الأخلاقية الخاصة بكل من الرجل والمرأة.

٦ ـ المساواة في المعاملة بين الأولاد، بغض النظر عن السن والجنس والمرتبة بين الأخوة والأخوات.

٧ ـ عدم وجود علاقة حميمة بين الوالدين والأبناء، فالعلاقة تتجه الى الجماعة دون تخصيص.

وهكذا، فانه يتبين من هذه المقارنة، أن أزمة المراهقة هي نتاج تناقض موقف المجتمع بمختلف مؤسساته، وعدم الثبات والاستمرارية في معاملة الأبناء والتأرجح بين الشدة والعطف والحرمان والاشباع والقساوة والتدليل.

ففي المجتمعات البدائية نادراً ما تُلاحظ لدى الأفراد الأعراض العُصابية والمواقف التي تبعث في النفوس الخوف أو القلق.

الفصل الثالث

عمليات النمو في المراهقة
النمو الجسمي والنمو العقلي

أولاً: النمو الجسمي

١ ـ خصائص النمو الجسمي

- النمو في الطول (croissance staturale)
- النمو في الوزن (croissance pondérale)

٢ ـ المظاهر الأخرى للنمو الجسمي

أ ـ التغيرات الحشوية (viscérale)

- الهيكل العظمي
- الدماغ
- القلب
- الحنجرة
- الغدد الصماء

ب ـ التغيرات في الأعضاء الخارجية

- الجمجمة

- القفص الصدري

ج - التغيرات المورفولوجية

ثانياً: النمو الجنسي:

١ - التغيرات الجنسية في البلوغ

أ - الخصائص الأولية

ب - الخصائص الجنسية الثانوية

ج - الخصائص الوظيفية

٢ - أثر الهرمونات في البلوغ

- الهرمونات الجنسية

- الهرمونات الجسمية

٣ - الغدد الجنسية

- الخصيتان

- المبيضان

٤ - البلوغ الطبيعي والبلوغ الباثولوجي

٥ - الانعكاسات النفسانية للنمو الجسمي والجنسي

أ - الاهتمام بالذات الجسمية

ب - الانجذاب نحو الجنس الآخر

ثالثاً: النمو العقلي

١ ـ تطور الذكاء عند المراهق

أ ـ تطور الذكاء حسب «دبس» (Debesse)

ـ تخصص الذكاء العام وتزايد القدرات العقلية

ـ الجدلية في التفكير

ـ اكتشاف مفهوم القانون

ب ـ تطور الذكاء حسب «بياجه» (Piaget)

ـ المزج بين الأفكا ر والفرضيات

ـ اكتشاف العلاقات المتبادلة

ـ التفكير الافتراضي ـ الاستدلالي

٢ ـ تأثير العاطفة في التطور العقلي

٣ ـ الأسباب التي تعيق النمو العقلي

أ ـ الحرمان الحضاري

ب ـ اتجاهات سلبية

ج ـ الإهمال وسوء الرعاية

٤ ـ بعض مظاهر القدرات العقلية عند المراهق

أ ـ التخيل

ب ـ التذكر

ج ـ تطور الاتجاهات والقيم

أولاً: النمو العضوي

إن المظهر الذي يتخذه الكائن في الطول والوزن، هو من الاهتمامات الأولية بالنسبة للمراهق في مرحلة النمو السريع الذي يظهر في بداية البلوغ. ففي هذه المرحلة تطرح مسألة المظهر الحالي والمظهر اللاحق. فإلى التساؤل الذي يطرحه الكائن «كيف أنا»، يمكننا أن نضيف تساؤلاً آخر «كيف سأكون» و«كيف أنا بالنسبة إلى من هم في عمري».

إن هذه الطفرة في الطول والوزن يمكن أن تبدأ في مراحل عمرية مختلفة، بحسب إيقاع سريع أو بطيء، مستمر أو غير مستمر، وقد تدوم لعدة سنوات. والانحراف في مستويات العمر التي تتم فيها هذه التغيرات يُظهر عن الفروقات بالنسبة إلى الحدِّ الوسطي، ويكون لها نتائج نفسانية سلبية في أغلب الأحيان لأنه، كما هو معلوم، كثيراً ما يرتبط حكم المحيط على الفرد بمظهره الفيزيائي.

ولكن قبل أن نبحث في هذا النتائج النفسانية، لا بدَّ من تحديد مظاهر النمو الجسمي وخصائصه في هذه المرحلة.

إن دراسة النمو الجسمي للطفل والمراهق تبعت تطور العلوم الطبية والبيولوجية والإحصائية. فالدراسات الحديثة ظهرت ما بين الحربين في أميركا مع «بالدون» (Baldwin) وفي ألمانيا مع «بوهل» (Pfuhl). ومرحلة جديدة تخطتها الدراسات في أميركا مع «شوتلورث» (Shuttleworth) الذي قام بدراسة النمو الجسمي، ليس من طريق التبيان الوراثي البسيط المشترك، بل من طريق العوامل الفارقية بين الأفراد، أي تتبع دراسة فرد خلال عدة سنوات، مع رسم المنحنيات البيانية ومقارنة النتائج مع نتائج دراسة أفراد آخرين.

وفي هذا السياق يمكن القول إن «ديتوني» (Detoni)[1] وضع تقنية لتحديد البلوغ باستعمال ثوابت أصبحت معروفة اليوم من خلال تطبيقها على مجموعات المراهقين في إيطاليا. فبفضل هذا التحديد لمرحلة البلوغ يتعيَّن العمر البيولوجي للفرد الذي يتوافق مع العمر الذي يظهره هذا الفرد من وجهة النظر الجسمية بغض النظر عن العمر الزمني. فالفارق، عادة، يكون كبيراً، لذلك فإن الأهمية تكون للعمر البيولوجي خلال مرحلة ما قبل البلوغ، والبلوغ، وما بعد البلوغ.

أ) ـ خصائص النمو الجسمي

إن النمو الجسمي يسبق النمو الجنسي، وهو يتأثر بالهرمونات التي تعرف باسم الهرمونات الجسمية (Hormones somatotropes)

والمراهقة تشكل مرحلة تزايد وتسريع في حركة النمو الجسمي.

وتبيِّن الدراسات أنه ما بين ١٢ ـ ٢٠ سنة، يرتفع منحنى النمو ارتفاعاً بسيطاً ويحدث بسرعة طفيفة، مؤقتة. وينتهي النمو الجسمي عادة ما بين ٢٠ ـ ٢٥ سنة تقريباً. والدراسة المقارنة تظهر أن النمو الجسمي لدى الذكور ولدى الإناث ليس واحداً:

فيلاحظ أن منحنى النمو لدى البنات يبدأ بالارتفاع والتزايد ابتداء من سن الحادية عشرة تقريباً، ويتوقف قبل سن العشرين، بينما منحنى العمر لدى الصبيان يتأخر قليلاً، ولكنه يستمر حتى سن الخامسة والعشرين.

١ ـ النمو في الطول (croissance staturale)

تثبت الدراسات أن طول قامة الطفل يتضاعف ما بين الميلاد وسن الخامسة (من ٥٠ سم إلى متر) ثم يبطئ ما بين سن الخامسة والعاشرة (٣٠ سم فقط)، وفي

---

١ ـ DE TONIE - Aicardi G.. Duillo M.T.: caracteristiques de la Maturation pubertaire dans le population de l'Italie du Nord in: Adolescentologie - symposium international - Fondation Carlo Eirba - Milan 1973

العاشرة من العمر يكون البطء في النمو واضحاً ومحسوساً (بمعدل ٥ سم في السنة) ثم يعود فتسرع وتيرته ما بين الحادية عشرة والخامسة عشرة لدى الإناث، وما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة لدى الذكور.

يعتبر «دبس»[٢] (Debesse) أن الزيادة الكلية في الطول ليست كبيرة، فهي في حدود ٣٠ سم في المعدل الوسطي بالنسبة للذكور و٢٦ سم في المعدل الوسطي بالنسبة للإناث، ولكنه ينبِّه إلى أهمية هذه الزيادات بالنسبة إلى الزيادات التي تحدث في السنوات السابقة، لأسباب أهمها:

- أنها آخر طفرة في النمو مهمة.

- أن هذا النمو يصاحبه عادة صعوبات لا بدَّ من الانتباه إليها.

إن النظرة المتفحِّصة لهذه المعطيات الإحصائية تكشف أن هذه التحديدات الكمية ليست إلا معدلات وسطية تختلف من فرد إلى آخر. والنمو لا يحدث بوتيرة واحدة، بل يتناوبه الإسراع والإبطاء، وهذا له علاقة بطبيعة الفرد والبيئة (الغذاء) والمناخ (سرعة النمو تكون أكبر في أيام الصيف منه في أيام الشتاء). والنمو في الطول يبدأ أولاً في مرحلة ما قبل البلوغ، بالأطراف، خصوصاً السفلى منها لدى الفتيان، والعليا لدى الفتيات. وهذا النمو في الأطراف يفقد الجسم تناسقه ويعطي للمراهق منظراً قد يكون عرضة للسخرية لعدم التوازن في مشيته وفي حركته. ويصاحب النمو في الطول ازدياد في طول العظم فيتحوَّل التركيب العظمي اللين الغضروفي (cartilage) إلى التركيب العظمي الصلب (التكليس). فالنضج من ناحية نمو الهيكل العظمي، يعرف باسم العمر العظمي. وترتبط المراهقة بالعمر العظمي أكثر من مما ترتبط بالعمر الزمني. وينظم تكوين العظام والنمو الغضروفي هرمونات مختلفة (الأندروجين، Androgène والأستروجين Oestrogène وسوماتوتروب Somatotrope، وإفرازات الغدة الدرقية (Tyroïdienne). فعدم انتظام الإفرازات الهرمونية هذه، يؤدي إلى أشكال من الخلل الجسماني:

٢ .- DEBESSE M.: Le Monde d'Adolescent: Bulletin de psychologie No.203 T. XV 10-11 1962.

ـ العملقة (Gigantisme) نتيجة لازدياد طول غضاريف الوصل، أو لتأخر تكليسها (Ossification)

ـ القزمية (NANISME) نتيجة الالتحام المبكر لهذه الغضاريف، أو نتيجة للنقص في كمية الهرمونات.

ولكن، بالرغم من أهمية الهرمونات في عملية النمو اثناء مرحلة البلوغ، فإنها ليست العامل الوحيد الذي يؤثر في هذه العملية، بل هناك أيضاً عوامل أخرى مثل عملية الهدم والبناء (العملية الأيضية Métabolisme) التي تنظمها الجينات (Gènes) والأنزيمات (Enzimes) والتي ثبت أن لها تأثيراً كبيراً في نمو الهيكل العظمي ومختلف الأعضاء. وكما هو معروف، فإن النمو العضلي يتوقف على النمو العظمي.

ب ـ النمو في الوزن (Croissance pondérale)

يتوقف النمو في الوزن على النمو في الطول من ناحية، وعلى كمية الماء والأنسجة الدهنية في الجسم من ناحية ثانية. وقد حاول بعض الدارسين وضع متوسطات للوزن بحسب العمر الزمني، ولكن الفروقات الفردية تجعل ذلك أمراً صعباً، وبالتالي، فإن هذه المتوسطات ليس لها دلالة صحيحة من الناحية الإحصائية.

تُبيِّن بعض الدراسات أن الوزن يزداد حوالى كيلوغرام واحد أو كيلوغرامين ما بين سن الحادية عشرة والثانية عشرة، وحوالى أربعة كلغم وخمسة كلغم ما بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة.

«بشكل عام يمكننا ان نلاحظ أن وزن الفتاة أو الفتى في سن العاشرة هو واحد تقريباً (حوالى ٢٩ كلغم). أما في سن الرابعة عشرة فإن الفتى يزن ٤٥ كلغم، بينما الفتاة تزن ٤٧ كلغم. وفي سن العشرين يزن الفتى ٦١ كلغم والفتاة ٥٣ كلغم[٣]».

هذه الأرقام تظهر أن البلوغ المبكر عند الفتاة يجعل وزنها أكثر من وزن الفتى

---

٢. - OUILLON H.: in L'Adolescent; la Physiologie de l'Adolescent (Bib. CEPL).

ابتداء من سن العاشرة، ولكن الفتى ابتداء من سن السادسة عشرة يعود فيزيد وزنه.

وتؤكد الدراسات الحديثة على وجود ارتباط بين النمو في الطول والنمو في الوزن، أكثر من الارتباط بين النمو في الوزن والعمر الزمني.

وقد قام «لولانغ» (Lelong) بقياس النقص في الوزن من طريق معدَّل الوزن بالنسبة للطول، وحدَّد النسب المئوية التي تدل على هذا النقص. فما بين – ١٥٪ و+ ٢٠٪ يعتبر الوزن عادياً.

إن هذه المعطيات الإحصائية تمكننا من استخلاص النتائج التالية:

١ـ إن النمو في الطول والوزن ليس عملية منسجمة ومتوازية. فإذا وضعنا الفروقات الفردية جانباً ونظرنا فقط في المعدل الوسطيِّ تبيَّن لنا أن منحنيات الطول والوزن تذهب في خطوط متساوية، ولكنها في الحقيقة متفاوتة في سرعتها من الناحية الزمنية.

٢ ـ بيَّنت دراسات «ستراتز» (Stratz) أنه ما بين السنتين والأربع سنوات، نجد تفاوتاً بين الطول والوزن لوجود ميل نحو التضخم بسبب وفرة في المادة الدهنية. ثم يحدث توازن بين الوزن والطول ما بين أربع سنوات وخمس سنوات. ولكن في عمر يراوح بين خمس سنوات وسبع سنوات تحدث ظاهرة عكسية: إزدياد في الطول على حساب الوزن، ثم بين سن الثامنة والحادية عشرة يزداد النمو في الوزن. وأخيراً بين سن الثانية عشرة والرابعة عشرة بالنسبة للبنات، وبين سن الثالثة عشرة والسادسة عشرة بالنسبة للصبيان يزداد النمو في الطول على حساب النمو في الوزن.

قام «غودان» (Godin) بتحليل للغييرات الجسمية في مرحلة المراهقة واستنتج بعض القوانين الأساسية:

١ ـ إن النمو في الطول يزداد في السنة الأولى التي تسبق البلوغ بينما النمو في الوزن يزداد ويقوى في السنة الأولى التي تلي البلوغ.

٢ ـ إن طول العظام وسماكتها، خلافاً لما يعتقد، لا يتم في الوقت نفسه، فهناك تفاوت في الزمن بينهما: خلال ستة أشهر يزيد طول العظام، وخلال ستة أشهر أخرى تزيد سماكتها (قانون التناوب Alternance).

٣ ـ إن الاختلافات العديدة في النمو سواء أكان في الطول أم في الوزن، والتي تلاحظ في مرحلة المراهقة هي اختلافات مؤقتة تزول عند بلوغ مرحلة الرشد. ولكن هذا لا يعني أن الراشدين من سلالة واحدة وعمر واحد لا يتفاوتون، في أغلب الأحيان، في الطول والوزن والمظهر العام حتى في الحالات العادية.

ج ـ المظاهر الأخرى للنمو الجسمي في المراهقة

١ ـ التغيرات الحشوية (viscérales)

إذا استثنينا الغدد والأعضاء التناسلية، فإن البلوغ ليس له تأثير كبير على نمو الأحشاء. فالتغيرات التي تحصل في الأحشاء هي نتاج عملية منتظمة بعكس تغيرات الهيكل العظمي والعضلات. فبينما يلاحظ أن وزن الهيكل العظمي يزداد من الولادة إلى الرشد بمعدل يراوح ما بين ١٢٪ إلى ٢٠٪ تقريباً من وزن الجسم بكاملة، ووزن الجهاز العضلي من ٢٤٪ إلى ٤٠٪ تقريباً، فإننا لا نرى شيئاً من ذلك يحدث في نمو الأحشاء، بل على العكس، يلاحظ أن نسبة وزن مختلف الأحشاء تنقص خلال مراحل النمو بالنسبة إلى وزن الجسم بكامله. مثلاً على ذلك: يكون وزن الدماغ عند الولادة ١١,٦٪ من وزن الجسم، وعند الرشد لا يزيد على ١,٧٪؛ ويكون وزن القلب ٠,٧٪ ثم يصبح ٠,٤٪؛ ووزن الكبد يكون ٤,٧٪ فيصبح ٢,١٪.

ـ **الدماغ**: يزن الدماغ عند الولادة ما بين ٤٠٠ و٤٥٠ غراماً، ويتضاعف وزنه ثلاث مرات في سن الثالثة، فيراوح بين ١,١٠٠ و١,٢٠٠ غرام. ثم يبطئ في النمو ولا يزيد وزنه في مرحلة الرشد على ١,٤٥٠ أو ١,٥٠٠ غرام.

ـ **القلب**: يزداد وزنه، في المراهقة، من ٦ إلى ٨ أضعاف عما كان عليه عند الولادة. كما تحدث تغيرات في تكوينه الداخلي، وتزداد سعة الأوعية الدموية ويرتفع الضغط فيبلغ ١٣٠ مم ماركور تقريباً، ولكنه يميل فيما بعد إلى الاعتدال. إن

ارتفاع الضغط في مرحلة البلوغ يعود إلى نشاط الغدد الكظرية (surrénales). وتتغير سرعة نبضات القلب من ١٣٥ عند الولادة إلى ٩٠ عند الأطفال، فإلى ٦٠ ـ ٧٠ عند سن الرشد.

ـ **الرئتان**: يتبع نمو الرئتين نمو القفص الصدري، ويزداد وزنهما ٢٩ ضعفاً عما كان عليه عند الولادة، وبالتالي تزداد سعتهما وتنخفض حركات التنفس.

ـ **الحنجرة**: تنمو الحنجرة لدى الذكور في أقطارها المختلفة وتطول الحبال الصوتية ثم تتضخم ويصبح الصوت أجشاً.

ـ **الغدد الصماء**: ـ إن الغدة النخامية (hypophise) التي تزن عند الولادة ٧,٥ ملغم تقريباً، يبلغ وزنها عند البلوغ ٦٠ ملغم. وتتميز هذه الغدة، على خلاف جميع الأعضاء، وباستثناء الحالات المرضية، بأنها تستمر في نموها بعد سن الرشد حتى سن الخمسين تقريباً. وهي تزن لدى المرأة اكثر مما تزنه لدى الرجل.

ـ ويزداد نمو الغدة الدرقية (thyroïde) بسرعة عند البلوغ

ـ أما الغدد الكظرية (surrénales) فإنها أقل نمواً. فكل واحدة منها تزن خمسة غرامات تقريباً عند الولادة، وفي الشهور الأولى ينقص وزنها بمعدل الثلث، ثم تستعيد وزنها في مرحلة البلوغ، وتضاعفه في سن الرشد.

ـ الغدد جارات الدرقية (paratyroïde) تتساوى في نموها مع نمو الغدة الدرقية.

ـ التيموسية (thymus): يزداد وزنها في مرحلة ما قبل البلوغ، وهذه الزيادة في النشاط ترجع إلى عملية الهدم والبناء (العملية الأيضية).

٢ ـ التغيرات في الأعضاء الخارجية

إن التغيرات في الأعضاء الخارجية تخضع لقانون التناوب نفسه.

ـ **الجمجمة** (crâne): يزداد محيطها من ٤ ـ ٥ سم إلى ٥٤ سم حوالى سن الثامنة عشرة.

وتزداد مساحة الوجه تدريجاً، فبينما كان يشكل ٨/ ١ من مساحة الجمجمة عند الولادة يصل إلى ٣/ ١ في سن العاشرة و٢/ ١ في سن العشرين. ويأخذ شكله الأخير من خلال نمو الفكين وعظم الأنف وعظام سقف الحلق وهيكل الحاجبين وشكل الأنف ومحيط الفك ونتوء الوجنتين (pommettes).

ـ **القفص الصدري** (thorax) : ينمو بالاتساع ثم بالطول ويزداد محيطه حوالى ٢٠ سم، ما بين سن العاشرة والعشرين. ويصل عادة إلى حوالى نصف طول القامة، مما يزيد سعته وبالتالي سعة الرئتين بنسبة ٤٠٪ عند الفتى ما بين سن الثالثة عشرة والسابعة عشرة.

ـ **الحوض** (bassin): يتسع وينمو عند البلوغ ويزداد عرضه عند الفتاة أكثر مما يزداد عند الفتى. فعند الفتاة يزيد قطر الحوض على قطرالكتفين أو يتساويان، أما عند الفتى فيزيد قطر الكتفين على قطر الحوض.

٣ ـ التغيرات المورفولوجية

إن النمو الجسمي من ناحية الشكل الخارجي لا يكون نمواً واحداً لدى جميع الأفراد، وإنما هناك فروقات تبعاً للجنس والعرق. لذلك يمكن الكلام عن أشكال طبيعية للنمو وأشكال غير طبيعية تعود في أغلبيتها إلى اضطرابات غددية.

فإلى جانب العملقة والقزمية، كما بيَّنا، يلاحظ عند بعض الأفراد تزايد كبير في الطول مع تزايد في حجم الأطراف يصاحبها اضطرابات جنسية عادة.

وهناك تصنيفات عديدة لاضطرابات النمو الجسمي في مرحلة المراهقة تُظهر أنماطاً مختلفة، ذكر «دبس» (Debesse) بعضاً منها(٤) :

ـ نمط المراهق طويل القامة، يتميز بالصفات التالية: ضعيف، شاحب، يتعب بسرعة، مع تشويهات في العظم، جهد مدرسي ضعيف عموماً.

DEBESSE M: LE MONDE DE L´ADOLESCENT -- IN BULLETIN de Paychologir No ـ ٤ 203

ـ نمط المراهق المتوسط القامة والقصير القامة: نمو غير كافٍ، قليل الشهية، ميل إلى التعب والإنهاك، ليست لديه مقاومة كبيرة، عرضة للأمراض المعدية.

ـ نمط المراهق الطبيعي ظاهرياً من حيث الطول والوزن، ولكنه يظهر اضطرابات غذائية وتشويهاً في العمود الفقري عادة: اضطرابات في وظائف الكليتين واضطرابات في الدورة الدموية.

وهناك أيضاً التصنيف الذي وضعه «كريتشمر» (Kretschmer)[٥]:

ـ النمو الضامر (leptosome): طويل ونحيل ويشتمل على نموذجي: الرياضي (Athlétique) والعصبي (asthénique).

ـ النمو البديني (picnique): قصير وكروي وممتلئ.

ـ النمط المختلط (dysplastique): غير مُتَّسق، ونسب الجسم يمكن أن تكون هزيلة مع أجزاء بدينة.

وبشكل عام يمكن القول إن هذه الاختلافات في الشكل الخارجي، ينتج عنها تأثيرات نفسانية ترتبط، في أغلب الأحيان، بحكم المحيط على مظهر الفرد الفيزيائي، وتؤدي إلى مخاوف تنعكس على سلوك المراهق.

فالفتيات اللواتي يظهرن أكبر سناً مما هنَّ عليه حقيقة، يخضعن لضغوط وحدود في حريتهن، اعتقاداً بأن الفتاة التي وصلت إلى البلوغ هي أكثر تعرضاً للمخاطر. إن هذه المخاوف لا وجود لها بالنسبة للفتيان. لذلك يلاحظ أن الفتيات يعانين من هذه الفروقات، فتدفعهن هذه المعاملة للانتماء إلى جماعات المراهقات الأكثر تقدماً في السن، مما يخلق صعوبات من نوع آخر حيث أن نضجهنَّ الفيزيائي لا يتوافق مع النضج العقلي والعاطفي.

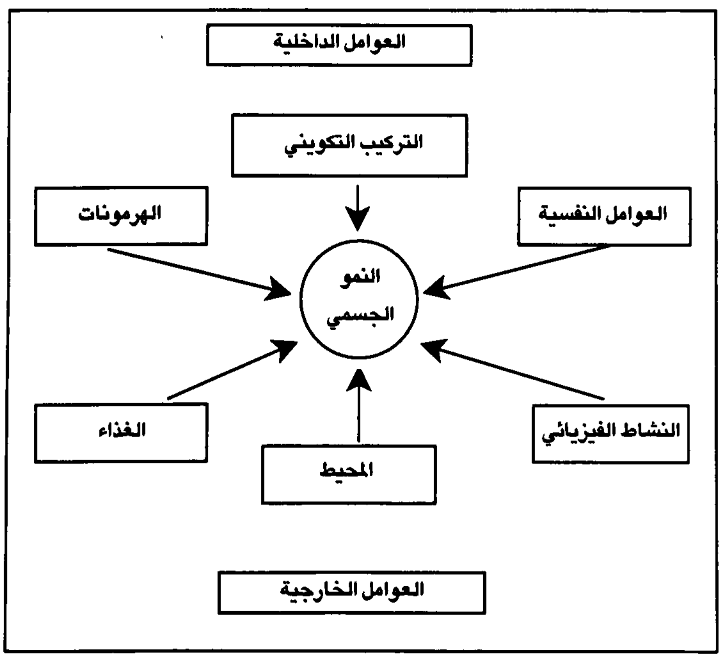
إن هذه الصعوبات تكون مؤقتة، ولكنها لا تكون كذلك بالنسبة للأفراد الذين

---

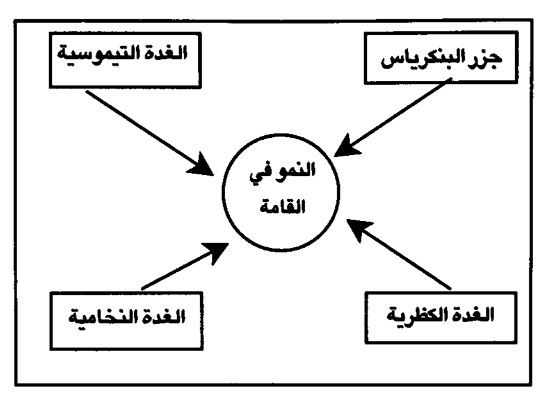
٥ ـ الترجمة العربية: د. سعيد محمد غنيم دار الشروق - Personality: Richard S. Lazarus -

يتصفون بقامة قصيرة. فالقامة هي رمز الرشد، والكائن قصير القامة يشعر، بالمقارنة مع الذين يتصفون بقامة كبيرة، أن حريته مقيدة.

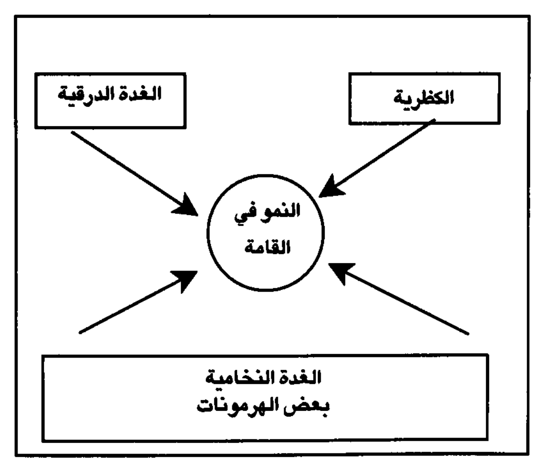
ومن الشائع الاعتقاد بأن الفرد يكون، في مرحلة البلوغ، فاقد المهارة، والواقع أنه اذا كان المراهق يشعر بالانزعاج من جسمه الذي ينمو بسرعة، فإن مهارته تظل كما هي. ويبرهن على ذلك المهارة الفائقة التي يُظهرها في الألعاب الرياضية، فالأمر اذن يتعلق بسيطرة مشاعر الخجل التي تؤثر على حركاته ومهارات



صورة بيانية عن العوامل التي تتداخل في عملية تنظيم النمو الجسمي



صورة بيانية عن التنظيم الهرموني في النمو في القامة



صورة تبيانية عن عملية التنظيم الهرموني في النمو با لوزن

ثانياً: النمو الجنسي

إن نمو الفرد الجنسي تتداخل فيه عوامل بيولوجية وعوامل نفسية. ففكرة انتماء الفرد إلى جنس معين تبدو أكيدة وفطرية. فإذا كان ظهور «الليبيدو» وتطوره عند الحيوان منتظمين بواسطة الإفرازات الهرمونية، فإن الأمر يختلف كثيراً بالنسبة إلى الإنسان، كون العوامل التربوية والاجتماعية تلعب دوراً أساسياً، إضافة إلى أن تصور الكائن لذاته له تأثير حاسم على تصرفه الجنسي. فلا بد إذن من تمييز الاختلاف النفسي ـ الجنسي الذي يتحدد بواسطة ظروف التربية، وليس بواسطة الغدد الجنسية وإفرازاتها الهرمونية. إن هذا الاختلاف الذي يتم في عمر السنتين أو الثلاث سنوات هو اختلاف نهائي: فالكائن يشعر أنه أنثى أو ذكر بحسب إدراك الآخر له أو بحسب ما يريد الآخر له أن يكون. إن بعض التغيرات المورفولوجية تتخذ أهمية خاصة كونها تتعلق بتأكيد الجنسية بالذات.

سنقتصر الآن على استعراض النمو الجنسي لدى المراهق من خلال عملياته البيولوجية، والأواليات التي تتحكم في هذا النمو والوصول إلى مرحلة النضج والتناسل.

من الشائع اعتبار مرحلة النضج الجنسي أنها مرحلة البلوغ التي تعني، في الوقت نفسه، الوصول إلى الوظيفة التناسلية نتيجة نضج الأعضاء التناسلية، والنمو الذي تحدث من خلاله هذه التغيرات.

إن النمو الجنسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنمو الجسمي، إذ إنه بفضل النمو الجسمي يصبح الكائن قادراً على تأمين استمراريته بالتناسل.

وكما بيَّنا سابقاً، فإن كلمة بلوغ (puberté) مشتقة من اللاتينية، وتعني وبر العانة (poils pubiens). وبالرغم من أن معنى هذه الكلمة، في الأصل، ضيق جداً، فإنها تستعمل بمعنى واسع لتشمل مرحلة طويلة من مراحل التطور الإنساني، بما فيها مرحلة المراهقة، حتى النضج الفيزيولوجي للفرد، أي الوصول إلى القدرة على التناسل.

ففي الطفولة يلاحظ أن النمو، وإن اختلف باختلاف الأفراد، فإنه يحتفظ بشيء من التناسق والاستمرارية، وقليلاً ما نجد اختلافاً بين الذكر والأنثى على الرغم من ظهور الأعضاء التناسلية المختلفة.

يستمر النمو الجنسي في البلوغ، وإن بشكل أبطأ، ليقوم مكانه تغيرات جنسية على مستوى الشكل والوظيفة. وأكثر الدراسات اليوم تؤكد على المظاهر التالية:

أ ـ مرحلة ما قبل ـ البلوغ تبتدئ بظهور وبر العانة في جذور القضيب (pénis) لدى الفتى، وحواف الشفر الأكبر (grandes lèvres) لدى الفتاة.

ب ـ مرحلة البلوغ التي تبتدئ، عند الفتى، بخشونة الصوت (mue) والقذف المنوي (éjaculation des spermes). وعند الفتاة مع خروج أول بويضة (ovule) من المبيض (ovaire) ، يليها أول حيض (menstruation).

وتستمر المرحلة الأولى من سنة ونصف السنة إلى سنتين، والمرحلة الثانية من سنتين إلى ثلاث سنوات. وهذه المرحلة الأخيرة لدى الفتاة تكون أقصرمما هي لدى المراهق.

وكما قلنا، فإن البلوغ يختلف بالنسبة للأفراد والسلالة والمناخ والظروف الاجتماعية.

التغيرات الجنسية في البلوغ

يمكن تقسيم التغيرات الجنسية التي تحدث في مرحلة البلوغ إلى نوعين: نضج الخصائص الجنسية الأولية، وظهور الخصائص الجنسية الثانوية.

أ ـ الخصائص الجنسية الأولية

منذ الطفولة تتحدَّد معالم الذكورة والأنوثة بخصائص جنسية معينة. وفي مرحلة البلوغ يتم التشكيل النهائي لهذه الخصائص، ويتعيَّن نضج الأعضاء الذي يؤهلها لعملية التناسل الطبيعي. فبالنسبة للأنثى يحصل في البلوغ نمو ونضج في:

- المبيضين (Ovaires)

- الرحم (Utérus)

- المهبل (Vagin)

- الفرج (Vulve)

- أثداء ناضجة (Seins)

وبالنسبة للذكر يحصل النمو والنضج في:

- الخصيتين (testicules)

- الجيوب المنوية (vésicules séminales)

- البروستات (prostate)

- كيس الخصيتين (scrotum)

- أثداء بدائية

ب - الخصائص الجنسية الثانوية (caractères sexueles secondaires)

أولاً - عند الأنثى

- يغلب نمو الحوض

- جهاز حركي ضعيف

- زيادة في نمو الشحم وتوزيعه تحت الجلد

- جهاز وبري طفلي وشعر طويل

- حنجرة ذات نمط طفلي

ثانياً: عند الذكر:

- يغلب نمو الكتفين

- جهاز حركي قوي

- نقص في توزيع الشحم تحت الجلد

- جهاز وبري نامٍ وشعر قصير

- حنجرة نامية

إن أولى الخصائص الثانوية تتمثل في ظهور وبر العانة في جذور القضيب، وعند الأنثى في حواف الشفر الأكبر. ثم يمتد تدريجاً نحوالعانة لدى كلا الجنسين ويغطي الوجه الخارجي للشفر الأكبر لدى الفتاة، وكيس الخصيتين والخصيتين لدى الفتى. وبعد ذلك بسنتين تقريباً يظهر شعر الإبطين (poils axillaires) وتصاحبه أواليات الحيض لدى الفتاة.

ثم في مرحلة تختلف باختلاف نمو الأفراد، يظهر عند الفتى الشارب ثم اللحية، وبعد ذلك يظهر الوبر (الذي ينقلب إلى شعر) على الصدر والظهر والأطراف (الاختلاف بحسب الأجناس: فبعضها لا تنبت لحاهم). ومع ظهور الشعر تنمو الغدد العرقية (glandes sudorifiques) تحت الإبطين وفي المنطقة التناسلية.

أما في ما يتعلق بنموالثديين، فيلاحظ لدى الفتيان، في مرحلة البلوغ، انتفاخ خفيف في منطقة ما تحت ـ اللعوة (sous-aréolaire) لا يدوم أكثر من بضعة أشهر. أما لدى الفتيات فنمو الثديين يبدأ مع ابتداء مرحلة ما قبل البلوغ: في سن العاشرة تقريباً يحدث انتفاخ (Tuméfaction) قطره ما بين ١ ـ ٢ سم، تحت اللعوة (Aréole)، ثم يزداد الانتفاخ رويداً رويداً دون أن يظهر أي بروز للحلمة (mamelon). أحياناً يحدث هذا الانتفاخ في الجهة اليسرى دون الجهة اليمنى ويبقى ذلك لفترة من الوقت. وأخيراً تنتصب الحلمة بتكاثر الخلايا، ويأخذ الثدي شكله وحجمه الطبيعيين اللذين يختلفان بالنسبة إلى الأفراد والأعراق[٦]. وكذلك العظم، لدى الفتيان، يكون أشد

- L'Adolescence: Comprendre savoir agir (Biblithéque CEPL).٦

صلابة وكثافة مما هو لدى الفتيات،. ويتميز الفتى بنمو الكتفين، بينما تتميز الفتاة بنمو الحوض. وكثرة الأنسجة الدهنية تحت الجلد تجعل بشرة الفتاة رقيقة وناعمة، بينما يسمك الجلد لدى الفتى لقلة هذه الأنسجة.

ويلاحظ لدى الفتى أن الساقين والذراعين أطول منهما لدى الفتاة، والرقبة لدى الفتاة تبدو أطول وأكثر استدارة منها لدى الفتى.

وأخيراً تنمو الحنجرة بوضوح لدى الفتى، ويزداد طول الحبال الصوتية ويصبح الصوت أكثر خشونة.

في الوقت نفسه الذي تظهر فيه الخصائص الجنسية الثانوية، يتم نمو الأعضاء التناسلية الذكرية.

عند الفتيان: في أواخر مرحلة الطفولة الثانية، وقبل البلوغ، تكون الأعضاء التناسلية بالحجم نفسه الذي كانت عليه في سن الثانية والثالثة. وفي البلوغ يزداد طول القضيب وقطره، ويزداد حجم الخصيتين ١٥ أو ١٦ مرة.

لقد قسّم «تانر»[٧] (Tanner) مراحل تطور العضو التناسلي إلى خمس:

ـ المرحلة الأولى: قبل البلوغ يكون حجم الخصيتين والقضيب هو نفسه في مرحلة الطفولة.

ـ المرحلة الثانية: يزداد حجم الخصيتين ويكتسب كيس الخصيتين اللون المائل إلى الاحمرار. وقد يزداد حجم القضيب أو يبقى على ما هو عليه.

ـ المرحلة الثالثة: يزداد طول القضيب ويستمر تزايد حجم الخصيتين وكيس الخصيتين.

ـ المرحلة الرابعة: يزداد قطر القضيب وتنموالحشفة (gland)، ويستمر تزايد

---

٧ ـ Cité par OUILLON Honoré dans la physiologie de l'adolescent in adolescence (Bib. CEPL

حجم الخصيتين وكيس الخصيتين ويميل لونه إلى السواد.

ـ المرحلة الخامسة: تأخذ الأعضاء التناسلية شكلها النهائي.

إن النمو، في هذه المراحل، يستمر تقريباً خمس سنوات، ويفصل كل مرحلة عن التي تليها سنة واحدة، ويمكن اعتبار الازدياد في حجم الخصيتين أولى علامات البلوغ، وهذا الازدياد يبدأ قبل اكتمال نمو القامة.

عند الفتيات: يزن المبيض عند الولادة ٢٠ ملغ تقريباً، ويزداد وزن المبيض الواحد من غرامين في سن العاشرة إلى ٧ غرامات في سن الرشد.

والأعضاء التناسلية لدى الفتاة تنمو في الوقت نفسه الذي تنمو فيه ما يطلق عليه اسم (follicules) ، ويزداد وزن الرحم وينحني إلى الأمام، أما الخرطومان (trompes) فيطولان ويصبحان قابلين للتقلص. ويصبح الغشاء المخاطي المهبلي ناعماً وإفرازه حامضاً، ويتضخم الشفران الكبيران والصغيران وينغلقان على الفرج المنفرج.

والفرج المتجه، عند الولادة، إلى الأمام ينحني تدريجاً نحو الأسفل في أواخر البلوغ، ويكبر البظر (Clitoris) ويصبح قابلاً للانتصاب الذي لا يحدث إلا في أواخر المراهقة.

إن معطيات «مارشال وتانر» (Marshall et Tanner) [8] تبيِّن مستويات العمر التي تصل من خلالها الفتاة إلى البلوغ. إن بعض الفتيات يظهرن علامات النمو الجنسي قبل سن التاسعة، وبعضهن الآخر بعد سن الثالثة عشرة. وخلال طفرة النمو في المراهقة، تزيد سرعة النمو إلى حد أقصى، ثم تبدأ، وبشكل مباشر إلى حد ما، في البطء من جديد. إن عتبة السرعة القصوى في النمو تشكل مرجعاً مفيداً في تاريخ النمو يطلق عليه بالانكليزية "Peak Height Velocity" أي السرعة القصوى في القامة

٨ـ MARSHALL W.A. (1970): Phsyical Growth and Development in practice of pediatric ed. v.c. Kelley, Harper and Row, university of Washington.

(VHV). إن هذه السرعة القصوى لدى حوالى ٩٥٪ من الفتيات تراوح ما بين ١٠,٣ سنوات و١٢,٩ سنة، وسن الحيض يراوح ما بين ١١,٥ سنة إلى ١٥,٥ سنة مع معدل وسطي يبلغ ١٣,٥ سنة. فالعمر الوسطي للوصول إلى مراحل النمو الجنسي يختلف كلياً من مجتمع إلى آخر، لأن سرعة نضج الأفراد ـ كما قلنا ـ هي حصيلة تداخل معقد لعوامل وراثية وعوامل محيطية.

ومن جهة أخرى، فإن مستوى العمر الذي يبدأ فيه نمو الخصائص الجنسية الثانوية، لا ينم عن المرحلة العمرية التي يبلغ فيها الفرد نضجه الكامل. وكما بيَّنا سابقاً، فإن الفرق بين علامات البلوغ الأولية والوصول إلى النضج الكامل يمكن أن يختلف من سنة ونصف، لدى بعض الأطفال إلى ست سنوات أو أكثر لدى آخرين. وهكذا، فإنه قد يُلاحظ أن فتاتين تبدآن في النمو في الوقت نفسه تقريباً، ولكن واحدة منهما تصل إلى النضج قبل الأخرى بسنة، أو تبدأ واحدة منهما في البلوغ قبل الأخرى بسنة، وتصل إلى النضج في وقت متأخر عنها.

يمكن الاستنتاج أن العمر الزمني ليس له دلالة كبيرة عند النضج. فمثلاً فتاة في سن السادسة عشرة ولم تحِضْ بعد، يمكن اعتبار حالتها طبيعية، ولكن ذلك يدفع، بلا شك، إلى الاعتقاد بوجود خلل ما في حال عدم ظهور أي علامة من علامات البلوغ عندها. ومن جهة أخرى يمكن القول عن فتاة اكتمل نمو ثدييها، ولكنها لم تَحِضْ بعد، إن نموها طبيعي.

إن العلاقة الوحيدة بين التغيرات الفيزيائية للبلوغ التي تظهر بشكل ثابت، هي أن الحيض لا يحصل قبل طفرة النمو في المراهقة. وبشكل عام يمكننا القول إنه من المستغرب بل من المستحيل أن يبدأ الحيض عند الفتاة الطبيعية قبل أن يجاوز نموها مرحلة السرعة القصوى في نموالقامة (VHV) والابتداء في البطء. وعلى العكس فإنه ليس بالإمكان التنبؤ بأن فتاة في أول مراحل نمو ثديها هي على أهبة حصول طفرة عندها نحو المراهقة. إذ من الممكن أن تكون قد تخطت مرحلة السرعة القصوى في نمو القامة، وأن نموها قد بدأ يتابطأ.

وإذا كان من الشائع أن طفرة النمو في المراهقة لدى الذكور متأخرة حوالى

السنتين، كمعدل وسطي، عنها لدى الإناث، فإن عملية النمو الجنسي بكاملها تتأخر، فإن معطيات «مارشال وتانر» تبرهن على عدم صحة ذلك.

إن نمو الأعضاء التناسلية لدى غالبية الذكور الطبيعيين يبدأ ما بين ٩,٥ سنوات و١٣,٥ سنة: هذا الفارق شبيه بالفارق الذي يعتبر بداية نمو الثديين لدى الإناث. إن الأعضاء التناسلية وشعر العانة يتم نموها لدى الصبيان في العمر نفسه الذي يتم فيه نمو الثديين وشعر العانة لدى الفتيات، بالرغم من أن نمو الجهاز الوبري للوجه وللجسم يمكن أن يستمر لدى الصبيان إلى وقت طويل يتعدى نهاية البلوغ. وهكذا يمكن القول إن التمايز بين الذكور والإناث يكون أكثر وضوحاً بالنسبة للسن التي تحصل فيها طفرة النمو من السن التي تظهر فيها الخصائص الجنسية الثانوية.

هذه المعطيات في العلاقة بين النمو الجسمي والنمو الجنسي تظهر، باختصار، النتائج التالية:

١ - إن قامة الفرد يمكن أن تختلف بالنسبة إلى أفراد مجموعة من العمر نفسه، وهذا الاختلاف له تأثير على العلاقات الاجتماعية ضمن هذه المجموعة.

٢ - إن العمر الذي تبلغ فيه الخصائص الجنسية الثانوية مرحلة معينة يختلف ضمن المجموعة الواحدة، مع فارق يزيد على السنتين بالنسبة إلى المعدل الوسطي.

٣ - إن بعض الأفراد ينهي دورة التغيرات الفيزيائية للمراهقة الكاملة في أقل من سنتين بينما يلزم بعضهم الآخر خمس سنوات وأكثر لإنهائها.

٤ - إن نمو شعرالعانة لا يتوافق كلياً مع نمو الثديين لدى الفتيات، أو الأعضاء التناسلية لدى الذكور.

٥ - إن الحيض يظهر عادة عندما يبلغ نمو الثديين مراحله الأخيرة، أو قد يتأخر إلى نهاية نمو الثديين. ولكنه في كل الأحوال لا يظهر قبل نهاية طفرة النمو في مرحلة المراهقة.

٦ - إن طفرة نمو المراهقة قد تظهر لدى الفتيات مبكرة خلال نمو الخصائص

الجنسية الثانوية. أما عند الفتيان، فلا تظهر عادة قبل مرحلة متطورة من النمو الجنسي. ونمو الأعضاء الجنسية لدى الفتيان يتم تقريباً، في المرحلة نفسها التي يتم فيها نمو الثديين عند الفتيات.

ج ـ الخصائص الوظيفية

١ً ـ الخصائص الأولية التناسلية

ـ عند الفتاة:

- ـ «ليبيدو» نحو الرجل
- ـ إيقاظ بطيء وغير ضروري للإخصاب
- ـ القدرة على الحيض والحمل
- ـ الحمل والولادة

عند الفتى:

- ـ «ليبيدو» نحو الأنثى
- ـ إيقاظ سريع وضروري للإخصاب
- ـ القدرة على الانتصاب (Erection)

٢ ـ الخصائص الثانوية التناسلية

ـ عند الفتاة:

- ـ غريزة الأمومة وعناية مباشرة بالأطفال
- ـ حساسية للأرجاع العاطفية
- ـ ميل إلى العزوف عن النزوات الحركية
- ـ مشية ومواقف مميزة
- ـ نبرة صوت حادة

ـ عند الفتى:

- غريزة العمل الاجتماعي (الدفاع عن الأسرة)
- حساسية أقل نحو الأرجاع العاطفية
- ميل إلى النزوات الحركية
- مشية ومواقف مميزة
- نبرة صوت عريضة

أثر الهرمونات في البلوغ

إن الغدة الصماء الجنسية الأساسية هي الغدة النخامية (Hypophyse). وهي تقع في قاعدة المخ، وتقسم إلى قسمين: الفص الأمامي، والفص الخلفي الذي يرتبط بالمنطقة السريرية (Thalamus)، وما تحت السريرية (Hypothlamus) من الدماغ.

أ ـ الفص الأمامي: يفرز سبعة أنواع من الهرمونات أهمها: هرمون النمو الجنسي (Gonadotrope)، وهرمون النمو الجسمي (Somatotrope).

١ ـ الهرمونات الجنسية نوعان على الأقل يؤمنان قيام الغدد الجنسية بوظائفها، وهما متشابهان لدى الجنسين، ولكن تأثيرهما يختلف لدى كل من المرأة والرجل تبعاً لتأثيره على المبيض أو الخصيتين. فلدى الأنثى يثير نمو حُقق (Follicules) المبيض ونضجه، ولكن دون أن يصل إلى حدٍ خروج البويضة. ولدى الذكر فإنه يساعد على نضج جدران الأنابيب المنوية، ويساعد على سرعة انقسام الخلايا المنوية، كما أنه يثير إفراز هرمون «التستوستيرون» (Testostérone) وهرمون «الاستروجين» (Oestrogène). ويضاف إلى هذين النوعين من الهرمونات هرمون ثالث هو هرمون «البرولاكتين» (Prolactine) الذي يؤثر على الهرمون الأنثوي (Folliculine)، وعلى إنتاج هرمون «البروجستيرون» (Progesterone)، ويضبط إفراز الحليب بعد الإنجاب.

٢ً ـ **الهرمونات الجسمية**: تساعد على نمو الهيكل العظمي والخلايا الجسمية عموماً. إن فقدان هذه الهرمونات أوزيادتها له تأثيرات واضحة على شكل النمو.

وتمارس الهرمونات الجسمية تأثيرها على النمو من خلال منع الغضاريف من التكلس، ممّا يمكنها من الاستمرار في النمو، إضافة إلى ضبط عملية الهدم والبناء (العملية الأيضية).

ب ـ **الفص الخلفي**: يفرز فقط الهرمونات التي تضبط عمليات التوازن الداخلي (كمية الماء والأملاح والسكر ... إلخ)، وكذلك يساعد في درٍّ الحليب بعد الولادة.

الغدد الجنسية

أ) ـ الخصيتان (Testicules): تتكون من قسمين: الأنابيب المنوية التي تحتوي على عناصر التكاثر وتولّد الحييات المنوية (Spermatozoides)، ومن نسيج يتألف من خلايا ليدغ (Leydig) التي تفرز الهرمون الخصوي المسؤول عن التمايز الجنسي الذكري، والهرمون المشرف على عملية التكاثر هو «التستوستيرون» (Testostérone) الذي يبلغ إنتاجه اليومي حوالى ٧ ملغم، ويقل في الشيخوخة تدريجاً، وله وظائف عديدة:

ـ يشرف على عملية تكوين الحييات المنوية.

ـ مسؤول عن التمايز الجنسي الذكري وبروز الأعضاء التناسلية الذكرية والخصائص الجنسية الثانوية.

ـ مسؤول عن إفراز الغدد الدهنية في الرأس، وتساقط الشعر وحب الشباب (Acné). يتحكم بهذا الهرمون هرمونات الإثارة الجنسية التي تفرزها الغدة النخامية، وتتحكم المنطقة السريرية من الدماغ بهذا الإفراز.

ب) ـ المبيضان (Ovaires): عبارة عن غدد بيضاوية تزن حوالى ١٠ غرامات، يتضاعف وزنها في أثناء الحيض.

إن الوظائف الصماء للمبيضين معقدة جداً، إذ إنها لا تساعد فقط على نضج

البويضة الضرورية للتوالد، ولكن أيضاً تؤمن، بعد إخصابها، الشروط الضرورية لاستمرار الحمل.

إن هرمونات المبيضين على نوعين:

- هرمونات «الأستروجين» (Oestrogène)

- هرمونات «البروجسترون» (Progestrone)

إن هرمونات «الأستروجين» تفرز، عادة، بشكل دائم، ولكن كمية الإفراز تزداد في الشهور الثلاثة الأولى من الحمل.

أهم وظائف «الاستروجين» البيولوجية:

- النضج المورفولوجي لجسم الأنثى.

- تهيئة الرحم والمهبل لتلقي آثار هرمون «البروجسترون».

- تنمية قنوات الغدد الثديية التي تفرز الحليب.

أما وظائف هرمون «البروجسترون» الذي تفرزه الأجسام الصفراء (Corps jaunes) في مرحلة الدورة الشهرية، وفي أثناء الحمل فهي:

- تأمين الشروط الملائمة لنمو الحمل.

- الحد من انقباض الرحم، مما يمكّن البويضة الملقّحة من الاستمرار، وحمايتها حتى التصاقها بجدار الرحم.

- في حال عدم حصول الحمل يخرج «البروجسترون»، كالأجسام الصفراء، مع السائل الحيضي. إن عملية إفراز الهرمونات الجنسية تضبطها الغدة النخامية والمنطقة السريرية من الدماغ.

فكما تبيّن لنا، فإن الهرمونات تلعب دوراً أساسياً في تحديد الخصائص الجنسية الأولية والثانوية. وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن الهرمونات تحدّد بعض الخصائص الوظيفية أيضاً لكلا الجنسين.

لكن الدراسا ت الحديثة تثبت أن الهرمونات لا تحدِّد كل شيء وتركيبها الكيماوي متشابه إلى حد بعيد. فالذي يمكن قوله إن البلوغ عملية نضج جنسي أكثر مما هو عملية تمايز جنسي، بمعنى أن البناء الأساسي الجنسي (الذكورة والأنوثة) الأولي مختلف، فيأتي الهرمون ليساعد في تفتح هذا الأساس وتركيزه، إضافة إلى مساعدة العوامل الاجتماعية والنفسانية، ومثال على ذلك، النشاط الجنسي المبكر لدى البدائيين فهو يعود، إلى حدٍّ كبير، إلى تأثير البيئة الاجتماعية التي تتقبل السلوك الجنسي وتستثيره، بعكس المجتمعات المتزمتة جداً حيث اختفاء «الليبيدو» هو نتيجة إحاطة الحياة الجنسية بمجموعة من المحرمات. فهذه الأسباب تؤخر البلوغ.

إن تقرير «كينزي» (Kinsey) يبيّن أن ظهور البلوغ ينخفض في المستويات الثقافية العليا (١٣ ٤/١٢) عنه في المستويات الدنيا (١٤ ٢/١٢)، ويعلل ذلك بالأسباب التالية:

- نوعية الغذاء الملائمة.
- كمية المثيرات التي يتلقاها الفرد.
- الاعتراف والقبول بنضج الفرد وبلوغه.

وجاءت نتائج بحوث «تانر» (Tanner)[٩] مشابهة لنتائج «كينزي».فقد أكد أن سن البلوغ تنخفض مرحلياً وتاريخياً. فاليوم، ونتيجة الاعتناء بالصحة العامة والغذاء المتكامل، انخفضت سن البلوغ في بعض البلاد النامية اقتصادياً. فمثلاً كان سن الظهور البلوغ لدى الفتيات في البلاد الاسكندينافية عام ١٨٥٠ سبعة عشرة سنة، وأصبح سنة ١٩٥٠، ثلاث عشرة سنة ونصف السنة.

يمكن أن نستخلص، إذن أن سلوك الفرد الجنسي (الذكورة والأنوثة) يرجع إلى أسباب اجتماعية ونفسانية، أكثر مما يرجع إلى تأثير الهرمونات، بالرغم من أن

٩ - TANNER J.M.: Growth at Adolescence - Oxford Blackwell 2nd ed.

الهرمونات لها تأثيراتها في ذلك أيضاً. فالخضوع والسيطرة هما أمران اجتماعيان ـ نفسانيان، والبرودة أو اليقظة الجنسية، هما حصيلتا قمع اجتماعي وكبت نفساني.

البلوغ الطبيعي والبلوغ الباثولوجي

يمكننا القول بصورة عامة إن البلوغ يمثل مرحلة تعزيز الجسم وتقويته. لذلك يقال إن المراهقة هي مرحلة قلق أكثر مما هي مرحلة مرضية ـ باثولوجية.

ولكن في أثناء البلوغ قد تحدث اضطرابات في النمو الجسمي والنمو الجنسي. فهناك حالات بلوغ مبكرة قبل سن العاشرة تصاحب بتغيرات عقلية. والحالات النادرة في هذا النوع من البلوغ تتم حوالى سن الخامسة أو السادسة، وهي أقل حدوثاً لدى الذكور.

ويحدث أحياناً بلوغٌ كاذبٌ مبكر، نتيجةً لتنظيم هرموني سيء أو كلوم (Lésions) عضوية. وهناك حالات بلوغ متأخر دون أسباب مرضية. فبصورة عامة يمكن اعتبار التأخر في البلوغ ما بين ٣ ـ ٤ سنوات ظاهرة طبيعية، إذا كان هذا التأخير يرجع إلى أسباب عائلية، لأن التأخر في البلوغ لدى الأهل ينعكس على تأخر البلوغ لدى الأبناء.

الانعكاسات النفسانية للنمو الجسمي والجنسي

عندما نتكلم عن الانعكاسات النفسانية للنمو العضوي، يدفعنا التفكير إلى الانعكاسات العميقة لهذا النمو على الطبع والعاطفة والسلوك.

أ ـ الاهتمام بالذات الجسمية

إن ظهور الخصائص الجنسية في مرحلة البلوغ لها تأثير نفساني أكبر من تأثير طفرة النمو الجسمي وإن كان النمو في القامة والوزن، والتغيرات السريعة والمفاجئة على صعيد الجسم تحدِّد كل أشكال التغيرات الكيفية والكمية والزمنية. فالانهيار في مرحلة البلوغ يتأتى من أن الكائن في الوقت الذي يكتشف فيه جسداً

جديداً يشعر برغبات لا يمكنه إشباعها. فالمراهق يصبح في حالة يتوجب عليه فيها أن يتعلم القبول بمتعضى جديد هو مصدر اهتمامات وقلق في الوقت نفسه. ولا شك أن تزايد قوى المراهق التي تنتج عن النمو الجسمي تعطيه إمكانات جديدة.

وكلما كان هناك اضطرابات وعدم انتظام في النمو، كلما تزايد الاهتمام بالذات الجسمية. والملاحظات التي يوجهها المحيط لها التأثير نفسه. فالجسم يصبح رمز «الأنا»، والاهتمام الذي يوجَّه إلى الذات الجسمية يسهم في دينامية تأكيد الشخصية. والاهتمام بالذات يتضاعف نتيجة الاهتمام بالجسم المثالي الذكوري أو الأنثوي. وهذا الموقف يعبر عن القلق الذي ينتاب المراهق نتيجةً لما هو عليه «الأنا» الواقعي و«الأنا» المثالي الذي يأمله. فإذا انعدم التناسق بين الإثنين تحصل صعوبات كثيرة لكون المراهق يعرف ما هي قوانين الجسم الإنساني المتناسق، ويعي أن القامة القصيرة مثلاً هي إعاقة له في الألعاب الرياضية، وموضوع احتقار من الجنس الآخر الذي هو في عمره ويسبقه في النمو، بينما تقلق الفتاة وتعاني بسبب ضخامة جسمها.

ومظهر الوجه يأخذ أهمية كبيرة ويشكل إحدى خصائص الاهتمام بالذات الجسمية. وشكل آخر يمكن ربطه بالاهتمام الجسمي ألا وهو الرغبة لدى المراهقين في المثيرات والمنشطات. فالمراهق يبحث عن الاستثارة لذاتها، فيجدها حتى في لذة التدخين[١٠]. «إن الاستقصاءات التي أجريت في أميركا أظهرت أنه، قبل الحرب الأخيرة، كانت نسبة المراهقين الذين يدخنون تراوح ما بين ٣٨٪ إلى ٧٥٪ لدى الذكور، و٢٨٪ إلى ٦٠٪ لدى الإناث في عمر يراوح ما بين ١٦ و٢٠ سنة. وبالنسبة للذكور فإن محاولات التدخين تبدأ غالباً قبل البلوغ. وهذا الاكتساب يتم خلال مراحل متعددة:

- المحاولات الأولى تكون عقيمة، إذ ان لذة التدخين تأتي عادة بعد عدة محاولات.

---

١٠. DEBESSE. M.: Le Monde de l'adolescnet - Bulletin de psychologie No. 203 - 1962.

ـ الدافعية إلى التدخين هي دافعية معقدة: دافعية متأتية من أصدقاء أكبر سناً، أو بسبب الرغبة في إظهار الرجولة «والرغبة في الاستقلالية».

ب ـ الانجذاب نحو الجنس الآخر

إن هذا التأثير هو الأكثر مباشرة لظاهرة البلوغ على تصرفات المراهقين. ففي بداية البلوغ لا يلاحظ الانجذاب بين الفتى والفتاة بل يحصل انزعاج متبادل بينهما. ثم يظهر الانجذاب بشكل مقنَّع يمكن كشفه في الأحلام والقراءات... ، كون الشحنات الغريزية تولِّد رغبات لا يمكن إشباعها لأنها تصطدم بالضغوط الاجتماعية والموانع الأخلاقية.

وهناك مرحلتان متتابعتان في نضج الشحنات الجنسية: مرحلة الجنسية غير الناضجة حيث تستمر الجنسية المثلية التي تؤدي عادة إلى الاستمناء أو الخضخضة (Masturbation)، ومرحلة الجنسية الغيرية حيث يتطور البحث عن القرين من الجنس الآخر. إن هذا التطوريختلف باختلاف الجنس وباختلاف البيئات: يعتبر «فرويد» أن تفسير الجنسية الذكورية أسهل من تفسير الجنسية الأنثوية. والانعكاسات النفسانية للجنسية لدى البدائيين، مثلاً، لا تظهر، بالشكل نفسه كما في المجتمعات الحالية، فالطقوسية في البلوغ تسهِّل الانخراط في مرحلة الرشد.

وتبيِّن بعض الدراسات أن هناك اختلافات من بيئة إلى بيئة أخرى في الحضارة نفسها. فقد أظهرت هذه الدراسات أن الاهتمامات الجنسية تكون مبكرة عند المستخدمين والعمال أكثر منها عند الطلاب، وأن المجلات ووسائل الإعلام تساعد في هذه الاستثارات المبكرة. والوصول إلى البلوغ الجنسي يترجَم، نظرياً، بالقذف المنوي التلقائي أو المفتعل لدى الصبي. فهذا القذف يفاجئ الفرد بهذه اللذة القوية والجديدة التي يشعر بها. إن أفراد الجيل الجديد هم أكثر معرفة بهذه الظاهرة من الجيل القديم، لذلك فإنهم لا يشعرون بالمضايقة وإن كان بعضهم ما زال ينتابه الخجل والشعور بالذنب حتى في حال القذف التلقائي.

بالرغم من أنه يتم حالياً إعلام المراهقين بما سيحدث لهم في أثناء النضج

الجنسي يبدو أن المراهقين الذكور هم، في أغلب الأحيان، أقل معرفة من المراهقين الإناث. فالذكور، في رسم صورٍ تعبر عن شخصياتهم، لا ينوّهون مطلقاً بظهور الخصائص الجنسية، بل يؤكدون على قوتهم الفيزيائية، وخشونة أصواتهم، والأهمية التي يعطونها لمظهر الوجه والشعر. فموضة الشعرالطويل اليوم مثلاً، هي كموضة الثياب دليل على مماثلة جماعية يتقولب بواسطتها المراهق بمثال ما. ومن جهة أخرى، فإن قيمة رمزية أكيدة تعطى للشعر كقوة وسيطرة ورجولية.

أما بالنسبة للفتاة، فإن الوصول إلى البلوغ الجنسي يؤدي إلى تغيرات معترف بها من قبلها ومن قبل المحيط: نمو الثديين والحيض وانعكاساتهما النفسانية.

فعندما يكون نمو الثديين مبكراً وسريعاً تشعر الفتاة بالانزعاج خصوصاً أنها تصبح موضوع سخرية من قبل الذكور في عمرها، فترتبك في سلوكها وفي تصرفاتها، وتحاول أن تمشي منحنية لتخفي هذا المظهر الجديد. أما إذا تأخر نمو الثديين فإنها تشعر بالقلق والإحباط. وظهور حب الشباب الذي يصاحب الوصول إلى النضج الجنسي يشكل مصدر قلق آخر للمراهقات. كثير من المراهقات، يلجأن إلى «رجيم» غذائي لمعالجة ذلك، سريعاً ما يتوقف، أو يضعْنَ المساحيق على وجوههن، فيكون مصدر نقد من قبل الأهل الذين يرون فيه أمراً مبكراً ومبالغاً فيه.

وظهور الحيض هو من أهم الأحداث في حياة الفتاة أثناء المراهقة. ويختلف تأثيره النفسي تبعاً لتكوين الفرد النفسي ولموقف المحيط. فالحيض يعني وصول الفتاة حقيقة إلى النضج الجنسي. وقبل حدوثه تمر الفتاة بفترة انتظار لهذا الحدث حيث تكون كثيرة القلق لما يحاط به عادة من السرية والخجل والشعور بالذنب.

والفتاة لديها دائماً فكرة عما ينتظرها، سواء حصلت على معلومات من أمها أو لم تحصل. فهناك دائماً الرفيقات حيث يشكل الحيض أهم الأسرار التي يخفينها.

فالفتاة القابلة لأنوثتها بشكل خالٍ من الصراعات، والتي هي في حالة متوافقة مع انتمائها الأنثوي، تنتظر الحيض باعتزاز كدليل على المرور إلى النضج والأنوثة الفعلية، وتفاخر به المحيط من خلال إعجابها بجسدها. أما الفتاة التي تعاني من

صراع بخصوص أنوثتها، فإنها تقابل هذا الحدث بصعوبة واضطراب، سواء حصلت على معلومات أو لم تحصل.

وهناك فتيات تُفاجَأن بالحدث فيحاولن إخفاءه بسبب رفضهن له ونتيجة للكبت، واليوم، حيث غالبية الإناث على علم بما سيحدث لهن، فإن الحيض يشكل للبعض صدمة قوية لأسباب عديدة منها:

ـ أن الفتاة التي تنتظر هذه اللحظة أملاً في الانتقال من الطفولة إلى مرحلة النضج تصاب بخيبة لأنها لا ترى أي تغير طرأ على مكانتها. فالخطر هنا أن تعبِّر عن خيبتها هذه باستجابات خورية (Dépressives).

ـ والفتاة التي تحيض في مرحلة مبكرة ترفض هذا الحدث لأنه يعيقها في نشاطها، خصوصاً الفتاة الرياضية.

ـ وهناك فتيات يعشن أمر الحيض على شكل تلوث، ويهيمن عليهن شعور بأن رائحة كريهة ستنبعث منهن وأن الجميع سيعرف أنهن في مرحلة الحيض.

ـ وفتيات يصبن بالذعر ويعشن الحيض بشكل أذى ألمّ بالجسد، ويرتبط ذلك بهوامات عن عدوان داخلي على الجسم، وأفكار عن السادية الجنسية التي تقع أعضاء المرأة ضحية لها.

ـ وفي بعض العُصابيات يحرك الحيض عقدة الخصاء (Castration) لديهن. كالجسم الذي يُدمى لانه بُتر منه شيء. وقد ينفجر العُصاب ويتخذ طابع الخواف (Phobie) والهلع.

ويرتبط الحيض لدى الفتاة بمسألة الأمومة: لأنها لأول مرة تشعر بارتباطها بوظيفة الجنس والإنجاب، كما أن الحيض يرتبط دائماً في ذهن الفتاة بالرغبات والمخاوف المتعلقة بالحمل والوضع.

وللحيض ارتباط بحياة الأنثى العاطفية وبانفعالاتها: كل اضطراب نفسي يمر،

عادة، من خلال التأثير على الدورة الشهرية: انقطاع الحيض (Aménorrhée) وانتظامه، وظهوره بشكل مبكر أو متأخر وبكمية قليلة أو كثيرة.

ثالثاً ـ النمو العقلي

أولاً ـ تطور الذكاء لدى المراهق

إن دراسة نمو الذكاء عند المراهق لا تخلو من صعوبات بسبب أوجه الاختلاف بين الدارسين حول تحديد بدايته ونهايته. فبعضهم يضع سن ١٢ أو ١٤ كحدٍّ أعلى لنمو الذكاء، ومنهم من يذهب لغاية العشرين، ومنهم من يعتبر أن المراهق يتقهقر فيما يتعلق بالذكاء، وآخرون يقولون إن الإمكانيات العقلية لا تثبت قبل نهاية المراهقة.

وهناك إسهامات كثيرة في موضوع النمو العقلي لدى المراهق، أهمها بلا شك اسهامات «دبس» (Debesse، و«بياجه» (Piaget) وتلامذته:

أ) ـ مبادئ تطور الذكاء لدى المراهق حسب «دبس»

يؤكد «دبس» في كتاب «المراهقة»[١١] على ثلاث خصائص رئيسية للنمو العقلي لدى المراهق:

- تخصص الذكاء العام وظهور القدرات العقلية الخاصة.
- الجدلية في التفكير.
- ظهور مفهوم القانون في التفكير.

١ ـ تخصص الذكاء العام وتزايد القدرات العقلية

إن كثيراً من عوامل التطور العقلي ومكوناته تكاد تكون قد اكتملت من قبل أن تبدأ مرحلة المراهقة، بحيث أن بعض المهارات الإدراكية والحركية والقابلية على

١١ـ DEBESSE. M.: L'Adolescence (Que sais - Je No.102) -

التذكر لا يطرأ عليها إلا قليل من التطور بعد الطفولة المتأخرة. إن هذا يعني أن الأساس الذي يرتكز عليه التطور العقلي يكاد يكون قد تم في مطلع المراهقة.

اعتبر «سبيرمن» (Sperman) أنه إلى جانب القدرات العقلية الخاصة، هناك طاقة عقلية تتداخل في جميع الوظائف العقلية، وهذه الطاقة العقلية العامة تصل إلى أقصى مداها في عمر يراوح ما بين ١٥ ـ ١٦ سنة، وتصل لدى الأفراد الأذكياء إلى حوالى ١٩ سنة. والذكاء الطفلي يبقى وظيفة فطرية شاملة وكلية، ولكن قبل البلوغ بقليل تظهر الاستعدادات أو القدرات، أي تلك الاستعدادات والقدرات الفطرية التي تمكن من التمييز بين الأفراد، وتجعل بعضهم قادرين، مع مساواة التربية والظروف، على النجاح في ميدان أكثر من ميدان آخر. وتتخذ هذه الاستعدادات أو القدرات أشكالاً متنوعة: مكانية وزمنية، وذاكرية ورياضية، وموسيقية، ولفظية، وميكانيكية ...إلخ، وهي تظهر بالتدرج بين مرحلة البلوغ والعمر الذي يراوح بين ١٦ و ١٧ سنة.

وتقاس الاستعدادات أو القدرات من خلال روائز متخصصة، وتعطى النتائج على شكل «جانب نفسي» (Profil psychique). ولقد ثار جدل كبير حول استقلال القدرات أو ارتباط بعضها بالآخر. والفكرة الشائعة بين الدارسين هي أن العامل العام يتغلب حتى الحادية عشرة، ثم ابتداء من الثانية عشرة تظهر العوامل النوعية، مما يؤدي إلى تخصص نشاطات المراهق، وفي هذه المرحلة بالذات تطرح أمام المراهق، لأول مرة، مسألة توجهه المهني، وتساؤله حول قدراته الخاصة.

٢ ـ الجدلية في التفكير

يصبح المراهق ابتداء من الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة عاماً تقريباً، أكثر تفكيراً. ويتخذ منحنى التفكير لديه طابع الجدل والمناقشة والنزاع الفكري. ويعتبر «ماندوس»[١٢] (Mendousse) «إن المراهق يلقي بنفسه إلى أكثر المشكلات تعقيداً ويهتم

---

١٢ ـ MENDOUSSE P.: L'Âme de l'Adolescent (P.U.F) in l'Adolescence par Debesse. M. (coll. que sais - je). p.102.

بالمسائل الفلسفية والميتافيزيقية، والحجج والبراهين التي يعطيها تكون، في بداية الأمر، حججاً وبراهين مشوشة ثم تتنظم تدريجاً، ويتوصل المراهق إلى أسلوب خاص في الجدل والمناقشة وإعطاء الدليل الواضح... ويرتبط تقدم التفكير هنا، باكتشاف الأفكار العامة وبروز القدرة على التجريد». ويلاحظ أن الجمل التي يؤلفها المراهق لإسناد فكرته، وإن بدت أكثر غنى في ألفاظها وأكثر قدرة على التعبير عن أفكار واضحة، فإنها تظل، في البداية، كالثوب الفضفاض، إذ إن زيادة المفردات جاءت أسرع من القدرة على تنظيمها في إطار صياغات معقولة. فلذة التلاعب بالكلمات، والبهلوانية اللفظية تعطي خطاب المراهق طابع الثرثرة أو الجدل «البيزنطي» أكثر من طابع التسلسل المنطقي القائم على الربط بين العلة والمعلول.

ولا شك أن المبالغة في التفكير والصياغة، وخصوصاً استعمال القياس في تركيب المقاطع والجمل، يؤدي لدى المراهق إلى التصلب في المواقف والتفكير، ويصبح طابع التفكير لديه «دغماطيقياً». فالآراء التي يعبِّر عنها ويجادل فيها لا يبتغي من ورائها البرهنة على المعرفة التي لديه، بل لكي يثبت أن الحق معه، وأنه هو الذي يملك الحقيقة. فهنا تتداخل كل حالات المعاندة الفكرية والرغبة في المعارضة واتخاذ المواقف المضادة لإثبات ذاته والتأكيد على شخصيته.

إن هذ ه المظاهر العقلية لدى المراهق هي مظاهر مؤقتة تزول بعد فترة التدريب العقلي.

٣ ـ إكتشاف مفهوم القانون

إن الربط بين المسببات والأسباب، والعلاقة بين الظاهرات وتعلم بعض قوانينها أمور يتم اكتشافها في أعقاب البلوغ. أما التوصل إلى مفهوم القانون فإنه لا يحدث إلا في المرحلة المتقدمة من المراهقة، بعد نضج كل الإمكانيات العقلية، وتوصُّل التفكير إلى إدراك العالم كبناء متماسك. فيصبح القانون التعبير عن الروابط العامة والضرورية التي تربط الظاهرات وتنظمها.

ب) - تطور الذكاء بحسب دراسات «بياجه» وتلامذته[١٣]

يعتبر «بياجه» أن البناء العقلي في مرحلة الطفولة يتميز بالتركيز حول الذات (الأنوية égocentrisme)، وفي مرحلة الرشد بالموضوعية. أما في مرحلة المراهقة فإن البنية العقلية تتميز بأنها انتقالية ما بين الأنوية والموضوعية، وهي لا تتمتع بعد بالثبات، بالرغم من وصول الذكاء إلى حدِّه الأعلى في النضج. فالخصائص المميزة للبنية العقلية للمراهق هي عدم الاستقرار العاطفي والعلائقي، وهي قائمة على الحماس والتخيل وأحلام اليقظة، أكثر مما هي قائمة على الاستقرار والمنطق والواقعية. فهذه الرؤيا عن العالم الخارجي تحدُّ من الموضوعية الممكنة في هذه المرحلة: فالمراهق يتمكن من فهم التفكير لدى الراشد ويشعر أنه موازٍ له، ولكنه كثير الحماس والاندفاع في تفكيره، حيث لديه مزيج من المثالية (Idéalisme) ومن الخيال ومن التمرد، فهو يرى الأشياء من زاويتها الرائعة، ويضع المشاريع الضخمة ويعاند في مناقشاته. وهو واقع بين قطبين: قطب سلبي يؤدي إلى إحساس بأنه غير مفهوم، وقطب إيجابي يدفعه إلى تأكيد ذاته.

ويرى «بياجه» أن المراهق ابتداء من سن الخامسة عشرة تقريباً، يكتشف أنه قادر على المزج بين الأفكار والفرضيات، ويحاول استكشاف العلاقات المتبادلة بين وجهة نظره ووجهة نظر الآخرين. فهو لم يَعُدْ مركز العالم والمرجع الوحيد، بل أصبح يدرك أن كل فرد هو سيد تجاربه. فهذا التبادل الفكري يمكِّنه من اجتياف[١٤] (Interjection) الظاهرات والأحداث الجديدة واحترام موضوعيتها.

هذه الإمكانيات العقلية الجديدة تتجسد في استعمال اللغة لدى المراهق واستخدام كلمات الاستنتاج والمقارنة: «إذن» و«مهما» وغيرها... في معناها الصحيح. فهو يقول الآن «توجد الشمس إذن الطقس حار»؛ وأصبح المراهق قادراً على التصميم مع الاحتفاظ بالاستثناءات. فمثلاً يقول: « لم أتبلل بالرغم من أن المطر ينهمر».

١٣.- PIAGET J. - Inhelder. B.: De la logique de l'enfant à la logique de l'adulte (P.U.F).

١٤ - اجتياف: استدخال في الذات (Interjection).

ويتوصل المراهق إلى إمكانية الاختبار العلمي الصحيح والنظر إلى المشكلات والعوائق التي يصادفها في حياته اليومية. فهولم يعد يقبل بالظاهرات كما هي، بل يفتش عما وراءها من طريق القيام بالتحقيقات واختراع الحلول.

فهذه المرحلة هي مرحلة ميل المراهق إلى التجارب العلمية والتفسير ووضع الفروض ومحاولة التثبت من نتائجها المنطقية. ولكن لا يكفي فهم العالم الفيزيائي أو البرهنة على هذه القضية أو تلك. إذ إن الأهم والأصعب هو إدراك الواقع المعقد للعالم الذي يحيط بالمراهق: العالم الواقعي والعالم النفسي، فالمراهق بدلاً من الاهتمام بتكيُّفه مع الواقع، فإنه يظل يفكر بمشكلات مجرَّدة، وبدلاً من الاهتمام بالواقع بذاته، فإن عملياته العقلية يظل اهتمامها محصوراً في الممكن.

إن التجارب العديدة التي أجراها «بياجه» بمعاونة بعض من تلامذته، مكّنته من أن يستخلص بعض النتائج حول خصائص التفكير لدى المراهق، من أبرزها:

١ ـ إن المراهق يستطيع أن يفكر انطلاقاً من افتراضات مجردة.

٢ ـ يتوصل المراهق إلى منطق القضايا (Logique des propositions) التي تسمح بالتفكير الافتراضي ـ الاستدلالي (Hypothético - de´ductif)، أي القدرة على مزج قيم حقيقية، أو خطأ القضايا المتخذة كفرضيات واستخلاص نتائجها الممكنة.

٣ ـ التمييز بين الشكل والمحتوى في العمليات العقلية، واعتبار الأواليات الشكلية في التفكير كأدوات تصلح لجميع الأفكار.

٤ ـ القدرة على استخدام عمليات من الدرجة الثانية، أي التوصل إلى عمليات عقلية بالاستناداً إلى عمليات عقلية أخرى، أو التوصل إلى افتراضات انطلاقاً من افتراضات أخرى.

٥ ـ إمكانية المزج في العمليات الشكلية: تضمين الواقع في الفرضيات أو في الممكن، وتضمين الممكن في الواقع.

وينتهي «بياجه» إلى اعتبار أن نشوء التفكير المنطقي لدى المراهق مرهون بنمو

الجهاز العصبي، وبتوافر ظروف بيئية ملائمة. لذلك فإن تغيرات التفكير لدى المراهق لا تحدث إلا من خلال الاندماج في عالم الراشدين، وبالتالي فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة المراهق العاطفية، والمشاركة الفعلية في الأفكار والمبادئ والمثل العليا للبيئة الاجتماعية.

والمراهق الذي يشعر بقدرته في التفكير يميل إلى المبالغة في أحكامه، ويصبح كل شيء ممكناً، وتبدو الأمور سهلة أمامه، كون النظريات التي يبنيها بفرح ولذة ليس من الضروري التحقق منها في الواقع.

تأثير العاطفية في التطور العقلي

يمكن اعتبار العاطفية المحرك الأساسي في التطور العقلي. فالدافعية إلى العمل، والرغبة في التعلم والمعرفة تقومان على مشاعر إرضاء الذات أو إرضاء الآخرين. فالمراهق مدفوع إلى تأكيد ذاته ككائن مستقل، وإلى مساواة نفسه بمن يحيطون به. والعلاقات الوثيقة بين النمو العقلي والنمو العاطفي تبدو بوضوح في حالات التأخر أو الصعوبات العاطفية. والعائلة التي تقيِّم نشاطات المراهق العقلية أولا تُقيّمها، تؤثر في مشاعره لجهة تنشيط الدافعية أو تثبيطها.

إن التفسير الخرافي للعالم لدى الطفل يصبح تفسيراً موضوعياً لدى المراهق.

إن الواقعيةَ المتطرفة وعدم إمكانية التفكير الاستدلالي هما من خصائص النشاط العقلي الطفلي: ففي عمر يقارب من ـ ١٤ سنة «يبتدئ التفكير لدى المراهق بالاستناد إلى تفسيرات ذاتية متتابعة» كما يقول «جمالّلي» (Gemelli)[١٥]. فهذا العنصر الذاتي يكوِّن العنصر المسيطر حتى أنه يمتزج بمعطيات الواقع وأحياناً يغطيها وصولاً إلى إخفائها. فالصور البصرية والسمعية المتأتية من الذاكرة تعرض نفسها على عقل المراهق بقوة حتى أنها تعطي وهماً بالحقيقة.

---

١٥ - GEMELLI A. et ZUNINI G.: Introduzione alla psicologia (Souatà Editrice Vita e Pensiero).

فهذا التفسير الذاتي للعالم يبدو أنه يحلُّ محل التفسير الخرافي والسحري لدى الطفل. والذاتية لدى المراهق هي نتيجة المتطلبات العاطفية وليست، كما كانت لدى الطفل، نتيجة جهله بالواقع.

وعامل آخر مهم في تطور الذكاء لدى المراهق هو ما أطلق عليه «دبس» (Debesse) اسم الغرابة[١٦] في حياة المراهق، إضافة إلى الانطوائية كون المراهق لم يتعود بعد على المعالجات العقلانية، ونتيجة للضرورة في مجابهة مشكلات انفعالية جديدة، ولحماية نفسه التي أصبحت مكشوفة وغير آمنة في الوقت نفسه. والتطور العقلي يدفع بالمراهق إلى طموحات جديدة، وتغير في مثال ذاته الذي يبتعد شيئاً فشيئاً عن المثال الذي يُعجب به ولا يمكنه تحقيقه في صورة ما. فهذا المثال يصبح صورة مجرَّدة مبنيَّة على الرغبة والعقلانية. فيبدأ بالكف عن العيش في عالم مُثُله الخيالي بل يقترب من الواقع. ولكن هذا الاقتراب يصطدم بقصور الإمكانية لديه في تحقيق ما يأمله.

فالنمو العقلي والنمو العاطفي مرتبطان ببعضهما بعضاً. وفي هذا السياق يمكن مقارنة وجهتي نظر كل من «فرويد» و«بياجه» في دراسة المراهقة.

فبينما يرى «فرويد» أن المراهقة هي مرحلة الثورة الجنسية ـ العاطفية، فإن «بياجه» يعتبرها مرحلة الثورة العقلية ـ المعرفية. وبينما يؤكد التحليل النفسي على بلوغ الجنسية الراشدة التي تطبع ظواهر الحياة العاطفية في البلوغ، يؤكد «بياجه» أن البلوغ الجنسي ليس إلا مظهراً صغيراً من مظاهر المراهقة، وأن الثورة الحقيقية تحدث، في هذه المرحلة، على المستوى الفكري.

وتختلف المستويات لدى كل من «فرويد» و«بياجه»: إن «بياجه» يؤكد على طريقة اجتماعية في التفكير قابلة لعملية الاتصال توجهها الحاجة إلى التكيف مع الآخرين ألا وهي طريقة التفكير المنطقي، بينما يركِّز «فرويد» اهتمامه على ما هو

---

١٦. الغرابة أو أزمة الغرابة. Crise d'originalite.

أعمق، ألا وهو التفكير الحميم غير القابل للتواصل، ولكنه يؤثِّر في التفكير المنطقي وشكل تعبير هذا التفكير. إن «فرويد» يؤكد على أهمية الطاقة العاطفية والغريزة الجنسية اللتين تعطيان التفكير الطاقة الضرورية لعمله.

الأسباب التي تعيق النمو العقلي

أن النموّ العقلي يتأثر بالتعلم، وهو متلازم مع درجة الثقافة والصلة بالحضارة، وما تتيح له من فرص للاكتساب. ولكن ظروف الحياة قد توجد مواقف من شأنها أن تعيق النمو الطبيعي للذكاء. فإلى جانب أنواع النقص العضوي أو التخلف الوراثي، فإن هناك أسباباً عديدة تجعل الوصول إلى البناء العقلي الصحيح أمراً صعباً أومستحيلاً. من هذه الأسباب:

١ ـ **الحرمان الحضاري**[١٧]: «الأفراد الذين يعيشون في بيئات محلية منعزلة عن الينابيع الحضارية الكبرى في المجتمع ... لا يتيسر لهم إلا الحصول على درجات منخفضة في اختبارات الذكاء واختبارات التحصيل المدرسي.

٢ ـ **اتجاهات سلبية**: إذا كان انعدام الفرصة هو السبب الوحيد للقابلية المنخفضة في النواحي الدراسية، كان المحتمل إصلاح هذا النقص بصورة لا بأس بها من طريق إتاحة فرص جدية مضاعفة، أو تمرينات علاجية كافية في المدرسة. على أن كثيراً من المراهقين يكونون ضحايا سنوات من التأثيرات السيئة والفشل في الأعمال المدرسية. لذلك تسوء عندهم الاتجاهات السلبية، فنجدهم قد كوَّنَوا لأنفسهم صورة قاتمة ومستوى منخفضاً للطموح، مما يستبعد معه أن يكون للبرامج المدرسية العادية تأثير كبير عليهم.. المعلوم أن القدرات العقلية الجيدة لا تنمو إلا إذا توافرت الدوافع القوية والاتجاهات السليمة.

٣ ـ **الإهمال وسوء الرعاية**: إن أطفال مؤسسات الرعاية، والأطفال الذين لا

---

١٧ ـ سيكولوجية المراهقة للمربين: تاليف بلير وجونز ـ الترجمة العربية (ترجمة د. أحمد عبد العزيز

يجدون في بيوتهم إلا الإهمال الشديد، والذين يعيشون حياة منعزلة عن غيرهم من الأطفال والراشدين، والذين تقع عليهم العقوبات القاسية، قد يتعرضون لدرجة من الاضطراب بحيث يعجزون عن التعلُّم...».

بعض مظاهر القدرات العقلية لدى المراهق

أ ـ التخيل: رغم أهمية التخيل في المراهقة وحيث أن الاهتمامات الفنية تزداد في هذه المرحلة (الشعر، القصص، الأغاني، الرسوم)، فإن الدراسات العلمية قليلة جداً، ولم يوضع مقياس خاص لقياس التخيُّل لدى المراهقين، إنما تُستعمل عادة لقياس التخيل، طرق مقارنة الرسوم الحرة أو ذات الموضوع المحدَّد ذاته لدى الأطفال والمراهقين، ووسائل تكملة الجمل أو رواية القصص حول موضوعات طبيعية تخيُّلية، ومنها ما يقرب من الروائز الإسقاطية: رائز T.A.T أو روشاخ.

إن التجارب التي أجريت على بعض الفتيات بين ١٠ ـ ١٤ سنة أظهرت أن نصفهن تقريباً يروين قصصاً شائعة ذات أسلوب واقعي، ونصفهن الآخر يُظهرن بعض القدرة على التخيل. فالقلة القليلة منهن يُظهرن كثيراً من التخيُّل الإبداعي.

إن مثل هذه التجارب وغيرها سمحت باستنتاج أن التخيل يتوقف على نمط الشخصية، بقدر ما يتوقف على خصائص المراهقة بذاتها، بمعنى أن المراهقة تسمح بظهور القدرة على التخيل بالحدود التي يتوفر فيها للمراهق الاستعداد لذلك.

وفي تجارب أخرى وُجد أن الأفراد يختلفون في نقاط ثلاث:

١ ـ إن الأطفال يؤكدون على الحركة والفعل، بينما يؤكد المراهقون على العواطف والأفكار لأبطال القصة.

٢ ـ بينما الأطفال يظلون في حدود الموضوع الرئيسي، نجد أن المراهقين يدخلون الكثير من التجميل والإضافات الفنية.

٣ ـ أسلوب الأطفال رتيب، بينما أسلوب المراهقين يتصف بالكثير من التغير والتأرجح في اللهجة والنبرة الانفعالية.

إن بعض الدراسات تذهب إلى القول إن الاستعداد للتخيل الإبداعي هو الذي يحدِّد درجة التخيل أكثر مما تحدِّده المراهقة بذاتها وإن الأشخاص الذين يتمتعون بهذا الاستعداد يظهرونه أثناء المراهقة. ولكن هذه الدراسات لا تأخذ بالاعتبار الحياة الانفعالية للمراهق، والمآزم النفسية التي يتعرض إليها، ووضعه الاجتماعي - الاقتصادي، ونمط شخصيته:

- الشخصية المنطوية أكثر ميلاً إلى التخيل من الشخصية المنبسطة.

- المآزم الانفعالية تؤدي إلى تذبذب الخيال من الغنى المفرط إلى الفقر المفرط.

فهنا تتداخل عمليات نفسية وأواليات دفاعية (الجانح والعصابي) والهروب من الواقع والهروب إلى الخيال.

- درجة الذكاء ونوعه (عملي - لفظي...) وعلاقته بالتخيل الإبداعي.

- الوضع الاقتصادي - الاجتماعي: الطبقة الشعبية والطبقة البورجوازية الصغيرة:

المراهق العامل والذكاء العملي، والمراهق البورجوازي والذكاء المجرد والتخيُّل.
في كل الأحوال يلاحظ أن للتخيل وظائف أساسية أهمها الابتعاد عن الواقع بغية السيطرة عليه، والتحكم في معطيات الواقع الداخلي والخارجي (أحلام اليقظة لدى المراهقين).

ب - **التذكر:** إن تطور القدرات العقلية لدى المراهق تنعكس على قدرته في الحفظ واستيعاب المعلومات وحفظها لمدة طويلة. وتتميز قدرة المراهق في التذكر والحفظ عن قدرة الطفل بأنهما قائمان على الإدراك والفهم.

ج - **تطور الاتجاهات والقيم:** من أهم نتائج التطور العقلي لدى المراهق، إخضاع القيم والتعاليم التي يتلقاها إلى حكم العقل. فهو لم يعد يتقبل ما يفرض عليه فرضاً، بل يحاول أن يخضع قيم الأهل والمجتمع لموازين الواقع الذي يعيشه، ولمحكات قدراته العقلية.

ونتيجة لاتساع مصادر المعرفة لدى المراهقين، وتركيزها على أساس الأحكام العقلية والمنطقية، تتخذ اهتمامات المراهقين اتجاهات مختلفة، وتتناقص الاهتمامات المدرسية نتيجةً لتزايد الاهتمامات الاجتماعية والجنسية، وتطلعاتهم المستقبلية (المهنة والزواج). ويتصف الحسُّ الخلقي لدى المراهقين بالوضوح والجديَّة والدغماطيقية، ويتخذ تماهيه توجهاً جديداً، فيلاحظ أن المراهق يميل إلى التماهي بالراشدين والأشخاص المرموقين في المجتمع والناجحين وذوي الجاذبية الذين يشاهدهم في وسائل الإعلام المرئية، أو يسمع عنهم في الوسائل المقروءة.

القسم الثاني

الأسباب العميقة لأزمة المراهقين العاطفية

الفصل الرابع

أولاً ـ المسألة الجنسية واضطراباتها

١ ـ العوامل التي توصل الكائن إلى الهوية الجنسية

أ ـ أثر الحياة الجنسية في الطفولة على الذكورة والأنوثة

- المرحلة ما قبل ـ الأوديبية
- المرحلة الأوديبية: الدينامية الأوديبية

ب ـ أثر الأسرة وموقف الوالدين على أزمتي الذكورة والأنوثة

- العلاقة بين الزوجين
- البلوغ العاطفي على مستوى الوالدين
- الأخوة والأخوات وأثرهم في الذكورة والأنوثة

ج ـ أثر الطبقة الاقتصادية ـ الاجتماعية

- المجتمع العشائري
- المجتمع الريفي
- الطبقات المتوسطة
- الطبقات العليا
- المجتمع الاستهلاكي

٢ ـ مظاهر الحياة الجنسية في المراهقة

- الغزل
- الرقص
- السيارة
- الحب والغرام

٣ ـ الاضطرابات الجنسية

أ ـ القلق الجنسي والآواليات الدفاعية

ب ـ الانحرافات الجنسية

- الاستمناء أو الخضخضة
- الجنسية المثلية

المسألة الجنسية واضطراباتها

إن الجنسية لدى الإنسان ليست ظاهرة بيولوجية فقط (نضج الأعضاء التناسلية والوصول إلى الوظيفة التناسلية)، بل هي أيضاً ظاهرة تصاحَب بانهيار الحياة النفسية نتيجةً لهذه الشحنات القوية والجديدة التي يجب أن تنصهر في «الأنا» بحسب توجهات المجتمع وفروضه. فإلى جانب النضج البيولوجي هناك نضج نفسي ـ اجتماعي. والفارق الزمني بين هذين النوعين من النضج، كون الأول يسبق الثاني، يشكل مصدراً لصراعات عديدة تجد حلاً لها بطرق مختلفة تبعاً لوضعية كل فرد.

فيمكن، من خلال هذا المنطلق، القول إن الجنسية لدى الإنسان تتوقف على تكوينه من جهة، وعلى ثقافته وتربيته وخبراته الشخصية من جهة أخرى.

لا شك أن الشحنات الجنسية تلعب دوراً مهماً في انهيار المراهق العاطفي، خصوصاً في حضاراتنا الدينية السائدة حيث تُفرض على الفرد حدودٌ جنسية صارمة. إن هذه الحدود تتخذ شكلين رئيسيين: أولاً المنع أو المحرَّم الأخلاقي، وثانياً منع العلاقة الجنسية خارج إطار الزواج.

ويطبع الفرد بهذه الحدود عند طفولته بواسطة القوانين الأخلاقية والاجتماعية. وهذه الموانع تتخذ مظهراً واضحاً خصوصاً لدى المراهقين. فجميع المظاهر الصراعية والعُصابية لها الأسباب نفسها: الصراع بين النضج الجنسي الذي يولد الحاجة الفيزيولوجية، وعدم الإمكانية المادية والنفسية في تحقيق المشروعية القانونية والأخلاقية التي يفرضها المجتمع للنشاط الجنسي، أي الزواج.

فالمراهق في المجتمعات المعاصرة واقع في مأزم وجودي وليد الإفراز الحضاري. إذ كيف يمكن في مجتمع منفتح كلياً على القضايا الجنسية (الإعلام،

السينما، المجلات...) أن يتبع المراهقون النهج والطريق اللذين تفرضهما القوانين الاجتماعية والأخلاقية؟

يمكننا أن نذكر هنا طرح الإشكالية الجنسية من قبل أحد المراهقين أثناء جلسة نقاش حول قضايا الشباب، إذ قال: «إذا شاهدت مسرحية فكاهية أستطيع أن أضحك، وإذا شاهدت مسرحية دراماتيكية أستطيع أن أبكي، وإذا استثار غضبي أمرٌ ما أستطيع أن أصرخ... ولكن إذا شاهدت مسرحية تستثيرني جنسياً، فماذا يمكنني أن أفعله؟».

اليوم يمكن القول إن «التابو» الجنسي قد انهار. ولم يعُد الجنس موضوعاً ممنوعاً أو محرماً. إذ إن كل ما يحيط بعالمنا يُقَولب في قالب جنسي. وأصبح الجنس مادة رائجة في كل المسائل وموضوع نقاش بين أفراد المجتمع.

فالمراهقون يقفون حائرين أمام هذه المسألة التي تُفرض عليهم فرضاً: إنهم قلقون يريدون إجابات واضحة، ويبحثون عن قواعد وأسباب تزيل عن كواهلهم ما يشعرون به من توتر وصراع.

فإشباع النزوات الجنسية يولد لديهم صراعاً أخلاقياً، لأن الإشباع المشروع ليس ممكناً، ولأن الزواج هو أمر مستحيل، اقتصادياً، في هذه المرحلة.

وعدم إشباع النزوات الجنسية يولِّد صراعاً نفسياً، لأن الطاقة التي أصبحت مهيأة بفعل نضج الحياة الجنسية لا يمكنها أن تصرف في عمل جنسي، فتكبت وتخلق في المتعضى توتراً شديداً.

من هنا إذن، أهمية الحياة الجنسية في حياة المراهقين، فهي أحد الأسباب العميقة لأزمة المراهقة العاطفية.

والجنسية تعتبر سبباً أساسياً في تحقيق هوية المراهق، فهي التي تحدِّد الهوية الراشدة، وهي التي تحدد أيضاً ذكورة الفرد أو أنوثته، إلى جانب الدلالات والأدوار الاجتماعية الذكورية والأنثوية التي تلعب دوراً كبيراً في تعيُّن هوية الفرد الجنسية.

يعتبر «فرويد» أن النضج الجنسي هو عملية فيزيولوجية ونفسية، وطرق التربية الجنسية تختلف بحسب الجنس ذكراً كان أم أنثى. ويرى أيضاً أن الجنسية لا تبدأ مع البلوغ، بل تبدأ في أثناء الطفولة انطلاقاً من مراحل تطور «الليبيدو» : المرحلة الفمية والمرحلة الشرجية والمرحلة القضيبية التي يتبعها مرحلة الكمون ثم البلوغ(1).

فالسؤال الذي يمكن طرحه في هذا السياق: ما هي العوامل التي توصل الفرد إلى هويته الجنسية»؟ غالباً ما تحدَّد هذه العوامل من خلال منطلقات أهمها: الحياة الجنسية في الطفولة وأثرها على الذكورة والأنوثة، وكذلك أثر الطبقة الاجتماعية ـ الاقتصادية.

العوامل التي توصل الكائن إلى هويته الجنسية الذاتية

أولاً ـ أثر الحياة الجنسية في الطفولة على الذكورة والأنوثة في المراهقة

١) ـ المرحلة ما قبل الأوديبية

تتحدَّد جنسية الطفل في مراحل الحياة الأولى من خلال عاملين أساسيين:

أ ـ العامل البيولوجي أو التمايز العضوي بين الطفل الذكر والطفل الأنثى. فالاختلافات الظاهرة للأعضاء التناسلية هي التي تعيِّن انتماء الفرد إلى جنس دون جنس آخر.

ب ـ الدلالات النفسية والأدوار الاجتماعية: إن إعطاء الطفل اسماً خاصاً، والنظر إليه ككائن ينتمي إلى إحدى الفئات، هي من الدلالات على صفة هذا الكائن الذكرية والأنثوية: فهو صبي أو فتاة، وسيصبح كأبيه أو كأمه، رجلاً أو امرأة.

٢) ـ المرحلة الأوديبية

إن تمثل الطفل لذاته أو لهويته في المرحلة الأوديبية، يتوقف إلى حدٍّ بعيد على

١ـ FRÉUD S.: Trois essais sur la théorie de la sexualité (coll. Idés). -

تمثل الأهل له. فالطفل في عمر يراوح بين الثالثة والسادسة، يقلِّد بشكل مفصَّل الأشخاص الذين ينتمون إلى فئته ويرفض أدوار الجنس الآخر ونشاطاته. فالجنس لا يُعرف كاختلاف جنسي محض، إذ إنه في مجتمعاتنا، على عكس المجتمعات البدائية، يلبس الناس الثياب ولا يظهرون عراة أمام الأطفال، لذلك، فإن تميز الذكور عن الإناث يتم من خلال مظاهر أخرى يمكن إيجاز بعضها:

١ ـ المظهر الخارجي: قصر الشعر، ووجود الشارب واللحية لدى الرجال، أما النساء فإنهن يرسلن شعرهن عادة، ولا يظهر الوبر على وجوههن.

٢ ـ الأدوار والنشاطات: الرجال يذهبون إلى العمل خارج المنزل، وهم الذين يأمرون ويقودون السيارة عادة، والنساء يلزمن البيت ويقمن بالأعمال المنزلية، اضافة الى الاهتمام بالأولاد.

٣ ـ اختلاف الطبع: هو عامل أقل عمومية من الصفات الأخرى. فالأنماط الذكورية والأنثوية هي:

ـ الرجل سلطوي يأمر ويقود ويعاقب ويضرب.

ـ المرأة تخضع وتحاول الإغراء، وهي أكثر ميلاً لمداعبة الأطفال من الرجل.

والطفل في تقليده الوالد من نفس الجنس، وبلعب أدواره، يُظهر على أنه منجذب به كنموذج يمثل ما سيصبح عليه في ما بعد (الصورة المثالية عن ذاته). فيأخذ الأب، بالنسبة للصبي، شيئاً فشيئاً أهمية متزايدة: فهو يريد أن يكون مثله، وأن يحلَّ محله، وينظر إليه بإعجاب واعتزاز. إن الطفل بتماهيه بالوالد من نفس جنسه يجتاف سمات الطبع التي يتصف بها، ثم يميل إلى إعلان ذاته من خلال صفاته الذكورية.

وكذلك، فإن علاقات الفتاة تتطور، فتقوم بتقليد أمها ولعب دور ربة المنزل. ولكنها، من ناحية أخرى، تحاول أن تجسِّد مشاعرها تجاه نموذجها، فيأخذ الأب بنظرها أهمية خاصة، وتحاول أن تسترعي انتباهه لذاتها من خلال اتجاهات أنثوية، وتصبح كثيرة الإحساس لما يصدر عنه تجاهها من مديح أو توبيخ.

الدينامية الأوديبية

١ ـ عند الصبي (٣ـ٦ سنوات تقريباً)

إن تعلق الصبي بأمه، الناتج عن تعلقه المادي والعاطفي، يتحوَّل إلى تعلق غُلمي،[٢] فيُظهر عن اتجاه تملكي نحوها وأحيانا اتجاه الحماية. لكنه يصطدم بخصومة الأب ومركزيته في العلاقة مع الأم، مما يؤدي إلى بروز عدوانية تجاه أبيه يعبِّر عنها، على المستوى الهوامي، برغبة موته. ولكن هذه المشاعر تمتزج بمشاعر أخرى كالاعتزاز والاعجاب بالأب لأنه النموذج لتماهياته. وينتهي الصراع بين المشاعر بكبت الرغبات المحرمة لديه.

ويتخطى الصبي الأوديبية بتنازله عن الرغبة الغُلمية المحرَّمة تجاه الأم. ولأجل ذلك يلجأ إلى أواليات دفاعية، منها:

ـ إزاحة الرغبة المحرَّمة إلى موضوع أقل تحريماً (أخت، فتاة صغيرة، كائن وهمي...).

ـ تعزيز تماهيه بأبيه بتكوين صورة ذكورية عن ذاته. فهو يريد أن يكون قوياً وأن يصبح رجلاً!... ويرفض الأنوثة... هذا التماهي يتطلب وجوداً نفسياً للأب، وانعدام سيطرة الأم.

ـ تمثُّل قانون الأب بالانصراف عن المحرم واجتياف موانع الأب، أي الاحتماء بالأب تجاه خطر المحارم.

إن كبت الأوديب يكوِّن منعطفاً في تطوُّر الطفل العاطفي، فيدخل مرحلة الكمون.

٥ ـ عند الفتاة

تمر الفتاة بتطور مشابه، ولكنه معكوس: توجه رغباتها نحوَ أبيها وتتماهى بأمها، وتصبح في الوقت نفسه غريمة لها.

---

٢ ـ غُلمي: Erotique.

إن الفتاة، بحسب نظرية التحليل النفسي، تعيش مرحلة الأوديب من خلال سيطرة القضيب وامتلاكه أو عدم امتلاكه. ففقدان هذا العضو الذكري يخلق لديها الشعور بالنقص والدونية، وتلقي عبء أو مسؤولية هذا الحرمان على أمها. فتتوجّه عندئذٍ بحبها نحو أبيها وبعدوانيتها نحو أمها.

وكما بالنسبة للصبي، فإن تصفية الأوديب والخروج من صراعاتها يتم:

- بالانسلاخ عن الرغبة المحرّمة وإزاحة العاطفة نحو شخص آخر واقعي أو هوامي.

- بتعزيز التماهي بالوالد من نفس الجنس مع اجتياف أدواره وقِيَمَه وتمثُّلها.

إن اختلاف المشاعر الأوديبية يتوقف على اختلاف اتجاهات الأهل ومواقفهم من جهة، وعلى العلاقات العاطفية بين الزوجين من جهة أخرى. فالأم التي فقدت أملها بزوجها تحول عاطفتها نحو ولدها الذي يصبح بدوره شديد التعلق بها وشديد العدوانية نحو أبيه.

ثانياً: أثر الأسرة وموقف الوالدين على أزمة الذكورة والأنوثة

إن أثر الأسرة على أزمة الذكورة والأنوثة، وموقف الوالدين منهما، يتبلوران من خلال جو الأسرة عامة، ووظيفة الجنس فيها وأي مكانة يعطى لها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ماهية العلائق السائدة في الأسرة بين الآباء والأبناء خاصة، ونوعية هذه العلاقات، بمعنى أنها علاقات تسامح أو علاقات تحفظ وتزمت. فالأسرة التملكية تقاوم الجنس كدليل على محافظتها على التقاليد والأعراف، من خلال التفاخر بإمكانية فرض سلطتها على أبنائها. فهي تعمل على تخويف المراهق من هويته الجنسية مما يؤدي إلى تفجير صراعاته وأزماته. وربما كمن وراء هذا الموقف، شعور الأهل بانفصال الأبناء عنهم لأن الوصول إلى مرحلة المراهقة دليل على القطع بين الولد الذي كان حتى البلوغ ملكهم، يخضع لإرادتهم، فيعيشون الحياة الجنسية لدى المراهق كانفلات للمراهق من سيطرتهم وعجزهم عن فرض هيمنتهم عليه. تتوقف هذه العلاقات ضمن الأسرة على عوامل عديدة منها:

١ ـ العلاقة القائمة بين الزوجين

إن العلاقة العاطفية والجنسية الناضجة والمنسجمة بين الزوجين، تسهِّل عملية المرور إلى الرشد من خلال تقبل ذكورة الصبي وأنوثة الفتاة والاعتراف بهما. بينما العلاقة العاطفية والجنسية المصدودة والمحبطة تعيق عملية الوصول إلى الرشد الجنسي، وتعمل على تفجير صراعات المراهق. فالأم المقموعة والمحبطة عاطفياً تفتش عن متنفس لها من خلال إقامة حلف مع ابنها الأكبر ضد الأب، فالإبن يصبح البديل الذي تملكه. إن مثل هذه الدينامية العلائقية شائعة في الأسر المفككة. أو أن الأم قد تتحالف مع البنت في جبهة نسائية ضد عالم الرجال.

كذلك يمكن القول عن تحالفات الأب: فهو قد يتخذ من الإبن الأكبر حليفاً له ضد عالم النساء، أو قد يتحالف مع ابنته متخذاً موقفاً نابذاً من الأم.

إن جميع هذه الأشكال من العلاقات تثير المشكلة الأوديبية لدى المراهق بدلاً من مساعدته للوصول إلى النضج العاطفي ـ الجنسي السليم، لأنه يُستخدم كأداة في الصراعات الزوجية. إن الحل السليم يتوقف على رؤية صحيحة لحقيقة المراهقة ومطالبها. فالأهل بدلاً من أن يتسابقوا في الفوز برضى ولدهم والاستئثار بحبه، يجب أن يتناصروا في ما بينهم ويتقاسموا أدوار التسامح والتشدُّد والتأييد والمعارضة.

٢ ـ البلوغ العاطفي على مستوى الوالدين

أ ـ الأم والبلوغ العاطفي: إن تكوين شخصية الأم يلعب دوراً مهماً في الدينامية العلائقية في مرحلة المراهقة. فالأم الناضجة عاطفياً تتخذ موقفاً هادئاً إزاء مراهقة أبنائها. فهي تفتخر وتعتز بذكورة أبنائها وانوثة بناتها، وتعترف باستقلاليتهم. أما الأم التي لم تتمكن من الوصول إلى النضج العاطفي، فإن مرحلة بلوغ أولادها تشكل أزمة تفجِّر العديد من صراعاتها: تفجير القلق الجنسي والنوازع الجنسية تجاه المحارم والتصادم الصراعي.

وتعيش الأم المحبطة البلوغَ لدى أبنائها بشكل مقلق نتيجةً لتضخيم النزوات

الجنسية لدى المراهق في وعيها، فترفض هذا البلوغ وتنبذه ولا تعترف به. وقد يكون من نتائج هذ الموقف من قِبَل الأم، وخوفها المفرط، وقوع الإبن في ما تخاف منه.

إن موقف الأم هذا قد يكون عاماً، أو تتوزع الدوافع المتعارضة بين الأبناء، فمثلاً:

ـ قد تشعر بافتخار بذكورة الصبي يقابله ذعر من أنوثة الفتاة أو بالعكس.

ـ وقد تشعر، باعتزاز، بذكورة البكر يقابله ذعر وقلق من ذكورة الصغير.

ـ وقد تقبل بالاستقلالية الجنسية والاعتراف بها لبعضٍ من أولادها وتبقي أحدهم طفلياً في علاقة تملكية.

ـ وقد تتَّخذ معاملتها لولد من أولادها معاملة خاصة: فهي قد تصبُّ النقمة على أحدهم وتسحق ذكورته أو أنوثته، بينما تعمل على إعلاء شأن الآخرين.

ولا شك أن أثر دوافع الأم وموقفها من البلوغ يتوقفان على أمور كثيرة أبرزها:

ـ موقف الأب ونوع الرابطة القائمة بينها وبينه.

ـ وموقف المراهق نفسه، لجهة رضوخه لرغبات الأم أو مقاومته لها تبعاً لقوة بنيته النفسية، ووسائله الدفاعية، والانتماءات البديلة التي تحميه وتعترف بذكورته أو أنوثته مثل جماعات الأخوة والأخوات أو الجماعات خارج الأسرة.

ب ـ الأب والبلوغ العاطفي: إن ديناميات العلاقة بين الأبناء والآباء تتشابه إلى حد بعيد بديناميات العلاقة مع الأم.

فالأب الذي تخطى مراهقته من خلال النضج العاطفي السليم يتخذ موقف المساعد لولده المراهق كي يتمكن من الوصول إلى هويته الجنسية. وهو يشعر بالافتخار والاعتزاز بذكورة الإبن أو أنوثة الإبنة، ويحميهما من الأزمات بتقديم السند والدعم المعنوي لهما. وقد يكون، بطريقة غير مباشرة، الرادع لهما من رغبات

الأم المضطربة. أما الأب الذي لم يتوصل إلى نضجه العاطفي والجنسي، فإن بلوغ أبنائه يستثير لديه اضطرابات المرحلة الطفلية وصراعاته مع أبيه وأمه، ويشكل عاملاً قوياً في إثارة قلقه والشعور بعجزه وفقدان السيطرة على أبنائه، فيدفع ذلك به إلى التزمت والتشدُّد في مواقفه، أو على العكس إلى التراخي المفرط والاستقالة والتنازل عن سلطته ووظيفته كأب.

وكما رأينا في موقف الأم، فإن هذا الموقف من جانب الأب قد يكون موقفاً عاماً أو موقفاً موجهاً إلى جنس دون جنس آخر: فهو عادة ما يكون تحيزاً للذكور ضد الإناث، أو تحيزاً مع الإناث، كموقف يتخذ شكل إمكانية التفاهم وإمكانية السيطرة عليهن. وقد يتخذ في معاملته مع أولاده إما موقف التشدد مع أحدهم، لما له من دلالة في لاوعيه، وإرادة تحطيمه (مثلاً الولد البكر الذي يذكِّر بالأب) وإما شكل التحالف مع إحدى بناته ضد الأخريات.

وهنا أيضاً يمكننا القول إن تأثير هذه الدوافع يتوقف على عدة أمور منها:

- موقف الأم ومدى وزنها النفسي وحضورها.
- بنية الروابط التي تربط الزوجين أحدهما بالآخر.
- بنية المراهق النفسية وأوالياته الدفاعية.
- الانتماءات البديلة المتوافرة للمراهق، والتي تؤمن الاعتراف والقبول والحماية.

ج - الأخوة والأخوات وأثرهم في الذكورة والأنوثة

يمكن القول، بشكل عام، ان قلة الأولاد تزيد من صعوبة الوصول إلى الهوية الجنسية لأنه، وكما تبيِّن الدراسات حول سيكولوجية الإبن الوحيد، فإنه يستقطب جميع صراعات الأهل. وكذلك تصعب عملية البلوغ الجنسي والعاطفي لدى الإبن أو البنت البكر لأمرين:

أولاً: زيادة التوظيف النفسي فهو أكثر الأولاد تعرضاً لأنه مرَّ بتجربة الاستئثار بالعاطفة.

ثانياً: مسألة التدريب والخبرة من قبل الأهل، والتشدد في سلم المسموحات والممنوعات.

أما الولد الوسط فإن احتمال سهولة البلوغ عنده كبيرة لوقوعه بين جيلين: جيل الكبار الذين يتماهى بهم، وقد يدعمونه في معاناته لبلوغ هويته الجنسية، وجيل الصغار الذين يستثيرون لديه الحماية والرعاية، مما يُسهِّل عليه الوصول إلى النضج المبكر.

وأخيراً الولد الصغير الذي هو موضوع الاهتمامات والامتيازات. فمسألة بلوغه النضج الجنسي والوصول إلى ذكورته أو أنوثته تتأرجح بين الصعوبة والسهولة، فإذا تدخل أحد الأخوة أو الأخوات الكبار لدعمه والتعويض عن معاناته، فإن عملية المرور إلى النضج تكون سهلة. أما إذا وقع تحت تهديد الإمحاء من الأخوة والأخوات الكبار، فإن عملية وصوله إلى الهوية الجنسية تصادف صعوبات كثيرة.

ولكن هذه المواقف جميعاً تتداخل فيها اعتبارات متعددة تتحكم فيها شخصية المراهق نفسه، وموقفه من عملية البلوغ، ونظرته إلى مطلب الهوية الجنسية، وعلاقاته بالأسرة وأفرادها. فإما أن يجعل المراهق من مسألة البلوغ عبارة عن تحررجنسي وثورة واحتجاج على الأهل، لمواقفهم من هذه المسألة، أو لتفضيلهم أحد الأخوة في المعاملة، وإما أن يبقى في وضعية طفلية لإرضاء الوالدين في حالات التنافس بينه وبين الأخوة والأخوات.

وفي النهاية، فإن موقف الأهل وتفضيلاتهم الواعية واللاواعية، هو الذي يحدِّد مصير معركة الذكورة والأنوثة على مستوى المرتبة في الأسرة، والوضع ضمن جماعات الأخوة والأخوات.

ثالثاً: أثر الطبقة الاقتصادية ـ الاجتماعية

إن المسألة الجنسية ترتبط بمكانة المراهق في كل طبقة من الطبقات الاجتماعية، كما ترتبط بمكانته في الأسرة.

إن اختلاف نظرة المجتمع والطبقة التي ينتمي إليها المراهق، لهما تأثير في تسهيل وصوله إلى النضج أو إعاقة هذا الوصول، واكتساب هويته الجنسية. وهذا الاختلاف يتجسّد في طبيعة العلاقات التي تسود المجتمعات المختلفة، وتتحكم في نوعية ومستوى المرجعية التي تنظم علائقية الأفراد بعضهم ببعض. فتنوُّع أنماط المعيشة له أثر في التنوع والتجانس في الهوية الجنسية.

ففي إطار الاندماج الاجتماعي، الذي هو في أساس تحديد الهوية عند الفرد، نلحظ أنماطاً من الطبقات الاجتماعية لها أطرها الخاصة وتفرُّدها في النظر إلى الفرد في مرحلة المراهقة، وفي مساعدته على تخطي حدود الطفولة والوصول إلى مرحلة النضج الجنسي والرشد.

١ ـ **المجتمع القبلي**: هو مجتمع يتصف بنمط معيشة خاص يقوم على العصبية والروابط الدموية، وغلبة روحية الجماعة على الفردية. ففي هذا الإطار تنتظم الحياة وتتّحد العلاقات بموجبات الأعراف والتقاليد.

فالمجتمع القبلي هو مجتمع تقليدي، المرجع فيه للكبار والماضي والقديم، وهو مجتمع أبوي وذكوري حيث المرأة هي ملكية القبيلة وليس لها حق الاختيار، وهي لا تعاني من مشكلة المراهقة، لأنه ليس هناك مشكلة بلوغ، فالمراهق راضخ للتقاليد وحياته الجنسية ملك القبيلة.

٢ ـ **المجتمع الريفي**: هو مجتمع يتخذ نمط المعيشة فيه الارتباط بالأرض، ويتمحور التنظيم الاجتماعي فيه حول الانتماء العائلي وسيطرة التقليد العائلي. فالمراهق في هذا المجتمع هو أيضاً ملك الأسرة، وخصوصاً الفتاة. ولكن نجد هنا، على عكس المجتمع القبلي، اعترافاً نسبياً بالحياة الجنسية، وفرصاً أكبر للاختلاط بين الجنسين أثناء العمل في الحقول. ويتعلم كل من الذكر والأنثى أسرار الحياة الجنسية من النساء والفتيات والرجال والفتيان، وإمكانيات العلاقة بين الجنسين متوفرة أكثر منها في المجتمع القبلي.

٣ ـ **المجتمع الريفي النازح إلى المدينة**: هو مجتمع يقوم على تناقض بين قيم

الريف وقيم المدينة. فالمراهقون يعيشون في هذا النمط من المجتمعات النتائج التي تتأتى من ردم الفجوات التقليدية بين القرية والمدينة. فالانفتاح على قيم المدينة يؤدي إلى صراعات بين المراهقين والأهل تعرضهم لنتائج سلبية، وتشكل عوائق في سبيل الوصول إلى النضج واكتساب هويتهم. وتتعرض الفتيات إلى إغراءات المدينة والوقوع أحياناً كثيرة في الانحراف. ويتعلم الفتيان الحياة الجنسية من خلال السينما والمجلات. وارتياد البيوت السرية يبدو «كتعميد»، من قبل الكبار، على الحياة الجنسية.

فمرحلة المراهقة في هذا النوع من التنظيم الاجتماعي تطول كثيراً، مما يؤدي إلى اختلال الأدوار.

٤ ـ **الطبقات المتوسطة**: حيث يلاحظ التفاوت الكبير بين الميل إلى المحافظة والميل إلى التحرر. فهذه الطبقات هي الأكثر خلقاً لأزمة المراهقة لدى الجنسين، كما أنها أكثر الطبقات قلقاً إزاء البلوغ. فنجد أن مسألة التحريم وخلق مشاعر الذنب هي القيم السائدة فيها. وتتنازع علاقات الأهل والأبناء مشكلات الاختلاط بين الجنسين، ومسألة الخروج من البيت، خصوصاً في ما يتعلق بسلوك المراهق والمراهقة ازاء أهلهم من أجل الاستقلال والوصول إلى تحقيق الهوية الذاتية. وقد يلجأ الأهل، لصدٍّ مطالب المراهقين، إلى عمليات التخويف من الجنس والامتناع عنه.

فالحلُّ السليم لهذه الصراعات تقوم على التربية الجنسية الصحيحة كوسيلة للقضاء على القلق الجنسي لدى الوالدين والأهل عامة.

٥ ـ **الطبقات العليا**: نجد هنا نوعين من الطبقات العليا:

ـ الطبقات العليا التقليدية التي يسودها نطاق شديد من التحريم، فالعقلية السائدة فيها شبيهة بالعقلية السائدة في المجتمع القبلي.

ـ الطبقات العليا المحدثة: يغلب فيها التحرر الذي يبلغ حدَّ التَّحلُّل من القيم والأعراف. فعدم رقابة الأهل على أولادهم، وانسحابهم أحياناً من مجابهة مسؤولياتهم، يدفع بالمراهقين إلى الضياع والوقوع في سلوك طفلي، وإلى الانحراف والعنف.

وقبل أن ننتهي من هذا العرض لأثر الطبقات الاجتماعية ـ الاقتصادية، لا بدَّ من الكلام عن المجتمع الاستهلاكي الحديث الذي يمثل الصورة النموذجية للمجتمعات السائدة اليوم في البلاد النامية. فالمجتمع الاستهلاكي يشهد قمة تطور «الايروس» (Eros) (الأدب، المسرح، الأفلام، المجلات، الفيديو...) ويمكن القول إنه مجتمع عابق بالجنسية، تتعدَّد فيه فرص اللقاءات بين الجنسين: المدارس والجامعات المختلطة وأماكن العمل، وسهولة السياحة وغيرها الخ ... تجعل إمكانية العلاقات بين الجنسين أكثر شيوعية، وتتم بطريقة أسهل مما كانت عليه في السابق.

واليوم أيضاً، يمكن اعتبار الحواجز بين الجنسين والأدوار الجنسية قد انهارت.. إذ إن أدوار الأب والأم تميل إلى التدامج، فهما يعملان، في أغلب الأحيان، خارج المنزل. واصبح الأب يشارك أكثر فأكثر في الأعمال المنزلية التي كانت من اهتمامات الأم وحدها. والرجال والنساء يلبسون الثياب نفسها، ويقصون شعرهم بطريقة واحدة. ففي المجتمع الحديث إذن، أصبحت الأدوارالجنسية أكثر غموضاً، والطفل الذي يجب أن يتماهى بالوالد من نفس الجنس لم يعد أمامه إلا الاختلافات الشراحية لتميز الجنس. وتماهي الصبي بأبيه والفتاة بأمها أصبح أمراً صعباً. ففي غياب دور جنسي واضح يمثل، بالنسبة له، النموذج الذي يجب أن يتخذه، يطلب من المراهق أن يعي هويته الذاتية.

فسلوك المراهقين اليوم يتأثر بإفرازات الحضارة السائدة، وعدد كبير من الشباب يجدون أنفسهم مدفوعين إلى علاقات جنسية تحت إلحاح أسباب اجتماعية، تفوق الحاجة الملحَّة لإرضاء شحنة فيزيولوجية.

وبالرغم من كل ذلك، فإن أغلبية القيم الاجتماعية تعتبر أن الأخلاقية التي تحرِّم هي الطريق الأفضل. فالعلاقات الجنسية في مرحلة المراهقة ليست مقبولة اجتماعياً. والمراهقون يجتافون قوانين التحريم هذه، مما يؤدي إلى الشعور بالذنب لديهم بصورة واعية أو لا واعية.

ولكن الجنسية لا ينبغي النظر إليها من جانب اللذة فقط، إذ إنها ذات وقع عميق على نضج الشخصية بكاملها، وعلى سلوك الكائن في ما بعد.

فالمراهق واقع اليوم في ما يتعلق بالمسألة الجنسية بين خطرين متناقضين:

- خطر أول هو خطر الإسراع في إقامة علاقات جنسية.

- وخطر ثانٍ هو الكبت القوي للنزوات الجنسية.

إن الدراسات لا تنظر إلى الجنسية إلا من جوانبها الفيزيائية المحضة، وتنزع عنها أي صفة عاطفية. إن «الايروس» الإنساني لا يمكن حصره فقط في آلية الجسد، ولا يمكن فصل العاطفة عن الناحية الفيزيائية.

لا يمكن لأحد أن ينكر أهمية الجنس في العلاقات الإنسانية السامية. ولكن لا ينبغي، من ناحية ثانية، إنكار المظهرين الأساسيين في هذه العلاقات: الإشباع الحسي والالتزام العاطفي.

فالسؤال الذي يطرح هو: هل يجب تزويد المراهقين بثقافة جنسية؟

إن السؤال، في ظننا، قد جاء متأخراً. فالثقافة الجنسية أصبحت راهنة لدى شِلَل المراهقين في المدرسة والسينما والشارع. ولا شك أن الطريقة التي يتكلّمون بها عن الجنس، والأفلام التي تعرض، تعطي للمراهقين فكرة سيئة عن الجنس. فالشارع هو مصدر مستمر لإعلام خاطئ. والمجلات الخلاعية تخلط بين الإباحية الجنسية والمشاعر الإنسانية، والأصحاب والأصدقاء الذين تفتحوا على الجنس مبكرين، يتكلمون، في اغلب الاحيان، عن تجاربهم بصورة واقعية وخيالية.

ونقول إنه في هذا الميدان، غالباً ما يكون الأهل والأساتذة، لسوء الحظ، هم الأكثر حذراً، وربما تهيُّباً في الحديث عن الأمور الجنسية.

ففي مسألة الجنس يجب التمييز بين الإعلام والقيم. في البيت نتعلم، معنى القيم بشكل أفضل. هناك، بلا شك، أسئلة يطرحها المراهقون لأجل التحدي وليس لأجل المعرفة الحقيقية. فهنا ليس مطلوباً الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، ولكن ماذا لو كان السؤال مطروحاً دون أي خلفية أو نية سيئة؟... وكلما كان باستطاعتنا إعطاء إجابة ملائمة، فلا ينبغي أن نتردد مطلقاً، أما بالنسبة إلى الأسئلة الاخرى، فإننا نرجع بها إلى أهل الاختصاص.

إن تشجيع الأهل أبناءهم على المشاركة واجب تربوي، والنقاش المدرسة أو أندية الشباب هدف اجتماعي ضروري. فالإعلام الموضوعي والصريح يشكل عاملاً مهماً في التوافق بين الأجيال، حيث يجد الراشدون انبعاثاً جديداً لثقة المراهقين بهم، وحيث يتحقق المراهقون، بالرغم من فارق السن، أن لا اختلاف بينهم وبين الراشدين.

بعض مظاهر الحياة الجنسية في المراهقة

١) الغزل

في أواخر مرحلة المراهقة تصبح اللقاءات بين الجنسين أمراً عادياً. ولكن هذا النمط من اللقاءات فيه شيء من اللعب الشبقي ولا يبلغ درجة الجنسية الحقيقية. إنها مرحلة الغزل التي تتخذ مظاهر التشابك بالأيدي والتحديق في عيون الآخر والذهاب سوية إلى السينما أو الرقص وتبادل الرسائل والتواعد...

والغزل يتصف بعدم ثباته ويفتقر إلى الجديَّة، والاحتكاكات الأولية تكون مشحونة بالقلق لانعدام التجربة والخبرة.

ويمكن اعتبار الغزل كتظاهر بالتجربة الجنسية التي تؤدي عند الصبي والفتاة إلى اتخاذ اتجاه يبدو وكأنه اتجاه الراشدين: شعور المراهق بالاعتزاز والاستعلاء. ومما لا شك فيه أن الغزل هو تجربة تساعد في تكوين هوية المراهق الذاتية (الهوية الجنسية).

يمكن ربط ظاهرة الغزل في المراهقة بظاهرة أخرى هي ظاهرة الكلام الطويل بالتلفون، ويطلق عليه اسم مرض التلفون لدى المراهقين[٣] (téléphonite). فالمراهق يصرف وقتاً طويلاً في محادثاته التلفونية. والتلفون يسمح بتقارب شبقي مع الإبقاء على البُعد الفيزيائي. فهو الصوت الرخيم الذي يهمس في الأذن، وهو الأذن القريبة من الشفاه التي تتكلم.

٣ـ L’Adolescence: Comprendre, savoir, agir (Bibl. Cepl). -

وخلال تبادل الأحاديث الحميمية المشحونة بالألوان الجنسية يمكن لكل من الفتى والفتاة إعطاء وضعيات مختلفة لأجسامهم: التمدد على السرير أو على الأرض، الوقوف أو الجلوس... فجميع هذه الوضعيات تتخذ معنىً شبقياً.

ونمط الحديث يختلف، فهو تارة تتابع نكات لها معنيان أو سلسلة تحديات وإجابات، بحيث كل منهما يحاول أن تكون له مكانة الغلبة، وتارة تبادل روايات وقصص حقيقية أو غير حقيقية عن الأصدقاء، أو تبادل أخبار فاضحة، أو تعيين موعد، أو إلغاء موعد، أو طلب نصيحة أو وصف طويل للنشاطات التي قاما بها خلال اليوم مع كامل التفاصيل، فالهاتف هو وسيلة ناجحة للهروب من الأهل دون مغادرة البيت.

٢) الرقص

يمثل الرقص وسيلة استثارة ودفاع في آن واحد. فالتهييج الإيقاعي للجسد خلال الرقص يولِّد لذة الحركة الفيزيائية، وفي الوقت نفسه تصرف التوترات الجنسية والعدوانية بشكل رمزي محدثة الشعور بالتحرر. والرقص لا يقدم في الحقيقة إلا حلولاً ناقصة للتوتر الجنسي، وربما كان هذا هو السبب الذي يجعل أنواع الرقص تتغير من وقت الى آخر. فكون المراهق في هذه المرحلة ليس مستعداً بعد للانخراط في المغامرة الجنسية الحقيقية، فإنه يجد في الرقص الطريق للتهدئة وللدفاع عن نفسه ضد الإغراءات القوية.

٣) السيارة

تمثل السيارة رمز الرجولة والأمل في الاستقلالية والحرية. فهي وسيلة لإرضاء رغبات متعددة، وهي تمثِّل الجسد في شكله الخارجي وأوالياته الداخلية. فالمراهق يتلذَّذ بالكلام عن أنواع السيارات ودقائقها وهيكلها، ويشعر بالغبطة عند لمسها ومقارنتها وتزيينها.

فالسيارة، لاشعورياً، تصبح بالنسبة للمراهق رمز الرجولة. ومن هنا يتأتى

هذا الشعور بالاعتزاز لاقتنائها. كما أنها تحدث لدى المراهقين شعوراً بالحرية والانفلات، فهي تمكن من الهروب ومن تحدّي الراشدين والإفلات من رقابتهم.

وبالنسبة للفتاة الأنثوية، فإن سيارة صديقها تصبح موضوعاً للاعتزاز، فهي شكل من أشكال الامتداد لشخصية الذكر.

٤) الحب

إن المظاهر الجنسية السابقة لها طابع أناني وتهدف إلى إشباعات ذاتية. والتصرف الأناني يزول في نهاية مرحلة المراهقة ليحلَّ محله شعور جديد: شعور الحب والعاطفة نحو شخص من جنس آخر. فيصبح همه الاحتفاظ بموضوع حبه وتملكه، ويصبح المحبوب الشخص الاستثنائي والمقدس. فهذه المثلنة لموضوع الحب تُغني عواطف المراهق وتجعلها رقيقة. وينتقل المراهق من كائن أناني إلى كائن يتفانى لأجل محبوبته، وتصبح رغبته بالمحبوب روحانية اكثر مما هي جسدية.

الاضطرابات الجنسية

أولاً: التعلق الجنسي والأواليات الدفاعية

أ ـ مصادر القلق

يمكن الكلام عن ثلاثة مصادر أساسية لقلق المراهق الجنسي:

ـ قلق من سيطرة النزوات الجنسية وطغيانها على الذات، ومن الصراع ما بين إرادة القوة والشحنات الجنسية التي تهدِّد الجسم والشخصية.

ـ قلق من الرغبات المكبوتة وعودة المكبوت في العلاقة من موضوعات محرَّمة وعقاب الأنا الأعلى(٤).

---

٤ ـ عودة المكبوت حسب التحليل النفسي: عودة الرغبات المحرَّمة التي ما زالت تعمل في لاوعي الفرد، وتعود الى مرحلة الطفولة حيث الرغبة تتمحور في علاقة شبقية بالأم بالنسبة للصبي٧ وبالأب بالنسبة للفتاة.

ـ قلق من امتحان الرجولة في العلاقة والخوف من الفشل في هذا الامتحان.

ب ـ الأواليات الدفاعية

كثيرة هي الأواليات الدفاعية التي يلجأ إليها المراهق لصد طغيان النزوات الجنسية التي لا يمكن إشباعها في هذه المرحلة بسبب المنع الاجتماعي والمحرم الأخلاقي.

لقد تكلمنا عن بعض من هذه الأواليات عندما عرضنا لنظرية «أنّا فرويد»، وخصوصاً أواليتي التعفف والعقلنة (الرجوع إلى نظرية «أنّا فرويد» في كتابها: الأنا والأواليات الدفاعية).

بالاضافة إلى هذه الأواليات، يمكن الكلام عن وسائل أخرى يحتمل أن تشكل وسائل دفاع ضد الشحنات الجنسية الممنوعة. من هذه الوسائل:

١ ـ الابتعاد عن العلاقة بالأهل أو الهروب من موضوع الرغبة المكبوتة وخطر تنفيذها (الانطواء والانكماش على الذات)

٢ ـ الإعلاء أو التسامي والانغماس في النشاطات الاجتماعية وتحويل «الليبيدو» إلى طاقات إبداعية.

٣ ـ التهالك على الملذات واتباع سلوك نزوي من خلال مغامرات جنسية متعددة.

٤ ـ الإفراط في التدين أو علاقة الرضوخ الى القوة المطلقة. هذه العلاقة التي تؤدي إلى نفي النزوة الجنسية والاستنجاد بالقوة المطلقة لتدعيم «الأنا»، جاعلة منها حليفة «للأنا» ولكن على حساب الهوية الجنسية، أو لتدعيم «الأنا الأعلى» بشكل يقمع النزوة الجنسية. فيتّخذ السلوك الأخلاقي والتدين المفرط شكل حركة نكوص وارتداد إلى ما قبل الجنسية التناسلية، (عودة إلى مرحلة طفلية) لذلك يعقبه عادة تحلُّل وإلحاد، وغالباً تارجح ما بين التدين المفرط والإلحاد.

ثانياً: الانحرافات الجنسية

١ ـ الاستمناء أو الخضخضة (masturbation)

إن عملية الاستمناء أو الخضخضة شائعة بين المراهقين، لذلك يمكن اعتبارها نشاطاً جنسياً خاصاً بهذه المرحلة.

ولكن هذا الإشباع الجنسي الذاتي يبدأ، في الواقع، قبل المراهقة، وهو مصدر شعور قوي باللذة. يذكر «كينزي» (Kinsey) في تحقيقه عن الجنس في أميركا، انه حوالي سن السادسة عشرة تكون عملية الاستمناء بنسبة ٩٢٪ لدى الذكور، وبنسبة ٧٢٪ لدى الإناث، وترتبط اللذة الجنسية لدى الذكر مباشرة بالعضو التناسلي، والاستثارة تؤدي إلى الانتصاب ثم القذف. أما لدى الأنثى فإن التركيب الشراحي لأعضائها يمكنها من الحصول على إحساسات شبقية، فتتخذ عملية الاستمناء أشكالاً خفية وغير مباشرة.

إن الاستمناء أو الخضخضة هو الوسيلة الأكثر سهولة لدى المراهقين لحلِّ توتراتهم، فهو عبارة عن ردَّة فعل دفاعي ضد القلق الذي يسود حياتهم. فصعوبات التكيف مع المحيط الاجتماعي، نتيجةً لتصرفات الأهل والمجتمع، تدفع إلى الانطواء والعزلة والضجر، وحالات الاكتئاب التي يحاول المراهق أن يعوض عنها بإرضاءات مؤقتة يقوم بها بنفسه. وكذلك خيبات الأمل والحرمان تجد دواء لها في التلَذذ الذاتي، فيعوض المراهق عن ألمه، وفي الوقت نفسه يثأر لنفسه من الراشدين الذين هم سبب هذا الألم، لأن التلذذ الذاتي محرم من قبلهم.

والحرمان والفشل اللذان يصيبان المراهق في المدرسة يدفعانه إلى التصرف نفسه، أي البحث عن اللذة والتأكيد على استقلاليته والثأر من الراشدين والهروب من الصراعات. فيلاحظ أن اشتداد الاستمناء أو الخضخضة يحصل، عادة، بعد توزيع العلامات المدرسية أو الحصول على علامات سيئة يعتبرها غير عادلة. كذلك في حالات المشاجرة والانفصال عن صديق. إن الجنس يُطرح على المراهقين، كما قلنا، أكثر ما يُطرح على غيرهم من شرائح المجتمع: فهم سريعو الإثارة، وحاجاتهم

الجنسية عنيفة، والإغراءات الجنسية كثيرة، ولكن الإشباعات الجنسية نفسها ممنوعة، فتصبح عملية الاستمناء السبيل الوحيد المشروع الذي يهدىء ثورة الجسم، ولكنه لا يرضي العقل. فالاستمناء لا يحلُّ محل الحميمية والحب وتأكيد الذات. والمراهق الذي يمارس عملية الخضخضة ينطوي على ذاته في عزلة مؤلمة، فهو لا يبحث إلا عن إشباع ذاته وإرضائها. فيجد في هذا العمل وهم الاستقلالية ووهم القوة. إن هذا الوهم ليس شيئاً مأساوياً ولكنه ليس انتصاراً. فالخضخضة قد تمكن من التخلص، مؤقتاً، من التوترات الجنسية ولكنها قد تصبح البديل عن البحث والجهد، أو العزاء السهل للصدود والفشل.

إن فقدان المعرفة الصحيحة عن الجنس ووظيفة التناسل والإنجاب، والمعلومات الخرافية، ومواقف الأهل المترددة أمام المشكلات والأساطير التي تغلّف بها الظاهرات الجنسية، يمكن أن تخلق اضطراباً لدى المراهق الذي يمر بمرحلة ضغط الشحنات الجنسية عليه.

وتبيِّن البحوث التربوية «أن الرقابة المتشدِّدة والموانع تثبت الانتباه على مشكلة الجنس، فتأخذ عندئذٍ أهمية خاصة وتدفع بالمراهقين إلى اكتشاف أجسادهم ولدى الذكور إلى اختبار رجولتهم ... والرغبة في تقليد الكبار تكون قوية في مرحلة المراهقة، وخصوصاً في ما يتعلق بالجنس. فعندما تصبح الرقابة والممارسة على المراهق غير محتملة ومذلَّة، فإن بعضهم يعمد إلى الاستمناء كوسيلة إلى الاستقلالية وتأكيد الذات[٥]».

نذكر هنا ما كان يقال عن ظاهرة الاستمناء بغاية التحريم الأخلاقي والتخويف: إنها مصدر أمراض وكوارث. حتى أن المجلات الطبية القديمة كانت تؤكد أن الخضخضة هي مصدر أمراض السرطان والقلب والجنون والتشنج والشلل والبرودة الجنسية.

---

٥ - Ouillon D.: Le développement de la sexualité, in l'adolescence compendre, savoir et agir (la bib. CEPL).

فعلى الصعيدين الفيزيائي والطبي المحض من المؤكد أن عملية الاستمناء ليس لها نتائج سلبية أو مرضية، ولكن على الصعيد النفسي تدخل عملية الاستمناء في صراع مع الأنا الأعلى وتخلق مشاعر الذنب، وتصاحب بهوامات لها تأثير على شخصية المراهق، إذ يتخيَّل أنه في الوقت نفسه موضوع وذات، سلبي وإيجابي، رجل وامرأة. فتملكه لذاته يصبح متأرجحاً، وحالة من الازدواجية الجنسية يمكن أن تثبت، مما يعيق عملية تماهيه الجنسي الحقيقية. فالاستمناء قد يؤدي في النهاية إلى انكفاء جنسي على الذات، والى اكتفاء وإشباع كاملين. فيهمل المراهق البحث عن تكامله في مكان آخر، فيثبت على طفلية جنسية تصدُّ عملية التطور الجنسي الطبيعي.

حوالي نهاية المراهقة، أي عندما يكتمل النضج ويتوجَّه المراهق نهائياً نحو الجنسية الغيرية، تبدو له عملية الخضخضة كأمر مصطنع وغير طبيعي وانها تبعثر للطاقة المحوَّلة عن هدفها، فيتصوَّر أنه يدنِّس كرامة جنسه وأن هذا العمل يمنعه من أن يصبح راشداً، ويسوده شعور تبخيس لقيمة ذاته.

ان المراهق اذ وجد في التعامل مع الآخرين وفي النشاطات الاجتماعية إرضاءاته وإشباعاته الأساسية لا تعود مسألة الخضخضة مشكلة قائمة بالنسبة له.

ب ـ الجنسية المثلية (Homosexualité)

تعتبر دراسات التحليل النفسي أن لدى كل فرد إمكانية مظهرين جنسيين، ولكن، أعضاء جنس واحد هي التي تنمو طبيعياً، بينما معالم الجنس الآخر تختفي. والشحنات الجنسية التي تظهر في أثناء المراهقة تكون أولاً غير واضحة في أهدافها، ثم بعد فترة من التأرجح، تتوجَّه نحو الجنسية الغيرية فتثبت عندئذٍ الهوية الجنسية، أي الذكورة أو الأنوثة.

فالكلام عن الجنسية المثلية يعني الاشتهاء التفضيلي أو الاختياري لأفراد من الجنس نفسه. فالجنسي المثلي لا يمكنه إشباع نزواته الجنسية إلا مع شخص من نفس جنسه. إن هذا الاشتهاء قد يكون جبلِّي، ولكنه نادر الحدوث، فهو نتيجة خلل

هرموني، إذ إن الغدد تفرز فائضاً من الهرمون الأنثوي لدى الذكر وفائضاً من الهرمون الذكري لدى الأنثى.

والجنسية المثلية المقبولة في بعض المجتمعات والمرفوضة في مجتمعات أخرى، لا يمكن النظر إليها إلا كحالة باثولوجية أو غير طبيعية، لأنها في نهاية الأمر عمل فيزيولوجي محوَّل عن هدفه الطبيعي. إن العلاقات الجنسية المثلية نادرة جداً في المراهقة. فالتأرجح والتجاذب في العلاقات أثناء فترة المراهقة هما اللذان أدَّيا إلى وقوع بعض الدارسين في خطأ الاعتقاد بشيوع الجنسية المثلية.

فالمعروف أنه في أثناء المراهقة يتجه المراهقون إلى الارتباط بصداقات قوية مع أشخاص من الجنس نفسه، نتيجة لشعورهم بالقلق لعدم فهم الآخرين لهم، أو نتيجةً لصدٍّ عاطفي من قبل الأهل والعائلة. فمثل هذه الصداقات يمكن أن تتوافق مع مرحلة النفور من الجنس الآخر من جهة، ومن جهة أخرى مع التوظيف اللبيدي الخاص بالبلوغ. فمن هذه المؤتلفات العلائقية ينتج أن الهامش الضيق ما بين الإعجاب بالصديق الذي ينظر إليه كمثال لما يتحلى به من صفات (الصفات الفيزيائية، وخصوصاً الجمال الذي يتأثر به المراهق كثيراً) والعاطفة الفيزيائية يمكن أن يُتجاوز بسهولة.

إن هذه العلاقات العاطفية بين مراهقين أو بين مراهقات، إذا نشأت ضمن مجموعة من لون واحد (مدرسة داخلية مثلاً)، فإنها قد تتَّخذ طابع العلاقة الجنسية المثلية التي تقتصر في مرحلة المراهقة على استكشافات أو مداعبات متبادلة واستثارات شبقية. وهذه الممارسات المثلية تبدو، بحسب الإحصاءات، أكثر شيوعاً بين البنات مما هي بين الصبيان. ومن الصعب تفسير ذلك، فبعض الدارسين يعتبرون أن الجنسية المثلية هي ميل طبيعي لدى المرأة بسبب بعض العوامل الخاصة بالشخصية الأنثوية، مثل النرجسية والمناطق الشبقية الأكثر امتداداً وتلذذها في رؤية ذاتها.

إن الجنسية المثلية التي يمرُّ بها المراهق تختلف كثيراً عن الجنسية المثلية

الباثولوجية لدى الراشد الشاذ، فهي مرحلة انتقالية تسبق مرحلة الشحنات الجنسية الغيرية.

لذلك يمكن القول إن الجنسية المثلية الحقيقية لا وجود لها في المراهقة إلا نادراً بالرغم من وجود حالات قد تتطور إلى مثل هذا الشذوذ المرضي. فالأسباب كثيرة ومتنوعة وقد شكلت موضوعاً لدراسات عيادية، نذكر منها الأسباب التالية:

- الرغبة مثلاً لدى الفتاة في أن تكون صبياً (التنكر للأنوثة) مع احتقار الذكر يدفع بها إلى التصرف كالصبي مع الفتيات الأخريات.

- التعلق القوي بالأم، والثبات على هذا التعلق يمكن أن يؤدي إلى تعلق وخضوع طفليين: مثلاً تماهي الصبي بالأم والخوف من الأم المفترسة وتمثل النساء كلهنّ بالأم.

إن جميع هذه العوامل يمكن أن تؤثر سلباً، ومن غير الممكن التنبؤ بتأثيراتها في تكوين الهوية الجنسية.

باختصار يمكننا القول إن النضج الجنسي، أو الرشد الجنسي يطرح مشكلات أمام المراهق تدفعه إلى إيجاد حلول لها قد تكون موافقة أو غير موافقة.

فالمشكلة الأهم تبرز أولاً في المطلب الجنسي الذي يمكن أن يتميز بمظاهر مختلفة، ولكنه يتأرجح بين قطبين كما رأينا سابقاً:

أ - إما قطب الشبقية أو الغُلمية الذاتية (auto-érotisme)

ب - وإما قطب الجنسية الغيرية.

فإذا اتجه في الاتجاه الأول ينتهي بالاستمناء والشعور بشذوذ نفساني، أو بالجنسية المثلية والشعور بالخطيئة الأخلاقية.

وإذا اتجه في الاتجاه الثاني، فإنه يطرح مشكلة الانجذاب نحو الجنس الآخر الذي يوقعه في تجاذب ثنائي الوجه: من ناحية يرغب في اللقاء مع الجنس الآخر،

ومن ناحية ثانية يهابه. فهو يرغب فيه لأنه المؤشر الأفضل لرشده، ويهابه للصدود النفسية والموانع الأخلاقية التي تحدُّه.

إن حلَّ هذا الموقف الصراعي يتوقف، كما تبيِّن الدراسات المختلفة، على خاصيّة الوعي الأخلاقي. وطريقة التربية التي نشأ عليها الفرد تؤثر في اتجاه هذا الوعي الأخلاقي: في التربية القائمة على القسر والقمع والنظر إلى الأخطاء الجنسية كأخطاء خطيرة، فإن قساوة الأنا الأعلى تكبت النزوات الجنسية التي ينظر إليها كشرور. فالنتيجة تكون عبارة عن رفض لا واعي، أو أشكال منحرفة يمكنها أن تؤدي إلى خلل في التوازن الانفعالي (خجل وشعور بالعار وعقدة الذنب والانحراف). ومن الخطأ الاعتقاد أن هذه النتائج تتولد فقط عن تربية دينية، إذ إن هناك أطراً تربوية كثيرة يمكن أن تحدث الاضطرابات نفسها.

أما إذا كانت التربية قائمة على التسامح الكلي (تطرف آخر)، فإن الجنسية تكف عن الارتباط بمشاعر الذنب، مما يؤدي بالفرد إلى التهالك على الملذات دون كابح أو رادع، وينتهي الى قلق عاطفي يؤثر على توازنه النفسي أيضاً.

تجنباً لهذين الموقفين المتطرفين، لا بدَّ إذن من تكامل الجنسية والعاطفية، لأن خاصية الجنسية لدى الإنسان تختلف عن الجنسية الحيوانية كونها لا تتوقف فقط على أنها عملية بيولوجية وإشباع غريزي، بل تحتوي على بُعد نفساني وعاطفي، وأنها موضوع تسامي أخلاقي وروحي، وأخيراً انها تُستكمل بالعاطفة. ومن هنا فإن الجنسية الإنسانية ليست تصرفاً فطرياً ثابتاً لا يتغير، بل هي فعلٌ يحدِّده الإطار الحضاري والنفساني والأخلاقي. ومن هنا أيضاً أهمية التربية الجنسية التي تغيِّر في الكيفية التي يعيش من خلالها المراهق جنسيته ويشعر بها. ولكي تأتي التربية الجنسية متكاملة، يجب أن تبدأ منذ الطفولة وأن تجيب عن تساؤلات الطفل التي يطرحها مع مراعاة النمو والنضج.

وهناك اختلاف بين الإعلام والتربية: فالإعلام يؤثر على الصعيد العقلي، وهو يعلم النواحي الشراحية والفيزيولوجية ويتوجَّه إلى عقل المتعلم، أما التربية فإنها تؤثر على الصعيدين العاطفي والأخلاقي، وتتوجَّه إلى عقل المتعلم ووعيه.

الفصل الخامس

المأزق العلائقي في المراهقة

أولاً: موقف المراهق من الأهل

أ ـ مطلب الاستقلالية والتحرر من الأهل

ب ـ الصراع بين الأهل والمراهق

ج ـ مظاهر هذا الصراع خاصة في اختيار المهنة والهروب من البيت

ثانياً: موقف الأهل من المراهق

أ ـ مشكلة الانفصال

ب ـ مشكلة تحقيق الآمال من خلال الأبناء

ج ـ مواقف الأهل المختلفة تجاه المراهقين

ثالثاً: موقف الراشدين من المراهق

أ ـ واقعية الراشدين يقابلها روح المغامرة عند المراهقين

ب ـ الخوف من المراهق نتيجةً لتهديد نظام الراشد الدفاعي

ج ـ أنماط مواقف الراشدين من المراهق

إن الوصول إلى الرشد لا يكون فقط عن طريق الرشد الجنسي. فبلوغ المراهق العمر الحقيقي يتم عن طريق الرشد العقلي الذي يظهر، كما بيِّنا في فصول سابقة، من خلال اكتشاف الأفكار والقيم، ومن خلال تجاوزه مشكلاته الشخصية إلى المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية والأيديولوجية والدينية، ومحاولات الحكم على هذه المفاهيم ومعارضتها أو تبريرها، بحسب ذكائه ومستواه العلمي واهتماماته واتخاذ موقف شخصي منها كمحاولة لاتخاذ مكانة خاصة بالنسبة للآخرين.

إن هذا الرشد العقلي يولِّد لدى المراهق الشعور بالمساواة بينه وبين الراشد، مما يقوي إمكانية الصراع بينهما، إذ إن المراهق الذي أصبح قادراً على التفكير والنقاش لا ينظر إليه الراشد كمحاور جيد. وهذا يولِّد لدى المراهق الشعور بالمرارة كون وصوله إلى مستوى تفكير الراشد لا يضع حداً لدونيته الاجتماعية.

هذه القدرة الجديدة لدى المراهقين على معالجة الأفكار والآراء تغذي الميل إلى النقد والثورة والرفض، خصوصاً إذا لم يُعترف بها. فالمراهق لا يعد يعتدّ بوظيفة الأهل والمعلم، وهو يريد أن يبحث عن التفسير الصحيح لسلسلة الأحداث التي يمرُّ بها والمآزم المتجدِّدة والأزمات المفاجئة. فرفضه كمحاور وعدم إعطائه الإجابات الملائمة تدفع به إلى مأزم علائقي، خصوصاً مع الأهل وقيمهم، وإلى الموقف الرافض والناقد، والمعارضة للقيم التربوية والنظام والدين والعادات والتقاليد. وهذا الموقف يختلف باختلاف الأفراد وجنسهم وعمرهم؛ وتختلف شدة المعارضة من الشكل السلبي إلى شكل الحرب المعلنة.

إن المراهق يعمل كي يبرهن على أنه قد أصبح راشداً قادراً على الاستقلالية. وأنه لم يعد بحاجة إلى مساعدة الآخرين. فكل مساعدة من قبل الآخرين، وخصوصاً من الأهل يعتبرها تدخلاً في شؤونه الخاصة.

فيصبح الأهل بخاصة أمام مأزق حقيقي، إذ كيف يمكنهم مساعدة أبنائهم إذا كانت المساعدة غير مقبولة؟ وكيف يمكن التواصل معهم، إذا كانت كل التفاتة منهم تعتبر إهانة؟

فالسؤال: هل يمكن أن يعيش الأهل والمراهقون معاً في سلام؟

لا يمكن الإجابة عن هذا التساؤل إلاّ من خلال النظر في مواقف الأهل والآخرين من المراهق، وموقف المراهق من الأهل والآخرين؟

أولاً: موقف المراهق من الأهل

من المعروف أن العلاقات بين المراهق والأهل تمر بأزمة، في مرحلة المراهقة، يتولَّد عنها شعور بعدم الارتياح في الأسرة، حيث كل من المراهق وأفراد الأسرة خاسر. فالأهل يشعرون بالصدٍّ، والمراهقون لا يتوصلون إلى تقرير الفصل بين صدٍّ حريتهم وصدٍّ حبهم. إن الأهل بصورة عامة يسقطون أسباب الأزمة بينهم وبين أبنائهم على الآخرين، فهم في عملهم هذا يساهمون في شدة المأزم وتطور ثورة المراهق التي يعتبرونها غير مبررة.

لا شك أن السبب الرئيسي في انهيار النظام العلائقي في الأسرة يعود إلى المراهق نفسه كون موقفه من الأهل هو موقف غامض، كما في جميع الاختيارات الأساسية التي يتخذها في هذه المرحلة. فبسبب المكانة طفل/مراهق ـ ليس طفلاً وليس راشداً ـ لا يمكن أن يكون الموقف إلا بهذه الصورة. فالمراهق/الطفل مازال يشعر بحاجة ماسَّة إلى التماهي بالأهل، بينما المراهق/الراشد بحاجة إلى البحث عن نماذج أخرى. لذلك يشعر الأهل أن المراهق يرفضهم، والواقع أنه لا يرفض الأهل كأهل، بل يرفضهم كأهل يعملون على تثبيته على مرحلة الطفولة. فالمراهق يبدأ برفض الخضوع لسلطة الأهل. والأفعال التي كانت الى مرحلة ما تعتبر طبيعية ومقبولة تصبح أفعالاً غير مرغوب فيها (الخروج مع الأهل في النزهات يوم العطل أو زيارات المجاملة لأصدقاء العائلة...) تؤدي حتماً لدى المراهق، نتيجةً للرغبة والحاجة إلى الشعور بأنه مختلف، إلى إظهار معاكسته وثورته وعصيانه ووقاحته،

فهو يتهيب ويخاف من استلاب مكانته كراشد، هذه المكانة التي هي مطلبه الرئيسي وفي الوقت نفسه، فإن هذا الموقف يبين أن قيم الطفولة ليست مرفوضةً لذاتها، بل لما تمثله من طفلية، فرفضها يولِّد تمزقاً يحاول المراهق إخفاءه من طريق المبالغة بالثقة بذاته، أو تحدي الأهل القابلين بهذه القيم.

إن تمزق المراهق يظهر أيضاً في مواقفه المتجاذبة:

- الرغبة في التفرد والاستقلالية يقابلها الرغبة في التواجد والتواصل.

- الرغبة في الوحدة والانكماش على الذات والرغبة في المشاركة والانفتاح على العالم.

- الرغبة في التملك والاستقلال والرغبة في التفاني والغيرية المفرطة.

من الصعب استعراض جميع وجوه الصراع مع الأهل، فهي لا حصر لها، تبدأ من التعارض فيما يتعلق بمشكلات اللبس والثياب إلى المشكلات الدينية. وروح المعاندة للأهل تظهر بوضوح في مسألتين بارزتين: اختيار المهنة، والهروب من البيت.

١) اختيار المهنة

تظهر الإحصائيات أن غالبية المراهقين يختارون مهنة مختلفة عن مهنة آبائهم. إن تفسير هذا الاتجاه لدى المراهقين لا يقوم على ما قدَّمه بعض علماء النفس من أن المراهق، لشدة ما يسمعه عن معاناة والده ومشكلاته، يستثير لديه الكراهية لهذه المهنة. إن مثل هذا التفسير لا ينطبق على جميع الحالات، لأن هذا الموقف هو في حقيقة الأمر موقف صراعي، واختيار المهنة بالنسبة للمراهقين تتداخل فيها عوامل مختلفة:

أ) العوامل الذاتية أو الاستعدادات الطبيعية والعقلية والميول والاهتمامات، إلى جانب التماهيات الأساسية والدوافع الواعية واللاواعية.

إن اختيار المهنة يرتبط بعلاقة المراهق بالراشدين، إذ تارة يعجب بأستاذه،

وتارة بأحد أبطال السينما أو الرياضة أو السياسة أو الفن أو الحرب، مما يدفعه إلى التأرجح والتغير السريع في اختياراته.

والدوافع الواعية تتحدَّد من خلال التأثير بالمحيط، ومن خلال البحث عن الشهرة والمال والنفوذ، أو الخدمة العامة والإنسانية. أما الدوافع اللاواعية فإنها تظهر في الرغبة بالهروب والاحتجاج والتسلط والمواقف من الوالدين والأخوة والأسرة.

وإلى جانب هذين النوعين من الدوافع نجد الدوافع التعويضية، إذ يجد المراهق في مهنة الطيار أو الجندية أو البحار متنفساً لإحباطاته ومعاناته الداخلية والخارجية

ب) العوامل الخارجية أو تأثير الأهل والطبقة الاجتماعية ـ الاقتصادية

إن تأثير الأهل في اختيار المهنة من قبل المراهقين يظهر من خلال:

ـ رفض الإبن اختيار مهنة الأب

ـ اتخاذ موقف تحدي للأهل في اختيار المهنة

ـ رفض المهنة المقترحة من الأهل، وتبني وجهة نظر معاكسة كموقف معارض للأهل الذين يرغبون، من خلال اختيارهم مهنة ولدهم، في السيطرة على حياته. وتحدِّد أيضاً الطبقة الاجتماعية ـ الاقتصادية مجال اختيار المهنة في نطاق مختلف بحسب البيئة الريفية أو المدينية والطبقة العمالية والفقيرة، والطبقات البورجوازية الصغيرة والعليا والمتوسطة.

وأخيراً، فإن النظام الاجتماعي وما يقدِّمه من أهداف ووسائل متناقضة أو غير متناقضة، يؤثر في توجهات المراهقين واختياراتهم المهنة، إذ إن الوعي بتناقض النظام الاجتماعي، كثيراً ما يؤدي إلى الرفض والتمرد والانسحاب، كما يمكن ملاحظته في جماعات المراهقين الهامشيين وجماعات الهيبيين. في اختيار المهنة إذن، كما يتبيَّن لنا، يمكن أن نميز ميلين مختلفين لدى كل فرد:

- ميل إلى اختيار خاص يتوافق مع طموحات الفرد العميقة التي تبدو في أغلب الأحيان بعيدة عن إمكانية التحقيق.

- ميل إلى اختيار موحى به من الخارج.

إن التأثيرات النفسية والاجتماعية والاقتصادية تلعب دوراً أساسياً في تثبت التفضيل الخاص والحميم، وتأثير الأسرة والمعلمين يمارس على الصعيد العملي في الاختيار الخارجي. إن الاستقصاءات التي أجريت حول اختيار المهنة من قبل المراهقين، أظهرت أن عدداً صغيراً من الأبناء يرغبون في مزاولة مهنة آبائهم، كما قلنا سابقاً، ليس نتيجة عدم تأثير من قبل الأسرة، بل على العكس نتيجة تأثير سلبي، إذ إن المراهق الذي يشارك هموم مهنة والده يتمكن من تمييز عيوب هذه المهنة. وإذا كانت الأم تتذمر من حياتها العائلية بسبب المهنة الأبوية، فإن ذلك يكون له وقع على الصعيد العاطفي لدى المراهق يدفعه إلى موقف عدواني. كذلك إذا حاولت الأسرة أن تمارس ضغطاً لإجباره على اختيار مهنة والده، نذكر هنا استقصاء قام به «أوريليا» (Origlia)[1] على عدد من الطلاب في مدارس ثانوية في مدينة «ميلانو» حول تأثير الأهل أعطى النتائج التالية:

١ - التوافق في الاختيار بين الأهل والأبناء ٣٩,٨٪

٢ - التعارض في الاختيار بين الأهل والأبناء ٢٤,٢٪

٣ - الأهل يتركون للأبناء حريةالاختيار ٢٦,٥٪

٤ - الأهل مترددون في فرض الاختيار ٧,٨٪

إن وجود تعارض بين الأهل والمراهقين في ما يقارب ربع الحالات، يدفع إلى التساؤل عن موقف المراهق في مثل هذه الحالة.

لذلك قام «أوريليا» بطرح السؤال التالي: إذا كان اختيارك واختيار أهلك لا

---

١ - ORIGLIA et QUILLON: L'Adolescent (E.S.F).

يتوافقان فهل ستقاوم أم لا؟ وإذا كنت ستقاوم فلماذا؟ جاءت الإجابات على الشكل التالي:

١ ـ أجاب ٢٣,٣٪ أنهم لن يقاوموا بل يقبلون المهنة التي يختارها الأهل لهم، لأنهم يعتقدون أنهم أقدر على الحكم واختيارالطريق الأفضل.

٢ ـ بعض الإجابات جاءت معبرة عن مخاوف من مشاكل مع الأهل أوخيبة أمل لهم.

٣ ـ ولكن ٤٨,١٪ أي الأغلبية، أجابوا بأنهم يعارضون بشكل قاطع رأي الأهل إذا جاء غير متوافق مع اختيارهم، ويبررون ذلك بالحجج التالية:

أ ـ إن طموحات الأبناء لا ينبغي أن تصدً من قبل الأهل، لأن هؤلاء الأبناء سيفشلون في عملهم إذا لم يتوافق عملهم مع ميولهم.

ب ـ كل فرد يجب أن يكون له حرية اختيار طريق المستقبل. إن الأمر يتعلق بمستقبله وليس بمستقبل الأهل.

ج ـ إن كل فرد يعرف، بشكل أفضل، إمكانياته واستعداداته.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن صعوبة التقرير بحرية، غالباً ما تؤدي إلى أن الاختيار يتم نتيجة لأسباب خارجية وطباعية.

وبالنسبة لبعض المراهقين فإن ضرورة اختيار مهنتهم، إضافة إلى الرغبة في إظهار استقلاليتهم في هذا الاختيار يوقعاهم في أزمة قلق مهني حقيقية. فيسألون كثيراً ويظلون في حالة تأرجح وتردد نتيجة شدة تعقيد المهن الحالية، ونتيجة للتقلبات في استعداداتهم. وعدم التأكد من إمكانية الاختيار يدفعهم إلى الاستسلام في قبول المهنة دون تفكير جدي بالمستقبل، مشددين على اعتبارات مؤقتة ومعتمدين على آراء الأهل والأصدقاء أو ضغوطهم.

ويمكن هنا ذكر حالات عديدة لمهن كان اختيارها في اللحظة الأخيرة، ولأسباب

خارجية محضة، إما لأنها لاقت قبولاً من الأهل، وإما لأن أحد الأصدقاء قد قرر سلوك هذا الطريق، وإما لأنه قرأ مجلة أو ملصقاً يظهر محاسنها.

ومن المعروف أنه في حالات أخرى، يُدفع المراهق إلى اختيار المهنة نتيجة بعض اضطرابات الطبع. ومثال على ذلك حالة السادية المصدودة، يمكن أن تدفع الفرد إلى الرغبة في مهنة تتطلب عدم الإحساس بألم الآخرين (جراح، جزار، طبيب بيطري...)؛ أو حالة التعويض عن الشعور بالدونية حيث الاختيار يقع على المهن التي تمكِّن من السيطرة على الأشخاص الآخرين (المهن العسكرية...) أو حالة الأفراد الذين يعانون من عدم الاستقرار، فيختارون المهن التي تتطلب التنقل الدائم...

إن البحوث وقياس الاستعدادات التي أصبحت ضرورية، نتيجة لتعدُّد المهن المتخصِّصة، تحمل كثيراً من المخاطر والأخطاء، خصوصاً بالنسبة للمراهقين. ولكن التجربة تبيِّن أهمية التوجه المدرسي والمهني. إذ إن التخصص الدقيق أدَّى إلى تعدُّد المهن وتزايد الاختلافات بينها، إلى درجة أصبح فيها التوجيه المهني ضرورة حتمية. وقد وضعت تقنيات فعَّالة لكشف الاستعدادات ولقياسها. ولكن مطابقة الاستعدادات التي تتطلبها المهن مع استعدادات الفرد ليست بالأمر السهل.

٢) الهروب من البيت

يحصل الهروب من البيت في عمر يراوح ما بين ١٢ إلى ١٨ سنة. وقد كان هذا الموضوع من اهتمامات علماء النفس والأطباء النفسانيين. وساد، في مرحلة ما، الاعتقاد بأن الهروب من البيت هو نتيجة اضطراب عقلي، غير أنه تبيَّن أن هذه الظاهرة تعود إلى شعور المراهق بأن جو البيت لم يَعُدْ يطاق نتيجة الصراعات التي تحدث بينه وبين الأهل وأفراد العائلة الآخرين.

والتفسير المقبول اليوم، يعتبر أن الرغبة في المغامرة لدى المراهقين، والتي غالباً ما تكون مقرونة بشيء من الكراهية ضد الأهل، هي الدافع الأساسي إلى هذا السلوك، وربما أمكن القول إن هذه الكراهية هي التي تشكل السبب الرئيسي، إذ إن الهروب يعني الهروب من محيط نشعر فيه بالضغط والعذاب.

والتحليل النفسي يحاول إرجاع تفسير ظاهرة الهروب إلى المأساة العائلية التي تعود إلى مرحلة الطفولة. يرى «فرويد» أن المراهق يثور ويترك البيت لأن والده في نظره غريمه؛ بينما «أدلر» (Adler) يدخل عامل الشعور بالدونية والرغبة في تأكيد الذات ضد الأب الذي يتمتع بالقوة والسيطرة. فالمراهق في مرحلة النمو هذه يشعر أنه أصبح قوياً وقادراً على المجابهة. فيصبح الهروب وسيلة من وسائل تأكيد ذاته وتأكيد استقلاليته، خصوصاً في هذه المراحل التي تتطور فيها علاقاته بالأهل، وتتخذ شكل الثورة عليهم، والنقد لتصرفاتهم، والسخرية من عاداتهم...

ثانياً: موقف الأهل من المراهق

إن موقف المراهقين من الأهل والكبار، يقابله موقف الأهل منهم، هذا الموقف الذي يتجسَّد أيضاً بشكل متذبذب من المراهق.

يقول «هاييم»[٢]: إن المراهق يؤلف جزءاً لا يتجزأ من الوالدين، فهو نتاج جسمهما، وهو في الوقت نفسه الجزء الذي يجب فقدانه (تعبير عن الخصاء castra-tion). فالمراهق يمثل، بالنسبة للأهل، فقدان الموضوع، ويمثل أزمة الانفصال والاستقلال.

ويتوقف مصير الانفصال هذا على قدرة الأهل في إقامة علاقات موضوعية وإمكانات تعويضية عن خسارتهم للمراهق، من خلال إسقاط الآمال على المستقبل (الآمال التي يجسدها المراهق)، ومن ناحية ثانية فإن المراهق، بالنسبة للأهل، هو شاهد على كبرهم وشيخوختهم، مما يثير لديهم قلق الموت؛ وفي الوقت نفسه هو ثمرة «الايروس» (eros) مُمثلاً غَلَبة الحياة على الموت وضمانة ضد الموت. فمن خلال المراهق، الذي هو في طريقه لأن يصبح راشداً، يأمل الأهل اجتياز حدود الوجود التي يضعها الموت والمرور إلى الخلود.

ويثير المراهق أيضاً لدى الأهل نوازع المثل الأعلى للأنا التي لم يتمكن الوالدان من تحقيقها، فهما يأملان تحقيق الذات من خلال الأبناء.

---

٢ ـ HAÏM. A.: Le suicide d'adolescents (payot)

إن الحل السليم لهذه العلاقات التي تحمل في طياتها صراعات شديدة، هي قبول الانفصال النهائي، والتحرر من تعلق الأهل بولدهم الذي أصبح مراهقاً. إذ إن خوف الأهل الدائم على تصرفاته وعلاقاته، خصوصاً في ما يتعلق بالحياة النزوية، يحرك، كما يقول «هاييم»[٣]: «القلق الأوديبي لديهم، والأواليات الدفاعية ضد هذه النزوات، فتتخذ طابع الإنكار للحياة الجنسية لدى المراهق، ورغبة السيطرة على حياته العاطفية والجنسية. فهذا الموقف قد يدفع بالمراهق إلى الإفراط بها».

وكذلك خوف الأهل من انتماءات المراهق مع العالم الخارجي، ومحاولتهم السيطرة عليه (جماعات الرفاق والمؤسسات الاجتماعية التي تنازع الأهل ولاء المراهق؛ ومحاولة السيطرة عليه مهنياً وتوجيهه وجهة تتماشى مع مطامح الأهل وتتعارض مع رغبة المراهق في الاستقلال، جميعها مواقف وأساليب لا تنجح في إيصال المراهق إلى كمال ذاته وبلوغ الاستقلالية التي ينشدها والعيش معه، في هذه المرحلة بسلام، لأن المراهق يستجيب لهذه الضغوط بالرضوخ أو الرفض أو الاحتجاج. فالنتيجة تكون أن الأهل يشعرون أنهم فقدوا حب ولدهم وتعلقه العاطفي بهم، وأنهم فقدوا القوة التي تمكنهم من السيطرة عليه (الشعور بالخوف والعجز).

إن هذا يدفع إلى صراع بين الأجيال لأن المراهق، المدفوع إلى الاستقلالية، يصطدم بمواقف الأهل وتعنتهم. وهذا التعنت يدفعه إلى التأرجح في موقفه من الأهل كما قلنا، أي التذبذب بين مشاعر الولاء ومشاعر الانفصال. والرغبة في توكيد ذاته تؤدي إلى التهجم على الأسرة من ناحية، والتفاني بشأنها من ناحية ثانية.

إن هذا النظام العلائقي يختلف باختلاف الأسر واختلاف الوضع الاجتماعي. من مظاهر هذه العلاقات:

أ ـ موقف الأهل الذين لا يتدخلون في شؤون مراهقيهم: ترك المراهق لذاته دون ضبط وتوجيه، مما يؤدي عنده إلى الشعور بالترك.

---

٣ ـ HAÏM. A.: Le suicide d'adolescents (payot).

ب ـ موقف الأهل الذين يبالغون في الحماية: صدُّ المراهق في رغباته بالاستقلال والإبقاء على علاقة طفلية تملكية، والتدخل في معرفة كل شيء وبكل الوسائل، من الحيلة إلى الضغط حتى التهديد.

ج ـ موقف الأهل الذين يتصرفون بحكمة وعقلانية، ومعرفة بأن المرحلة التي يمرُّ بها ولدهم هي مرحلة الصراعات الداخلية وثنائية المشاعر والمواقف والتناقضات، وأن المراهق هو في مأزم مع نفسه ومع العالم: فهو واقع تحت ضغط مشكلات لا يستطيع أن يجد لها حلولاً أو إجابات، وهو قلق يبحث عن ذاته، وهو يعارض ويثور لا حبّاً بالمعارضة والثورة ضد أهله والآخرين، بل لكي يحقق ذاته واستقلاليته.

إن معرفة هذه الأمور، تدفع بالأهل إلى تقبُّل المراهق بشيء من الواقعية، وتقدِّم له المساعدة والسند. فالمراهقة لا يمكن أن تكون مرحلة سعيدة بشكل مستمر، إذ ينتابها فترات من الشك والألم. فهي مرحلة تشكل الشخصية وبناء «الأنا». والمراهق لا يعرف سبب قلقه ولا يستطيع الإجابة عما يعانيه. وهو عاجز عن القول: إني ممزق بين مشاعر متناقضة وأنا أصارع في خضم شحنات عبثية ورغبات لا عقلانية!...

والموقف المتفهم من قبل الأهل يدرك أن المراهق يشعر بأنه أصبح راشداً يتألم من العوائق التي توضع أمام تحفُّزه إلى الاستقلالية. وكذلك يدرك أن ترك الحرية كاملة له يشكِّل خطراً في تطلعاته، وأنه لا غنى عن وضع مبادئ وإقامة حدود للحرية. وعلى المراهق أن يعلم ما هو موضوع احترام الأهل ومواقفهم. فأمرٌ طبيعي أن نجد معارضة لهذه المبادئ ومقاومة للسلطة، إذ لا يمكن أن تتكوَّن الشخصية بالرضوخ الأعمى، فلا مناص من تقبل مشاعر المراهقين ضد سلطة الأهل. إن هناك فرقاً بين المنع المطلق والدائم، والمنع الذي يضع حدوداً للحرية والتصرف. فالحدود التي توضع لا ينبغي أن تكون اعتباطية أو خاضعة للموقف الحالي، بل قائمة على مبادئ واضحة،، ومن هنا ضرورة التمييز بين المشاعر والأفعال. فالأهل الذين

يتصرفون بعقلانية يتخذون موقفاً متسامحاً بالنسبة للمشاعر والرغبات، ولكنهم يتشددون تجاه كل تصرف غير مقبول، وهم يحترمون آراء مراهقيهم ولا يبخِّسون من قيمة أحلامهم وطموحاتهم، محتفظين بحقهم في التدخل والتقويم لبعض الأفعال.

ثالثاً: موقف الراشدين والكبار من المراهق

إن بين المراهق والراشد، من الناحية العضوية، فروقاً كبيرة. فالمراهق يشعر بطاقات هائلة في ذاته تسعى إلى التعبير عن ذاتها من خلال قدرات كبيرة. بينما يميل الراشدون والكبار إلى الاقتصاد في بذل الجهد والمحافظة على ما تبقى لديهم من طاقات.

ومن الناحية النفسية، فإنه يلاحظ انخفاض في مستوى الآمال عند الراشدين، فهم ينظرون إلى الأمور نظرة واقعية ويحسبون حسابات كثيرة لواقعهم الذي توصلوا إلى بنائه ولمكتسباتهم الاقتصادية. بينما المراهقون يمثلون الآمال، وحيويتهم ونقص خبراتهم وتجاربهم في الحياة، تدفعهم إلى مواقف لا تخلو من الرومانسية وعدم الواقعية والمغامرة. وهذا ما يهدِّد نظام الراشد الدفاعي كون الراشد يحتمي بمكانته وواقعه. فموقف الراشدين والكبار يتصِّف، بشكل عام، بأنه موقف عدواني من المراهق، ويتخذ أشكالاً مختلفة، منها:

أ ـ موقف الراشد صاحب الخبرة الذي يؤكد على قيمته ومكانته وتفوقه، فيما يحاول التشكيك في قيمة المراهق وفي كل ما يصدر عنه.

ب ـ موقف الراشد الواعظ الذي يدفع المراهق إلى الامتثال بالقيم والمعايير والطاعة والاحترام، فهو يلعب دور الحليف للأهل.

ج ـ موقف الراشد المتقرب الذي يقابل المراهق بالتودُّد وإظهار الرعاية والعطف، ممثلاً صورة الأب المثالي الذي لا يجوز مجابهته.

د ـ موقف الراشد الذي يعتبر نفسه في حالة شباب دائم لخداع المراهقين وتسييرهم بحسب رغباته.

إن هذه المواقف العلائقية جميعها تبيِّن أن المراهق لم يكتسب بعد الوسيلة الملائمة لمجابهة ذاته والآخرين، وإن الراشدين لا يعرفون كيف يواجهونه، فهنا تطرح مشكلة إعادة تنظيم العلاقات بين الأهل والراشدين والمراهقين.

إن انخفاض السلطة الأسرية الظاهري من قبل المراهق، لا ينبغي أن يدفع إلى الاعتقاد بأن الهدف في النظام العلائقي الصحيح هو القضاء على هذه السلطة. فالواقع أن أسباباً كثيرة تعود إلى مواقف الأهل والراشدين وليس إلى مواقف المراهق. ويتبيَّن من التحقيقات التي أجريت مع كثير من المراهقين، أن المعارضة والثورة ومجابهة النظام والسلطة مصدرها إما سلطة الأهل التعسفية وإما، على العكس، غياب كلي لهذه السلطة.

ففي مثل هذه الأوضاع لا بدَّ من التأثير على الجيلين: بالنسبة للمراهقين يجب أن تتوضح لهم إيجابيات القبول بحرية الخضوع للسلطة، وبالنسبة للراشدين، فمن الضروري ان يتفهموا المراهقين ويتقبلوهم.

الفصل السادس

أزمة الهوية الذاتية

أولاً: تطور الهوية الذاتية

- تطور الهوية الذاتية من خلال مستوى علاقات المراهق بالآخرين
- تطور الهوية الذاتية من خلال مستوى حياة المراهق الخاصة

ثانياً: تحقيق الذات

١ - تحقيق الذات وولادة الأنا الواعي

٢ - التماهي بالمُثل في تحقيق الذات

٣ - تحقيق الذات والمثالية (الجانب الأخلاقي في المراهقة)

في السنوات الأولى من الحياة لا يعي الكائن ذاته، ولا يميز بين ذاته والعالم المحيط، ويتماهى بالأم وبالأشخاص الذين يعتنون به.

ثم فيما بعد، ونتيجة لنمو قدراته الحركية والإدراكية، يبدأ الطفل في الوعي والإدراك بأن هناك شيئاً ما، يفصل العالم المحيط عن ذاته التي لم يدركها إدراكاً كلياً بعد.

«فالأنا» يولد شيئاً فشيئاً لدى الطفل بواسطة الاستثارات الداخلية والخارجية التي يدركها. ويظلُّ «الأنا» مرتبطاً، فترة طويلة، بفكرة الجسم الذاتي والنشاطات الحسية والحركية والحاجات الأولية، ليتوصل في مرحلة لاحقة إلى عملية تكامل الإدراكات التي يجد لها نقاط ارتكاز بشكل يؤدي إلى فصلها عن مجموع تجاربه المختلفة. ففي هذه المرحلة من النمو تبدأ لدى الفرد حالة نفسانية من الاستقلالية الذاتية والفردانية التي لم تبلغ بعد مستوى الوعي الذاتي الحقيقي.

فالشكل الطبيعي الذي تتخذه المحاولات الأولية في تنظيم الإدراكات هو الشكل الأنوي (égocentrisme). واكتشاف الهوية الذاتية يتطابق عند الطفل مع الشعور بأنه يملك السيطرة على العالم الخارجي. إن هذه المرحلة هي مرحلة التفكير السحري، حيث يعتقد الطفل أنه يكفي التفكير بالشيء حتى يوجد هذا الشيء. فالطفل، في الواقع، يتعلم من خلال التجربة أن أشياء كثيرة تتحقق وفقاً لرغباته، وهذا ما يطلق عليه «بياجه» (Piaget) اسم المشاركة (participation).

وعند إدراك «الأنا» يصبح التمييز واضحاً بين ما هو موضوع تفكير وما هو موضوع إدراك. فتبدأ هذه المشاركة في الزوال ليحلَّ محلها الضبط العقلي. فإذا تقبّل الطفل الأشياء كما تبدو له (موقف طبيعي)، فإنه يصل شيئاً فشيئاً إلى مرحلة البحث عن عالم مستقل عن الظاهرات الأنوية (موقف موضوعي). فمع بناء «الأنا»

يتوافق بناء أطر تفسير عالم طبيعي واجتماعي، وبالتالي، فإن تطور الوعي الذاتي يتوافق مع الولوج في عالم الواقع أكثر فأكثر. وهذا التطور يرتبط بعملية التنشئة الاجتماعية للطفل (socialisation)التي تنتهي بعملية تميز واضح ما بين التفكير والواقع. إذن لا يمكن القول إن «الأنا» يبرز هكذا فجأة لدى المراهق، لأنه ليس صحيحاً ان الفرد يعي، في مرحلة المراهقة، فجأة ذاته ويدرك انه موجود وأنه شخص ما. أن الوعي الذاتي يتهيأ في مرحلة الطفولة كما بيَّن «اريكسون»[1].

وهذا الوعي يتأكد ويتوضَّح في المراهقة، لا لأن المراهق يستخدم وسائل جديدة لتأكيد ذاته، بل لأن كيفية وجود هذا «الأنا»، هي التي تصبح أكثر تنظيماً، وبالتالي أكثر وضوحاً.

فالمراهق يظلُّ محتفظاً بأنوية الطفل، مع الاختلاف بأن أنوية الطفل تظهر من خلال استخدام الآخرين وجعلهم أدوات له، بينما المراهق على العكس، فهو ينقل أنويته إلى الصعيدين العاطفي والعقلي: فهو لا يبحث عن استخدام الآخرين، بل يرغب في اكتساب تقديرهم وإعجابهم، وخصوصاً اهتمامهم. فهو بحاجة إلى اعتراف الآخرين به لكي يعترف بذاته.

إن وعي المراهق بذاته يتطور من خلال مستويين: مستوى العلاقات بالآخرين، ومستوى حياته الخاصة. وهذان المستويان يؤديان إلى اختلاف بين تصرف المراهق الخارجي وتصرفه الداخلي تجاه ذاته.

فالوعي الذاتي يدفع المراهق إلى العزلة والانطواء على الذات، مع الميل إلى السرية، وإلى موقف دفاعي يحمي به أسراره. إن التحقق من ميل المراهق إلى العزلة والوحدة يكون بالرجوع إلى مذكراته، أو الأشعار التي ينظمها. فهو يضنُّ، كما يقول «دبس» (Debesse)، بأن يطّلع أحد عليها أو يقرأها غريب، ويكتب عادة، على الصفحة الأولى: سري جداً، أو الرجاء عدم قراءتها قبل الموت...

---

١ ـ يمكن الرجوع الى نظرية «اريكسون» في الفصل الثاني من القسم الاول.

والانطواء هذا لا يهدف إلى غايات أو أهداف دينية أو غيرها، إذ إن اهتمام المراهق الأساسي هنا هو الذات، فهو يريد أن يعرف من هو وما سيكون عليه.

إن تصرف المراهق تجاه ذاته يؤدي من جهة إلى استثارة فكره، أو إلى ما يشبه التوتر الذهني الذي يعطي للفرد الشعور بأن شخصيته اغتنت وأن حياته العاطفية قد اكتملت، ومن جهة أخرى يجعل الآخرين ينظرون إليه كأناني وغير مبالٍ.

والواقع أن المراهق يجد نفسه في مرحلة استثنائية تجعله يستفيد من هذه التجارب الحميمة، ويكوِّن لنفسه رأسمالاً عاطفياً يساعده شيئاً فشيئاً في تفتح شخصيته. وإن مصادفة مراهق منفتح وسهل الارتباط الاجتماعي يميل إلى الحياة واللهو، لا تعني شيئاً مهماً بالنسبة إلى شخصيته العميقة التي تستمر في تطورها بشكل مستقل عن تصرفها الخارجي.

والوعي الذاتي لدى المراهق يتخذ وجهين: وعياً ذاتياً تجاه الآخر، ووعياً ذاتياً تجاه الذات. إن هذه الازدواجية تفسر إحساس المراهق، والأهمية التي يعطيها لأفعاله وعلاقاته مع المحيط. هذا الإحساس المفرط يمكن أن يكون مصدراً لعذابه ولكنه، في أغلب الأحيان، يترجم بإحساس للانفتاح على الحياة، فتصبح كل وضعية جديدة تعبيراً عن وضعية مهمة يهدف من ورائها استعراض ذاته واستثارة إعجاب الآخرين به.

إن هذه الاستعراضية الذاتية عبَّر عنها «دبس» في كتابه «الغرابة عند الأحداث»[٢]، بالميل إلى التجديد والرغبة في إظهار الذات (excentricité)، سواء كان في اللبس أم في الجدل العقلي «ففي اختيار الثياب يميل المراهق إلى التمايز والتفرد، غايته ليس اتباع الموضة بقدر ما يقصد الاستثارة ولفت النظر.

ومن طريق الحكم العقلي والجدل، يحاول المراهق أن يدفع بذاته إلى استكشاف عالم المفاهيم: فمناقشة المبادئ والطرح السليم والرفض المنطقي ليست جميعها سوى مظهر لبهلوانية فكرية. فالمراهق يدفع باستنتاجاته إلى حد التناقض والتمسك

٢- DEBESSE M.: La crise d'originalite juvenile (P.U.F).

بالنتائج مهما كانت، حتى ولو كانت تناقض الحقيقة: «إن جدلية المراهق تتم كما لو أن البرهان الذي توصَّل إليه لم يكن وسيلة للتحقق من صحة الأشياء، بقدر ما هو وسيلة لتجاوز هذه الحقيقة وإعطائها مظهراً جديداً، من طريق حكمه العقلي. فيظهر هذا الحكم كإحدى الوسائل التي يعمل بواسطتها على تحقيق ذاته».

تحقيق الذات عند المراهق

يتبع مرحلة الانطواء والاكتئاب واكتشاف الذات مرحلة ثانية هي مرحلة الثقة بهذه الذات وتحقيق إمكانياتها. وهذه الثقة تظهر من خلال تأكيده لذاته والاعتزاز بها. إذا سئل المراهق: من تريد أن تكون؟ يجيب: أريد أن أكون أنا نفسي!». فيجعل المراهق من ذاته محور كل حقيقة وكل دافع.

ووصول المراهق إلى تحقيق ذاته يصاحبه ولادة «الأنا» الواعي. فهنا يطرح السؤال التالي. هل يتطابق هذا «الأنا» الواعي مع «الأنا» الحقيقي ومع «الأنا» المثالي، أي «الأنا» الذي يريده المراهق أو يرغب فيه، ومع الصورة التي يكوِّنها المحيط عنه؟

يرى «دبس» «أن المراهق يحاول أحياناً أن يقدِّم للآخر عناصر مستمدة من الآخرين وكأنها منه، ليعطي لنفسه وللمحيط فكرة عالية عن قيمته. فالمشاريع الكبيرة التي يبنيها تعزِّز لديه وهم القوة الذي يعوِّض به عن الشعور بدونيته عندما يقارن سلطته بسلطة الراشد. فأحياناً يكذِّب على نفسه ويقلِّد في تصرفاته تصرفات شخصيات لها مركزها الاجتماعي، دون أن يميز بين ما هو طبيعي في تصرفه وما هو منقول[٣]».

لا بدَّ هنا من الإشارة إلى أن المراهق في فترة حماسه وتحفُّز «أناه» وتطوره، يقع في مبالغة تقدير ذاته. وهو بقدر ما يعزل نفسه عن العالم الخارجي بالانطواء والعزلة، بقدر ما تتسع الهوة بين «أناه» الحقيقي و«أناه» الممكن. في فترات الوحدة

---

٣ ـ DEBESSE M.: La crise d'originalité juvenile (P.U.F). _

تزول كل علاقة أو اتصال بالآخر ويتضخم لديه الشعور بالقوة والغلبة فيبدو للآخر أن هناك هوة بين ما يرغب به الكائن وبين ما هو ممكن. ولكن هذا لا يعني أن لدى المراهق نوعين من «الأنا» مختلفين، وأنما تنظيم لم يكتمل نهائياً «لأنا» لم يلتحم بعد بالواقع.

التماهي بالمُثل وتحقيق الذات

إن المراهق في بحثه عن ذاته بحاجة إلى سند خارجي لشعوره بصعوبات تشكل شخصيته الداخلية. فالسند العاطفي المتأتي من الأهل والأخوة والأصدقاء يبدو أنه عاجز عن مساعدته لأن المراهق يرفض المزج بين العنصر العاطفي والعنصر الأيديولوجي، ويخاف من استغلال الآخرين لهذا العنصر العاطفي في عملية ابتزازه.

ويظلُّ المراهق، في بحثه عن الشخص ـ السند، متأثراً بشيء من السلوك السحري ـ الطفلي (الفتاة تنتظر فارسها المخلِّص أو الساحرة لحلِّ مشاكلها).

والمثال الذي يستمد منه دعامة لشخصيته قد لا يكون واحداً من أفراد أسرته ولا من محيطه، بل انعكاس لذاته. ويظهر الميل لدى المراهقين في خلق مثالاتهم. فالإحصائيات تظهر أن الذكور يختارون أبطال الرياضة، بينما الإناث يخترن ممثلين وممثلات السينما. ولكن هذا الاختيار قابل للتغير، واختيار الرياضيين والممثلين يحلُّ محله اختيار الروائيين ورجال السياسة والزعماء السياسيين.

ولا شك أن صورة مثال المراهقين وصورتهم الذاتية، تكشف عن اهتماماتهم ومشاغلهم، وهي تتغير بحسب العمر.

في تحقيق أجري مع المراهقين حول الصفات الذكورية والأنثوية التي يودُّون أن تكون لهم، جاءت أغلب الإجابات مؤكدة، أولاً، على الصفات الجمالية: الأناقة، القوة الفيزيائية، القدرة الرياضية، وثانياً، على صفات الإرادة والسيطرة الذاتية والحس بالواجب والمثابرة والذكاء والإخلاص والشفقة... وعدد قليل من المراهقين

اقتصرت إجاباتهم على نفي وجود نمط مثالي، واعتبار أن المثال هو أن يكونوا هم ذاتهم.

وفي تحقيق آخر تبيَّن أنه بقدر ما يقترب المراهق من مرحلة الرشد، بقدر ما يصبح مثاله هو ذاته، فهو يرغب في تحقيق الصفات المثالية بنفسه دون تقليد للآخرين. وعدم التشبه بالآخرين هو تعبير عن الرغبة في عدم فقدان شخصيته.

المثالية وتحقيق الذات

إن المثالية تشكل جانباً بارزاً مهماً في وعي المراهق لذاته. إنها الجانب الأخلاقي الذي يلعب دوراً بارزاً في أزمة المراهقة، خصوصاً في مرحلة التضخم والمبالغة في تقدير الذات. وتكون مثالية المراهق شديدة التطرف تسير بحسب قانون «الكل أو لا شيء»، وهي مظهر طبيعي في هذه المرحلة، تجسِّد التعبير الأخلاقي عن توتراته ومعارضته للواقع.

أ ـ مظاهر المثالية

من مظاهر المثالية لدى المراهق الحاجة إلى الصراحة واحترام «الأنا» الداخلي لذي اكتشفه. من هنا، فإن اتهام الآخرين له بالكذب والمراوغة يؤلمه كثيراً. ويبدو الكذب له عملاً جباناً وخيانة تجاه الذات.

وتصبح مسألة الاحتفاظ بالسر وعدم البوح به من الشروط الأساسية التي تقوم عليها الصداقة، إذ لا يجوز اغتصاب بعض الأفكار والعواطف. والعلاقة بالصديق تحدِّدها قدرته على الوفاء والإخلاص والكتمان.

وتعطش المراهق إلى كل ما هو مثالي ومطلق، يخلق لديه شعوراً قوياً بمفاهيم الشرف والحس الخلقي. فهو يتألم من أعمال تبدو لنا أنها ليست ذات قيمة. والمبالغة في الحس الأخلاقي يجعله يتردد في القيام بأي فعل، لأن أقل خطأ يظهر له كأمر خطير لا يمكن إصلاحه.

ويكتسب المراهق الشعور بالمسؤولية، فهو إذا ارتكب خطأ ما، يعترف ويقرُّ

بهذا الخطأ، وهو يتحمل المسؤولية بكفاءة. ويكفي أن نعهد إليه بأمر ما، ليشعر أنه أصبح كبيراً وقادراً ومحلاً لثقة الراشدين، مما يقوي لديه الشعور والاعتزاز بذاته.إن هذه المبالغة في المشاعر الأخلاقية تولّد لدى المراهق فكرة عالية عن مفهوم الكمال الذي يسعى إلى بلوغه، وتدفعه إلى الشعور بالفاصل الكبير بين ما هو عليه، وما هو بحاجة إلى أن يكون عليه.

ب ـ التناقض في المثالية

لكن هذه المظاهر الأخلاقية لدى المراهقين تدفعنا إلى التساؤل: هل هي أخلاقية غايتها ذات المراهق أم غايتها علاقاته بالآخرين؟

الواقع أن الاهتمام الخلقي الكبير لدى المراهقين لا يخلو من التناقض والتأرجح. وغالباً ما يُلاحظ في تصرفاته ما ينم عن احتقار لبعض المبادئ الأخلاقية واللياقة والاحترام، معتبراً أنها تقييد لذاته التي اكتسبها. فمن هنا التذبذب في مواقفه وعلاقاته: تارة يتشدد ويبالغ في التعفف، وتارة يتخذ موقفاً لا يخلو من الخِسَّة؛ وتارة يظهر مثالية مفرطة يقابلها وقاحة ظاهرة.

يُفسَّر هذا التناقض في سلوك المراهقين بجهلهم العالم، وبنقصٍ في خبراتهم. فكونهم يجهلون شروط الفعل، فإنهم يبنون لأنفسهم عالماً مثالياً دون اكتراث بما يتطلبه تحقيقه.

النرجسية وتحقيق الذات

وتحقيق الذات عند المراهق ينعكس مبالغة في حب الذات واعتقاداً بأنه شخص مميز يمتلك قيمة فريدة. إن هذا الشعور يؤدي إلى التضخيم في قدراته والاستباق في تفكيره، فهو يرى نفسه متوجاً بالشهرة والمجد. والمراهقة هي مرحلة المشاعر القوية والطموحات التي ترمي إلى إصلاح المجتمعات وتغيير سلوك الناس. فالمراهق يطغي عليه الشعور بعظمة شأنه وفرادة عبقريته، ويدفعه هذا الشعور إلى الحكم على ذاته بأنه أعلى مرتبة وقيمة من الآخرين، مما يولّد لديه الرغبة في السيطرة والقيادة.

إن تضخم الذات لدى المراهقين تؤدي غالباً إلى شعور بالألم والعذاب النفسي، ولدى بعضهم إلى اضطرابات نفسية خطيرة. فالتوتر الداخلي يكون أشد بقدر ما تكون إرادة الضبط الذاتي أقوى. من هنا الرغبة لدى المراهقين في التخلص من الذات والتحرر من قوة وضغط «الأنا» الطاغي، وفك قيود العزلة والانكماش الذاتي، ومحاولة التعبير عن الذات بوسائل مختلفة بحسب شدة الأزمة التي يعاني منها. وهذه الوسائل تراوح من الاعتراف بمعاناته، من طريق الكتابة أو الرسم، إلى حالات عدم الثقة بالذات والشعور بانعدام الأمن والطمأنينة، فإلى الانتحار.

فالكتابة وتأليف الشعر وتدوين المذكرات تصبح جميعها وسيلة للتعبير عن مشاعره ومعاناته، وطريقة لتطهير «الأنا» وتثبيتها. وتتخذ الصداقة شكلاً من أشكال التخلص من المشاعر الطاغية والخروج من وحدة «الأنا»، كونها مظهراً جديداً لهذه الوحدة: وحدة شخصين يعطي كل واحد للآخر الصفات التي يرغب في أن تكون له، فيجعل المراهق من صديقه الكاتم لأسراره الذي يكلمه عن قلقه وعن تحفزاته، فهو والصديق يؤلفان وحدة متماسكة ضد المجتمع المرفوض، فمن هنا السرية التي تتصف بها الصداقة في المراهقة.

والانهيار الانفعالي، إلى جانب عدم الثقة بالذات والشعور بعدم الاطمئنان، تدفع جميعاً المراهق إلى اللجوء إلى أولياته الدفاعية لمحاولة ضبط هذه الانفعالات، معتبراً أن ذلك يحفظ له كرامة الذات التي توصَّل إليها. لكن محاولات الضبط الذاتي تولِّد لديه توترات شديدة لا يمكنه في أغلب الأحيان، السيطرة عليها، لذلك يلاحظ لدى المراهق الانفجار العنيف للخوف والغضب والفرح، والذي تتبعه حالات من الاكتئاب.

إن هذا الانفجار العشوائي هو سبب شعور المراهق بالخطر من قيمة ذاته، وشعوره بأنه ضحية انفعالاته. فالتوتر المستمر وغير المشبع يؤدي إلى حالة مزمنة من الاكتئاب والبرودة العاطفية. وبقدر ما تكون محاولات الضبط قوية، بقدر ما تكون هذه الاتجاهات واضحة، وحالة الاكتئاب يمكن أن تؤدي في النهاية إلى الانتحار.

إن الانتحار لدى المراهقين شائع وترتبط أسبابه بالحياة العاطفية التي تضغط عليهم، فتصبح هذه الوسيلة الطريق الوحيد التي يتخلص بواسطتها المراهق، نهائياً من «الأنا» الطاغي والنجاة من المأزق الواقع فيه.

والانتحار لدى المراهقين هو، في أغلب الأحيان، استجابة للضغط الذي يفرضه المحيط عليهم، وقساوة السلطة المفروضة من قبل الأهل، والعوائق التي تصدُّ إشباع رغباتهم الشخصية، والصعوبات التي يلاقونها في المدرسة أو في جماعات الرفاق، وصعوبات التكيف مع محيط جديد أو مع الجنس الآخر، ومشكلات اختيار المهنة، وضغط الأهل في هذا الاختيار.

وإذا كان بإمكاننا القول إن لجوء المراهق إلى الانتحار هو مظهر باثولوجي، فإن وسائل أخرى أكثر طبعية تشكل الوسيلة للهروب من الواقع المؤلم الذي يعيش فيه. فأحياناً كثيرة يجد المراهق في الأحلام الليلية وأحلام اليقظة الاطمئنان الذي يفتقر إليه، ففي الأحلام تتهاوى الصراعات ويصبح المراهق هو الحاكم بأمره والمنفذ لما يريده، وبواسطتها يتمكن من خلق ظروف بحيث يكون هو وحده الذي يسيطر وينتصر ويحقق الرغبات. وتحقيق الرغبات يتم أيضاً، إضافة إلى الأحلام، من طريق الحلم بالسفر البعيد والمغامرات، وأحياناً بتناول المخدرات.

إن تعقد الحياة أمام المراهقين نتيجة بؤس مكانتهم الاجتماعية، والبطالة، وعدم القيام بدور إنتاجي، والشعور بانعدام القيمة والقلق من المستقبل، وسوء تكيفهم مع واقعهم الاجتماعي، قد يكون من الأسباب الرئيسية في انتمائهم إلى الجماعات الهامشية التي يجدون فيها تنفيساً لهمومهم وصراعاتهم، والتي تتيح لهم فرص النسيان لمشكلاتهم ومعاناتهم من طريق الإدمان على الكحول والمخدرات، فتعاطي المخدرات اليوم أصبح ظاهرة خطيرة في المجتمعات الاستهلاكية التي يتولد فيها القلق العميق، نتيجةً لعدم إشباع طموحات مراهقيها أو تقديم معنى لحياتهم.

الفصل السابع

معوِّقات النمو في المراهقة

أولاً: الإدمان على المخدرات

١) كيف يمكن النظر إلى مشكلة الإدمان عند المراهقين

أ ـ النظر إلى المشكلة من زاوية شخصية المدمن

ب ـ النظر إلى المشكلة من زاوية البيئة الاجتماعية

ج ـ التلازم بين وجهتي النظر النفسية والاجتماعية

٢) دور التربية الأسرية

ـ دور التربية في المؤسسات التعليمية

ـ اقتراح برنامج ثقافة المخدرات

٣) تأثير استعمالها وأضرارها

ثانياً: سوء التكيف

١) التصنيف لأنواع التكيف

أ- عدم تكيف بيولوجي

ب- عدم تكيف نفسي

ج- عدم تكيف اجتماعي

٢) بعض اضطرابات سوء التكيف

ثالثاً: انتحار المراهقين

١) فكرة الموت والانتحار

٢) أسباب الانتحار لدى المراهقين

أ- أسباب ظرفية

ب- أسباب اجتماعية

ج- الانتماء إلى جماعات الرفاق

د- أسباب نفسية

رابعاً: أسباب عملية للتعامل مع المراهقين

١) العلاقات مع الأهل

٢) الحرية وحدودها

خامساً: نهاية أزمة المراهقة

- نهاية الإضطرابات العضوية التي تصاحب انتظام الوظائف الجنسية.

- الإنخراط في الحياة الاجتماعية والعمل

لقد تبيّن لنا من خلال ما عرضناه في الفصول السابقة، أن مرحلة المراهقة هي مرحلة الصراعات والمآزم، خصوصاً الصراعات مع الأهل والكبار الذين يمثلون المجتمع: أساتذة، مربون، أصحاب السلطة في أشكالها المختلفة. وهي أيضاً مرحلة الانخراط في «العُصب» حيث يجد المراهقون أفراداً مساوين لهم في العمر والمطالب. فالعلاقات العاطفية التي تنشأ بين هؤلاء تلعب دوراً مهماً في تحقيق الهوية الذاتية، وأهم ما يميز هذه المرحلة، أنها مرحلة الرفض للقيم والبحث عن التقويم الذاتي في إطار اجتماعي أو إنساني.

إن خصائص المراهقين النفسية والعاطفية والاجتماعية لا تعطينا صورة صحيحة عن خصوصية هذه الجماعة. والعمر وحده لا يفسر كل الخصوصيات، كون تأخر النمو وسرعته يتداخلان بشكل أساسي. والمحيط يشكل عاملاً مهماً، كما أنه لا يمكن تجاهل أهمية الانتماء الاجتماعي.

واليوم، وبفعل ما يحدث في المجتمع الكبير، فإن المراهقين تتنازعهم الأفكار السياسية والمواقف المتناقضة. وهم في غالبيتهم ملتزمون في حركات بعضها يناقض الآخر، وهم ربما كانوا نتيجة الانتقال القسري، أو بسبب ضرورات الحياة، يعيشون في مجمّعات سكنية مكتظة، ويعانون نتيجة لذلك شعوراً بالصد بسبب الضجيج وروتينية الحياة والتلوث في جميع أشكاله.

إذا كان بإمكاننا القول إن حياة المراهقين كانت تجري في السابق في إطار محيطين تقليديين: العائلة والمدرسة، فإننا نجد اليوم محيطاً آخر له تأثيره في حياة هؤلاء ونشاطهم، عنيت المحيط الذي تولّدت منه وسائل الإعلام المختلفة، وجعلتهم يعون ذواتهم وانتماءاتهم إلى فئة معينة بشكل أكبر، وهذا الوعي يمكن اعتباره ظاهرة من ظاهرات الوعي بالانتماء الطبقي أو الانتماء إلى ما تحت ـ ثقافة خاصة. فهذا الالتزام الجديد الذي غالباً ما يكون التزاماً لا واعياً يكوِّن المصدر الأساسي

«لتقاليع» المراهقين وتياراتهم الفكرية، وهذه «التقاليع» تبدو واضحة في تخاطب الأفراد وفي استعمالهم لرموز وتعابير خاصة.

إن وعي جماعة المراهقين والشباب لذواتهم ولانتماءاتهم إلى فئة خاصة، يدفعهم إلى أنماط من التصرفات التي تهدف إلى التغيير. فهم يرفضون التقاليد البالية ويطالبون بحقهم في المشاركة.

إلى جانب ذلك، هناك هامشية المراهقين، إذ إن بعضهم، نتيجةً للصدود التي يعانون منها، وخيبات الأمل في علاقاتهم، يتجمعون في جماعات «وحشية» أو جماعات متماسكة ويعيشون خارج إطار الجماعات الأخرى. وقد تتخذ هذه الجماعات شكل «عُصب» حيث يتواجدون بهدف تحقيق إنجازات تؤدي إلى تقويم لذاتهم. وقد تنزلق هذه «العُصب» إلى أعمال عدوانية أو تصرفات تؤدي إلى أشكال من الانحراف تنتهي بالجنوح أو بتشكل مواقف متطرفة سياسية أو دينية.

وهناك المشكلات الشخصية التي يعاني منها أفراد المراهقين أحياناً. فبعضهم يُظهر عن عدم توازن عاطفي واجتماعي يمكن إرجاعه إلى أسباب مختلفة نذكر منها:

أ ـ الحرمان العاطفي الذي يدفع إلى تصرفات تعويضية، والبحث عن مصادر عاطفية بديلة.

ب ـ الرغبة في تقويم الذات وتأكيدها، وهي تترجم بالحاجة إلى الاستعراضية الذاتية، من خلال الاستئثار بالكلام أو السخرية من الآخرين أحياناً.

ج ـ صعوبة الانخراط في الإطار الاجتماعي، مما يدفع، في أغلب الأحيان، إلى سلوك لا يخلو من الوقاحة والعدوانية.

د ـ النقص في الموضوعية والواقعية، بحيث يتولد منه نظرة متحيزة ومجزأة إلى الأحداث والأشخاص.

هـ ـ النقص في التنشئة الاجتماعية والأخلاقية، مما يؤدي إلى ردود فعل سلبية وميل إلى المقاومة (التمرد والانطوائية وعدم الاهتمام بالدراسة والتشتت الذهني واللاانتباه...) وهذه المقاومة تزداد كلما زادت السلطة في قساوتها.

كان لا بدَّ من هذه المعطيات الأولية قبل الكلام عن القضايا التي تعترض المراهقين في علاقاتهم مع الآخرين، والأخطار التي تهددهم، نتيجة لذلك، على صعيد صحتهم الجسدية والنفسية. إن أبرز هذه القضايا هي:

أولاً: الإدمان على المخدرات

تبيِّن الإحصائيات أن ظاهرة الإدمان تنتشر انتشاراً واسعاً في شرائح اجتماعية واسعة، خصوصاً في فئة الشباب. وإذا كانت هذه الفئة هي الأكثر تعرضاً لآفات التعاطي، فذلك يعود إلى أن معدلات الإدمان ترتفع مع ارتفاع نسبة عدم التكيف الاجتماعي والاضطراب النفسي. والظروف الاجتماعية تشكل دوافع ملائمة لازدياد نسبة المتعاطين للمخدر. ولا شك أن التركيبة الاجتماعية وما تعانيه من خلل في أوليات الحياة الطبيعية، وانعدام الأمن الاجتماعي، وانهيار سلَّم القيم، وانتشار البطالة والتشرد والتهجير، والاضطهاد السياسي والديني، جميعها تخلق مجموعة من البائسين وغير المتكيفين اجتماعياً، والمحبطين الذين يتبنون وسائل سهلة، لاعتقادهم بأنها توصلهم إلى الهدوء النفسي والعقلي.

كيف يمكن النظر إلى مشكلة الإدمان لدى المراهقين

لا يمكن النظر إلى هذه المشكلة من زاوية واحدة، لأن البحث في الأسباب التي تجعل من الفرد مدمناً على المخدرات يتطلب عمل فريق متكامل من الاختصاصيين يحاول كل واحد منهم، بحسب اختصاصه، إعطاء تفسير وتوضيح متناسبين مع وجهة نظر اختصاصه. فموضوع الإدمان هو موضوع يجب أن يطرح في كل أبعاده وأسبابه، وعلاقة شخصية المتعاطي بالبنية الاجتماعية ونوع القيم والمبادئ السائدة فيه.

فالبحث في الإدمان خصوصاً عند المراهقين والشباب من الناحية النفسية - الاجتماعية يدور في محورين أساسيين: أولاً، محور شخصية المتعاطي، وثانياً، محور البيئة الاجتماعية التي يتم فيها التعاطي.

أ ـ النظر إلى مشكلة الإدمان من زاوية شخصية المدمن

يركِّز علماء النفس بحوثهم في مشكلات الإدمان على نفسية الفرد وتفسير شخصيته، فيرجعون أسباب هذه المشكلة إلى ضعف نظام مقاومة النزوات لدى الفرد نتيجة لانعدام النضج النفسي والعاطفي، وعدم حصول «الأنا» في نموه على أواليات دفاعية تمكِّنه من صدٍّ طغيان الإغراءات، والسيطرة على الرغبات والإشباعات الآنية.

فافتقاد المراهق للدعائم الأساسية في تشكل شخصيته، هذه الدعائم الحامية التي تجعله قادراً على التكيف الصحيح، هو الذي يدفعه إلى تعاطي المخدرات، نظراً لاتصافه بالعجز وضعف طبعه وسيطرة عاطفته وميله إلى القلق. ولكي يتخلص من المخاوف التي تسيطر عليه يلجأ إلى الكحول أو المخدرات أو غيرها، فيكون تصرفه في التعاطي تعبيراً عن معاناة داخلية مقابل ضعف في الطبع والبنية التكوينية، مما يجعل منه كائناً عاجزاً أمام إغراءات العالم الخارجي، فيقع ضحية سهلة للانحراف الاجتماعي.

ب ـ النظر إلى مشكلة الإدمان من زاوية البيئة الاجتماعية

إن نمط القيم الاجتماعية السائدة وأساليب التعامل القائمة بين الأفراد، وخصوصاً أساليب العلاقات الأسرية، لها تأثير كبير في سلوك المراهقين وتكيفهم الاجتماعي. فإذا كانت الدلائل تشير إلى أن الفئة الأكثر تعاطياً للمخدرات هي فئة الشباب، فلأن مرحلة الشباب هي مرحلة صعبة بالنسبة إلى الفرد. إذ إنه مدفوع في هذه المرحلة إلى مجابهة الواقع والتفتيش عن هويته، وتأكيد ذاته من خلال لعب دور اجتماعي، واتخاذ مكانة تحقق له شرعة الاعتراف بهذه الهوية. فينشأ نتيجة لذلك صراع وتصادم بين القديم والجديد، وعدم الاعتراف بدور اجتماعي للمراهق، وعدم تقبل نضجه، والطريقة التي يتعامل بها الراشدون معه، اضافة الى التغيرات التي تحدث في حياته، تدفع جميعها به الى ايجاد مكان يحقق فيه الطمأنينة والأمن وتأكيد الذات. وقد يكون ذلك من طريق الانخراط في شلل أو عُصب الأحداث التي قد

تكون محلاً لانحرافات وهامشية يسودها أعمال العنف والتهالك على الكحول والمخدرات.

وبصورة عامة، يمكن القول ان الحروب وما تحدثه من مآسي وصراعات تسقط السلطة في رموزها ومؤسساتها، بدءاً بسلطة الدولة وانتهاءاً بسلطة الأب، وتنتقل السلطة الى من يجسد القوة والفعالية اللتين يستعين بهما الشباب، مما يؤدي لدى كثير منهم الى أنواع مختلفة، من التصرفات اللااجتماعية والانحرافية والى تعطيل القيم الاخلاقية، واستسهال الحلول والاستسلام الى الاشباعات الآنية، والهروب من الواقع من طريق الادمان: فأنهيار الآباء كمثال يحتذى به يؤدي لدى الأبناء الى الشعور بالترك والنبذ. وشعور الفرد انه وحيد ومعزول يسهِّل تهديده ويؤدي به الى حلول نكوصية، مثل ظهور النزعات العدوانية، وإعلاء النزوات الجنسية، والميل الى التسلط والعنف. فهذه كلها عوامل مساعدة للوقوع في اغراءات الإدمان.

التلازم بين وجهتي النظر النفسية والاجتماعية

ان وجهتي النظر النفسية والاجتماعية متلازمتان تلازماً ضرورياً. فالادمان هو مشكلة تترجم وتعبر عن بنية شخصية مضطربة، وعن بنية مجتمع يتصف بانهيار قيمه وتفكك نظام علاقاته الأسرية بخاصة. فالمتعاطي ـ المراهق يمكن اعتباره كائناً عاجزاً عن التكيف الاجتماعي، ويتصف بانهيار علاقته بواقعه ومحيطه.

من هنا أهمية البيئة والمؤتلف المحيطي. فاذا كان بعض المراهقين أكثر عرضة للوقوع في سلوك التعاطي من غيرهم، أو اذا كان بعضهم يجد صعوبة في التكيف الاجتماعي والانسجام مع واقعهم، فذلك يعود الى ما تهيأ لهم من ظروف اجتماعية وعلائقية ساعدتهم في عملية التكيف السليم، أو على العكس، اعاقتهم في ذلك.. بمعنى آخر، ان الذين يتوصلون الى التكيف الاجتماعي الصحيح هم الذين تهيأت لهم وسائل سليمة قادرة على توفير القيم الصحيحة ونقلها من طريق نظام من

العلاقات الواعية من ناحية، ووجود مجتمع منظم بقوانينه ومعاييره الأخلاقية والروحية من جهة ثانية.

اذن، للتربية الصحيحة، وبخاصة التربية الأسرية، الدور الأهم في تحصين الشباب وتجنبهم الانزلاق في تعاطي المخدر والوقاية من آفاته.

١) **دور التربية الأسرية**: أو ما يمكن ان نطلق عليه تسمية التنشئة الاجتماعية، من خلال نقل قيم ومعايير سليمة تدعم «أنا» الكائن في نموه، وتعمل على تنظيم حياته في بُعديها العاطفي والإجتماعي، وتوصله الى تشكيل وعيه الاجتماعي - الاخلاقي. فالفرد الذي تتهيأ له امكانية تماهي بصور عائلية جيدة، وان ينشىء علاقات سوية، يصبح قادراً على اجتياف واكتساب القيم التي تصبح فيما بعد القيم الاجتماعية - الاخلاقية، وتساعده في عملية التكيف النفسي والاجتماعي اللاحقين.

لا غرابة اذن في القول ان القاعدة السليمة هي في اعتبار ان كل شكل من أشكال التوجه الى التفكك الاجتماعي، وبالتالي التهيؤ الى سلوك انحرافي يعود في جوهره الى الاهمال في القيام بالعملية التربوية الصحيحة، وعلى الأخص العملية التربوية الأسرية ودينامياتها: من التوافق العاطفي والعلائقي بين الزوجين، الى الحضور الفعلي للوالدين والوجود العاطفي والسلطة العادلة والثابتة، الى اعتبار ان السلطة هي ليست قمعاً دائماً، بل هي أيضاً دعم وسند عاطفي. فالأسرة هي مركز اشباع حاجات الفرد الأساسية المادية منها والاجتماعية، وهي عامل التنشئة الاجتماعية ونقل القيم. فتوازن الكائن النفسي يتوقف على نمط الحياة الأسرية التي يعيش فيها. ويمكن التأكيد على أن كل ما يعيق عملية القبول والانخراط العائلي، يؤدي الى صعوبة تقبل المجتمع والانخراط فيه فيما بعد.

يُستخلص من ذلك ان مشكلة الادمان هي مشكلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنظام الشباب العلائقي، وخصوصاً نظام الأسرة. فالوقاية السليمة والفاعلة تكمن في جعل جميع المداخلات الوقائية والعلاجية - في حال ضرورتها - جزءاً من برنامج يراعى فيه البيئة الأسرية والمحيط العام. صحيح ان إمكانية تأثير الأسرة تضعف

في ظل أوضاع سياسية واجتماعية غير سليمة، وفي ظل أوضاع اقتصادية لا تستطيع فيها ان تؤمن الحاجات الأولية الضرورية لأولادها.. ولكن العمل الوقائي والارشادي هو، في نهاية المطاف، عمل سياسي في كل معنى الكلمة، كما تؤكد أكثر دراسات المهتمين بهذا الموضوع، وهو عمل يتطلب مجابهة مشكلات تتعدى المشكلة نفسها، لتشمل مشكلات اجتماعية كبرى: من مشكلة السكن الى مشكلة البطالة والتوجيه المهني ومشكلة الأمن الاجتماعي وتحسين مستوى الحياة الاقتصادية، هذه المشكلات التي تؤدي - في حال إيجاد الحلول لها - الى خفض مستوى القلق والاضطراب النفسي لدى المراهقين والشباب.

٢) دور التربية في المؤسسات التعليمية

للمدرسة دور تثقيفي الى جانب دورها التعليمي، ولكنها أهملت وما زالت تهمل وظيفتها التثقيفية، واقتصرت فقط على الوظائف التعليمية المحضة.

ان القضايا المتعلقة بالمشكلات السكانية والسياسات التنظيمية، وخصوصاً شؤون تنظيم الأسرة والثقافة الجنسية، لم توجد الحلول المناسبة لها الا من طريق طرحها بشكل صريح، ووضع البرامج والخطط المناسبة لها. وان انتشار تعاطي المخدرات اليوم بين المراهقين والشباب يمكن ان ينتج عنه آفات اجتماعية، ليس أقل خطراً منها مرض فقدان المناعة (مرض الايدز) والتأثيرات الأخرى المفجعة. فهذا الأمر يجب ان يكون حافزاً للاهتمام بالتثقيف الصحي والاجتماعي الى جانب التثقيف التعليمي، وجعل هذا التثقيف من ضمن البرامج والمناهج والممارسات التعليمية.

لا يمكن اليوم تجاهل القضايا التي تمس حياة الكائن وعلاقاته بالآخرين. وكما أنه لم يعد بالامكان تجاهل قوة الجذب الانفعالي الذي يلعب دوراً مهماً في استثارة الانتباه، عن طريق وسائل الاعلام والدعاية التي تقصفنا بمئات الاعلانات التي تستخدم الجنس كأحد المنشطات الانفعالية الأكثر جذباً، كذلك لم يعد بالامكان تجاهل قوة التأثير السينمائي والتلفزيوني التي تكشف لنا وتعرض بشكل عار مشكلات تعاطي الكحول والمخدرات في أكثر بلدان العالم.

ان المعرفة وحدها هي التي تجنب المراهقين والشباب الانزلاق والوقوع في المخاطر وصدّ طغيان الآفات الاجتماعية. وكما تعتبر اليوم الثقافة الجنسية ضرورة اجتماعية، كذلك يمكن القول بضرورة الثقافة فيما يخص المخدرات والكحول، أو ثقافة المخدرات من خلال المناقشة العلمية والموضوعية، مع مراعاة قوانين النمو وخصائصه.

٣) اقتراح برنامج ثقافة المخدرات

أولاً: المعرفة بالمواد المخدرة

أ ـ التعريف بالمخدر: ـ المواد المخدرة الشائعة (القهوة ـ الشاي ـ الدخان ـ الكحول....).

ـ المواد المخدرة المضرة والخطرة (الحشيشة والمارجوانا ـ L.S.D (المواد المهلوسة) ـ المنبهات والمنشطات (Amphetamines) ـ المسكنات (Barbiturique) ـ المستحضرات الأفيونية (الأفيون ـ المورفين ـ الهيروبين ـ الكودين) ـ الكوكايين.

ب ـ استعمالها الطبي:

ج ـ مراحل الادمان: مرحلة ما قبل الاعتياد ـ مرحلة الاقتراب من الادمان ـ مرحلة الادمان الحقيقي.

د ـ تأثير سوء استعمالها وأضرارها.

ـ الاعتياد الجسدي والاعتياد النفسي.

ـ تعطيل وظائف بعض الأعضاء.

ـ عطب رئوي (كثرة تعاطي الحشيشة مثلاً).

ـ اضطراب في خلايا الكبد والكلى (كثرة تعاطي المواد المنومة والمهدئة).

ـ نوبات قلبية (المنشطات).

- تصرفات اجتماعية خطرة (الكوكايين).

- عوارض عقلية (الهيجان العصابي - وهلوسة الادمان).

- خطر الجرعات المفرطة (الموت).

- خطر استعمال الحقن وتبادلها (انتقال الأمراض الخطيرة، خصوصاً الايدز).

- المهم في ثقافة المخدرات ان يدرك المراهقون ويفهم الشباب حقيقة المخدر، وليست الغاية التخويف من طريق المبالغة بأضراره. ان الوقاية هي في أن يدرك هؤلاء المراهقون انه اذا كانت المخدرات توصل الى شيء من النشوة والهدوء، فإنها تولد أيضاً القلق والهلع، وأحياناً الجنون والإصابة بأنواع عُصابية مؤقتة أو دائمة. وان عدم الحصول على الكمية اللازمة يحدث تصلباً عضلياً مؤلماً وتقيؤاً وتصبب العرق، وان الفرد عندما يصل الى درجة التبعية الجسدية والنفسية يعاني من آلام فيزيائية لا تحتمل.

تروي «جيل ارلند» (JILL IRELAND)[1] في كتابها "LA BRISEUR (Presse de la Cité) عن الآلام التي كان يعاني منها ابنها «جايسن» (JASON) الذي توفي اثر جرعة مفرطة.

يخاطب «جايسن» أمه قائلاً: «أنني لا أرى الا الموت والسواد حولي. انك لا تستطيعين ان تدركي كم أتألم. أنني أرغب الموت لأتخلص من آلامي».

وتصف «جيل» ابنها قبل موته بفترة قليلة: «بعد فترة من انقطاعه عن البيت سنحت لي فرصة ملاقاته فأصبت بصدمة عنيفة عندما رأيته: لقد فقد كثيراً من وزنه وبدا لي جسماً نحيلاً، عيناه تميلان الى الاصفرار ويداه ترتجفان ونظراته فارغة تتجنب مجابهة نظراتي».

إن لحظة اكتشاف الأهل ابنهم الذي يتعاطى المخدرات هي لحظة مؤلمة وصادّة.

١ - زوجة الممثل الشهير «شارل برنسن»: Jill Ireland. Charles Bronson.

فالصدمة وثورة الغضب التي تتحكم بهم قد تدفعهم الى تصرفات عنيفة تجاه أولادهم المتعاطين، تترجم اما بمواقف الرفض العنيف، واما بمواقف التسامح نتيجة لشعورهم بالشفقة تجاههم، ان كلا من هذين الموقفين له مساوئه ومضاره.

ان الأب الذي تنتابه ثورة جنونية، فيقدم على سجن ابنه في البيت، قد يكون سبباً في القضاء عليه، وربما موته، أو في كل الأحوال سبباً في هدم العلاقة بينه وبين ابنه نهائياً. أو الأم التي ينتابها شعور بالشفقة تجاه ولدها فتتغاضى عن سلوكه تصبح، بطريقة غير مباشرة، شريكة في ادمانه. فهي، نتيجة شفقتها وربما خوفها ـ تساهم في تثبيت عادة الادمان عند ابنها.

ان موقف الأب الذي عرف بتعاطي ولده المخدر، يقوم بوضعه أمام حقيقة سلوكه ولا يترك له مجالاً لاختراع الأكاذيب وإيجاد الأعذار. والأب الذي يعرف كيف يصارح ولده فيقول له «انني استطيع ان اتصور العذاب الذي تعانيه والشعور بالذنب من سرقة الأموال لشراء المخدر والخوف من ان يقبض عليك، ان كل هذا يجب ان ينتهي فأنت بحاجة الى المساعدة فسنساعدك!». هذا الأب الذي لم يتخلَّ عن ابنه، يشكل عامل الدعم والسند لإيصاله الى اعادة الاحترام لذاته، والانخراط مجدداً في المجتمع. فالشفقة مع المتعاطي لا تنفع، انه بحاجة الى قوتنا وليس الى ضعفنا.

ان المكاشفة الصريحة أمر ضروري، وعندما يحين وقت هذه المكاشفة فمن الأسلم تجنب المحاسبة عن مساوىء الماضي، وكل اهتمامنا يجب ان يتوجه الى الحاضر والمستقبل فقط.

ثانياً: سوء التكيف

ان عملية التكيف هي عملية ايجاد توازن مقبول مع الواقع الذي يعيش فيه الفرد. فكل فرد مدفوع من اجل البقاء والاستمرار في الحياة الى التكيف، أي إلى إيجاد طريقة لملاءمة «أناه» مع العالم المحيط. فاذا توافق مع الحد الوسط، واذا كان سلوكه هو سلوك كل فرد يخضع لشروط الحياة نفسها، فانه يعتبر «متكيفاً». ولكن اذا كانت هناك عوامل تعيق تكيفه ليتوافق مع الحد الوسط، فيقال انه «غير متكيف».

ان عملية التكيف في مرحلة المراهقة هي عملية صعبة وشاملة. فالمراهق الذي ينتقل من الطفولة يتوجب عليه التكيف بصورة مستمرة ومتجددة مع عالم جديد. لذلك، فان الاحداث غير المتكيفين كثيرون، ويتخذ سوء تكيفهم أشكالاً مختلفة صنّفها «روبير لافون»[٢] (ROBERT LAFON) حسب الترتيب التالي:

أ ـ عدم تكيف بيولوجي:

ـ اعاقات وعاهات.

ـ اضطرابات حسية.

ـ اضطرابات حركية.

ـ اضطرابات في الكلام.

ـ اعاقات جسمية وظيفية.

ب ـ عدم تكيف نفسي:

ـ اضطرابات في المزاج والطبع والذكاء.

ـ عدم كفاية عقلية.

ـ اضطرابات سلوكية.

ج ـ عدم تكيف اجتماعي:

ـ فقدان العاطفة العائلية.

ـ عدم تكيف مدرسي.

ـ ما قبل ـ جنوح.

ـ جنوح.

٢ـ Robert Lafon: vocabulaire de psychopédagogie (P.U.F). -

١ ـ بعض الاضطرابات من طبيعة بيولوجية

١) **الاضطرابات الحسية**: اضطراب الأعضاء الحسية وخصوصاً العينين والأذنين. ان اضطرابات الأعضاء هذه، هي مصدر أنواع كثيرة من سوء الادراك والفهم. فمثلاً الطالب ـ المراهق الذي يشكو من ضعف في النظر لن يقرأ مطلقاً بطريقة صحيحة، وطالب ـ مراهق آخر سمعه ضعيفاً لا يفهم الا جزءاً مما يقوله الاستاذ. فالتجربة تبرهن على ان المراهق يفضل اتهامه بالكسل لإخفاء عاهته الحقيقية، ولكي لا يجبر أحياناً على وضع نظارات أو جهاز للسمع.

ب) **الاضطرابات الحركية**: نتيجة اصابة الجهاز العصبي والجهاز العضلي. مثلاً على ذلك عدم امكانية التحكم بالعضلات العاصرة يمكن ان تؤدي الى البوال (ENURÉSIE)، التي هي سبب سوء التكيف الاجتماعي. وهناك الاضطرابات الجانبية واستعمال اليد اليسرى التي يمكن اعتبارها مصدر سوء تكيف مدرسي واجتماعي.

وبعض اضطرابات الكلام مثل التأتأة لها أحياناً سبب جسمي. ولكن كون الفرد يتأتىء، فان ذلك يشكل عائقاً لا يمكن تجاوزه في الفترة التي يجب على المراهق تأكيد ذاته.

٢) بعض الاضطرابات من طبيعة نفسية

أهم ما يحدث في مرحلة المراهقة من اضطرابات نفسية:

أ ـ الجمود والتبلد (APATHIE).

ب ـ التعب والارهاق (ASTHENIE).

ج ـ الانفعالية الزائدة (HYPEREMOTIVITE).

د ـ القلق والضيق.

هـ ـ الهروب.

و ـ الطفلية.

ز ـ السرقة.

ح ـ بعض أشكال اضطرابات القراءة والكتابة.

٣) بعض الاضطرابات من طبيعة اجتماعية

ان هذه الاضطرابات هي اضطرابات تقع بين النوعين السابقين من سوء التكيف. فاذا كانت الاضطرابات من طبيعة اجتماعية تتمحور حول شكلين أساسيين: اضطرابات الطبَع واضطرابات السلوك، ففي أغلب الأحيان يكون سببهما مصدر جسمي.

كما يمكن الاشارة هنا الى انه من أهم أسباب سوء التكيف الاجتماعي العائلة. انها المجال الأول لتجربة الفرد الاجتماعية. فوجود أو عدم وجود عائلة متجانسة، كلاهما يؤدي الى انواع من التصرفات اللااجتماعية.

ان اليتامى والأطفال المنبوذين يعانون، منذ البداية، من اعاقة يصعب تجاوزها. وتكيفهم يتوقف على الطريقة التي عرفوا بواسطتها ان يتحملوا هذه الوضعية غير السوية. ففي حال النجاح فان تكيفهم يكون كاملاً لاحقاً، لأنهم تعلموا ان يكافحوا منذ طفولتهم. اما الطفل المدلل والطفل الوحيد وأحياناً البكر، فانهم سيعانون غالباً من صعوبات في التكيف، نتيجة عدم اكتسابهم قواعد سليمة للعيش في المجتمع. تتجسد هذه الصعوبات في مظاهر غير مقبولة في مرحلة المراهقة (قضم الأظافر ـ مصّ الابهام ـ الخوف الليلي ـ الأرق ـ الاستمناء [الخصخصة] ـ الكذب ـ السرقة ـ الكسل ـ الغضب ـ عدم الاستقرار ـ الهروب ـ التشرد ـ الانتحار).

ومن مظاهر الصعوبات العلائقية لا بد من الاشارة الى سوء التكيف المدرسي. لقد اهتم حديثاً الدارسون بهذا النوع من سوء التكيف. وعلماء النفس المدرسي يتكلمون عن بعض العوامل المسببة لسوء التكيف هذا، مثل الخطأ في التوجيه أو كثافة الطلاب في الصف أو الكسل الكاذب.

ولكن سوء التكيف الاجتماعي الحقيقي قد كُشف عنه اليوم، وخصوصاً بواسطة وسائل الاعلام المختلفة (الصحف ـ الراديو ـ التلفزيون). فظاهرة جنوح الأحداث أصبح يُنظر اليها اليوم كشكل من أشكال سوء التكيف، وأصبح تعبير «الطفولة غير المتكيفة» يشتمل الآن أيضاً على المرضى النفسيين (انطباعيين وذهانيين وعصابيين)، وغير المتكيفين مدرسياً وعائلياً والجانحين (السارقين ـ والمومسات) أو ما قبل ـ الجانحين.

واليوم نجد ان وسائل مكافحة سوء التكيف بشكل عام، وخصوصاً بالنسبة للمراهقين، تتخذ الى جانب المساعدة الاجتماعية للطفولة والاصلاح الأبوي، شكل التوجه نحو اعادة التربية الاسرية لأنه تبيّن ان سوء التكيف والسلوك الانحرافي سببهما التركيبة الأسرية وليس شخصية المراهق، نتيجةً لسلطة الأهل التعسفية، أو غياب كلي لسلطة تربوية صحيحة أو سلطة متسامحة.

تبين الدراسات اليوم ان التربية التسلطية لا تمكن الفرد من تفريغ عدوانيته داخل الأسرة، والتربية المتسامحة كثيراً لا تضع حدوداً ضرورية لكل من الطفل والمراهق.

ولا شك ان التوافق وعدم التوافق بين الزوجين في الأسرة له نتائج على الحياة العائلية: فصورة الزوجين اذا كانت موضوع تبخيس من قبل المراهقين، أو موضوع تقدير، يؤثر في تعزيز أو اضعاف بنية شخصيته.

فيبدو اذن ان العامل العائلي يشكل العامل الأكثر تأثيراً في جنوح الأحداث. ولكننا نجد الى جانب هذه المتغيرات تأثير العوامل الثقافية واسلوب الحياة والمواقف من بعض النظم والقيم الاجتماعية: الأهل الذين يلجأون الى العقاب الجسدي، وادمان الأب والأم أو كليهما على الكحول أو المخدرات. ثم رفض المجتمع للمراهقين، وعدم تهيء الظروف لهم ليكونوا عامل انتاج في المجتمع. فالبطالة وعدم الانخراط في عمل انتاجي، وتحمل المسؤولية، هي من العوامل التي تدفع أيضاً الى السلوك المنحرف، اضافة الى القلق من المستقبل والفقر وعدم توفر الامكانيات المادية لتحقيق

الرغبات، وتأثير رفاق الشارع والحي، وانعدام الوسائل في امكانية ملء أوقات الفراغ، والشعور بالفشل في تحقيق الأماني.

ثالثاً: انتحار المراهقين

١) فكرة الموت والانتحار

ان مقولة الموت لدى المراهقين تشكل احدى الاهتمامات الفلسفية الأساسية. فالمراهق يتكلم عن الموت والانتحار بشكل مجرد. والدراسات الاحصائية تؤكد ان أغلب المراهقين يفكرون بالموت عامة، وبعضهم يفكر بموته وبالموت الارادي أحياناً.

فالسؤال الذي يطرح هو: ما معنى هذا الاهتمام وما سببه وما هي وظيفته؟ وما هي العلاقة بين الموت والانتحار؟

يرى «هاييم»[٣] (HAÏM) «ان فكرة الموت هي نتاج تطور الكائن العقلي والمعرفي: ان امكانية التعميم والتجريد، مصدر التفكير الفلسفي، هي التي تدفع بالمراهق الى الاهتمام بالموت. وربما أيضاً مصدر هذا الاهتمام القلق من فكرة الموت. ويساعد في هذا الاهتمام انبعاث نشاط النزوات السابقة (خصوصاً النزوات الجنسية)، التي تولد لدى المراهق الشعور بعدم امكانية السيطرة عليها. فهو يأمل، من طريق عقلنة الموت التوصل الى معرفة الموت دون استثارة القلق. فهنا نجد محاولة من قبل المراهق للتوفيق بين القلق والحاجة الى المعرفة».

والتعامل مع فكرة الموت هي ضرورة أساسية بالنسبة للمراهق، فهي احدى المقولات الكبرى في أوالية العقلنة[٤] لديه، فمن ناحية لها وظيفة انبنائية للنشاط المعرفي الذي هو في دور التنظيم، ومن ناحية ثانية لها وظيفة التسريع في معرفة العالم والآخرين والذات. فتوصل المراهق الى المعرفة بالموت يعني التوصل الى معرفة المشكلة الأولى التي تشغل فكر الانسان والتي تشكل أساس التفكير الفلسفي، ويعني أيضاً التوصل الى معرفة فكرتي الحياة والموت.

---

٣ ـ HAÏM ANDRÉ: Les suicides d'adolescents (Payot).

٤ ـ العقلنة: Intellectualisation.

ولكن هذه المحاولة من قبل المراهق في سبر أغوار الموت تصطدم بعجزه عن اختراق حدوده، وبالتالي فإنها تضعه في مجابهة جديدة هي، مجابهة الواقع. موت ذاته وموت المحيطين به. فهذه المجابهة المزدوجة تشكل حجر الزاوية لادراك الواقع. والعقلنة لدى المراهق تشكل أيضاً وسيلة دفاعية ضد الشحنات، أو وسيلة تسوية تمكنها من التعبير دون خطر. فالمراهق، بواسطة فكرة الموت، يمكنه ان يسيطر على العدوانية المتأتية من الداخل والعدوانية المتأتية من الخارج.

٢) أسباب الانتحار لدى المراهقين

تجمع الدراسات في تحليل أسباب الانتحار لدى المراهقين، على وجود أسباب كثيرة ومتنوعة تختلف باختلاف الأفراد واختلاف البيئة الاجتماعية والظروف التي يعيش فيها الفرد. ويتبين من هذه الدراسات ان أهم الأسباب التي تدفع المراهقين الى الانتحار أو محاولة الانتحار هي:

أ ـ **أسباب ظرفية**: يمكن ربطها بالأحداث التي يعيشها المراهق، انطلاقاً من الأحداث البسيطة الى الأحداث الأشد خطورة، وهي تتعلق في أكثرها بنظام العلاقات القائمة بين المراهق وأهله من جهة، وعلاقاته بالآخرين من جهة ثانية. ويمكن تحديد هذه الأحداث بالشكل التالي: المنع المفروض على المراهق في البقاء خارج المنزل لوقت متأخر، رفض الأهل تحقيق بعض من متطلباته، قصور الأهل المادي لشراء ما يرغب به، المشاحنات مع الرفاق، الفشل المدرسي، علاقة فاشلة مع الجنس الآخر، ادخاله في مدرسة داخلية، انهيار وضع الأسرة الاجتماعي ـ الاقتصادي، فقدان شخص عزيز، وخصوصاً الأب أو أحد المقربين.

ب ـ أسباب اجتماعية: يمكن تصنيفها بنوعين[٥ و٦]:

١ ـ أسباب عائلية:

ـ التفكك العائلي

---

٥ ـ HAÏM ANDRÉ: Op. Cit., p.13. -

٦ ـ ARLETTE MOULLEMBÉ - FLORENCE TIANO - G. ANAVI -
C.ANAVI = Les conduites suicidaires (bulletin de psychologie XXVIII 313 - 1973 - 1974 (15-18).

ـ انعدام الأمن والعاطفة نتيجة عوامل مختلفة أهمها: تعاطي الأب أو الأم الكحول ـ المشاحنات بين الزوجين ـ غياب أحد الوالدين ـ موت الوالدين أو أحدهم ـ مرض الأهل الطويل.

ولقد استأثر الاهتمام في دراسة الأسباب العائلية بمشكلة غياب الأب انطلاقاً من فكرة ان سلطة الأب وعاطفة الأم هما الركنان الأساسيان في توازن العلاقات الأسرية. فالسلطة ليست قمعاً دائماً، بل هي أيضاً سند ودعم عاطفي. فالأب الذي لا يعرف الا القساوة، ولا يستطيع تأكيد ذاته الا من خلال الصراخ والعقاب الجسدي، لا يمكنه ان يفرض السلطة العادلة والثابتة، فينشأ الأبناء على فكرة السلطة القاسية والقمعية، وعندما يصلون الى مرحلة المراهقة فانهم يستجيبون بطريقة عدوانية مماثلة.

التحليل الفرويدي: اعتبر ان وظيفة الأب ذات أهمية كبيرة في مرحلة المراهقة، أولاً للخروج نهائياً من «الأوديب»، ثم ثانياً من اجل تكامل الاستقلالية واعادة تنظيم الواقع الذاتي. والخلل في الصور العائلية في مجموعها، في الوقت الذي يحصل فيه انبعاث جديد للشحنات السابقة، يمكن ان يكون له التأثير الكبير على مصير الميل الاندثاري القوي في هذه المرحلة.

ب ـ أسباب اجتماعية: تظهر الدراسات على أن مستوى الأسرة الاجتماعي ـ الاقتصادي والمستوى الثقافي ليس لهما تأثير كبير في دوافع الانتحار لدى المراهقين. فلقد تبين من هذه الدراسات ان المراهقين الذين ينتحرون أو يحاولون الانتحار ينتمون الى جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل متعادل. وكذلك عامل السكن الذي يؤثر فقط في حال شكل انعكاساً لمآزم عاطفية.

فالسبب الاجتماعي الأكثر تأثيراً يرجع الى الفشل المدرسي الذي يعيشه المراهق كجرح نرجسي عميق. ومما يزيد في خطورة هذا العامل، موقف الأهل الذين يسقطون الآمال على ابنائهم ويأملون تحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه من خلالهم. فيلجأون الى استعمال القمع والقوة للوصول الى ما يبتغون.

وهكذا، فان الفشل المدرسي يشكل نقطة التقاء ظروف سلبية وشكل خاص من التوظيف والتأثير القمعيين.

ج ـ الانتماء الى جماعات الرفاق

ان عجز المراهق عن الانخراط في مجموعة ما، أو بمعنى آخر، عزلة المراهق الاجتماعية، هي ظاهرة ترجع في الواقع الى مرحلة الطفولة. وهذا العزل الاجتماعي يتخذ أشكالاً مختلفة:

ـ العزل نتيجةً لشعور المراهق بضعفه وعجزه عن تحمل المنافسة ضمن المجموعة.

ـ العزل نتيجة للنظر الى المجموعة على أنها ليست بذي فائدة، وان الانتماء اليها لا يعود عليه بأي نفع.

ـ وأحياناً يكون العزل نتيجة لشعور المراهق بأنه لا يملك الحق في ترك أهله لأنه يشعر بالارتياح معهم.

فاستمرار العلاقة الطفلية السابقة بين المراهق وأمه، وظهور الأب كأول غريب في علاقة الأم / الطفل، واستحالة تخطي العلاقة الثلاثية، تشكل جميعها العوامل التي تفسر عدم امكانية التنشئة الاجتماعية.

من المعلوم اليوم ان الانتماء الى عُصب الأحداث، له نتائج ايجابية بالنسبة الى المراهق:

ـ ينزع عن المراهق الميل الى الاندثار الذاتي من خلال تفريغ العدوانية في تصرفات جماعية.

ـ يعزز ويقوي الميول «اللبيدية»، وبالتالي يعزز الأواليات الدفاعية ضد شحنات الاندثار والموت.

ـ اتحاد الطاقات يقوي مشاعر الحماية ضد اتحاد الأخطار الخارجية المتأتية من عالم الراشدين.

هكذا فان العزل الاجتماعي يعيق تشكل الأواليات الدفاعية ضد الميول الاندثارية.

د ـ أسباب نفسية

ان بعض الخصائص النفسية تظهر بشكل ثابت، وتبين خاصية مزدوجة: قدمها وتثبيتها.

١ ـ **خصائص المزاج**: التي أساسها ليس الخور بل شكل من أشكال الكآبة وعدم الرضى المستمرين والعميقين اللذين يسترهما نشاط زائد ظاهري. واستجابات الخيبة والخجل هي أكثر شيوعاً من مشاعر الذنب. ان هذه الخصائص جميعها ذات علاقة بقلق منتشر من نمط سلفي لا يشبه مطلقاً قلق الخصاء بسبب خاصيته الكثيفة التي لا لبس فيها ولا بروز. ان المراهق الذي لا يعرف الا قانون «الكل أو لا شيء» يمكن ان يكشف عن مزاج ضعيف.

٢ ـ **اضطراب الارصان**: الذي هو في الأساس اضطراب ناتج عن عجز في التفكير والتعبير اللفظي للمُعاش العاطفي والانفعالي. وبشكل عام فان هذا الاضطراب شبيه بالاضطرابات التي تلاحظ عند الجانحين وفي بعض الاضطرابات النفسبدنية، ويؤلف حلقة من الحلقات التي تربط هذين النمطين من السلوك. والانتحار يتعلق بهذين النمطين، أولاً كفعل وثانياً كتدمير ذاتي.

ان اعتماد المراهق العقلنة لا يمنع وجود هذا الاضطراب. فالعقلنة عادة، وبفعل وظيفتها الدفاعية والنمائية، هي مرحلة من مراحل النمو الارصاني، وهي مشحونة بالعاطفة ولها تأثير في تنظيم الانفعال. ولكنها هنا، على العكس، تبنى على فراغ، والكلمات لا تحمل أي شحنة عاطفية.

٣ ـ **تنظيم مثال الأنا**: يظهر أيضاً خصائص نفسية. فالأمر يتعلق بمثال «أنا» سلفي وعظامي مع خصائصه الطبيعية: مطلب المطلق ـ غياب أو عدم كفاية في التغير. ويمكن الاشارة هنا الى العجز عن التكامل الزمني، إذ إن الزمن المُعاش

بالنسبة للمراهقين الذين يُقدِمون على الانتحار لا يحتوي لا على فكرة الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل. وفي الوقت نفسه، سلوك الانتظار الذي ينظم الفعل، والذي يشكل سلوكاً مؤجلاً يصبح سلوكاً لا يحتمل.

ان هذه الاضطرابات ليست بالضرورة اضطرابات مكثفة، ويمكن ان تظل خفية، ولكنها في الواقع متجذرة بعمق. وهي تُصاحَب بعدم امكانية تحمل الصدّ، وشدة الاحباط تترجم درجة العذاب والألم أمام العجز في امكانية التأثير على الواقع للتوصل الى اشباع الرغبات. وأحياناً الاحباطات المتلاحقة يمكن ان تأخذ شكل النقد الذاتي الذي يخفي متطلبات على مستوى مثال الأنا. ولا شك ان الميل المطلق والمتطلبات تجاه الذات نجدها لدى جميع المراهقين. ولكن المراهقين الذين يحاولون الانتحار يتميزون بأن مثال «الأنا» السلفي لديهم يظهر قبل البلوغ، واثناء المراهقة يلاحظ من خلال تثبيته وصلابته وعدم تأثيره التدريجي بواسطة اختيار الواقع. فكل مجابهة مع الواقع ليست عامل تطور، بل جرح وتعزيز لوضعيات سلفية.

ج ـ عدم كفاية الأواليات الدفاعية الطبيعية

ان هذه الخاصية هي احدى السمات الأكثر ثباتاً لدى جميع الأحداث الذين يقدمون على الانتحار. فالمراهق يملك وسائله الدفاعية ضد جروحه النرجسية وما يتعرض له مثال «الأنا» وفقدان الموضوع. ومن أهم هذه الوسائل أواليتان ولكنهما غير كافيتين:

١ ـ **حركية التوظيفات**: اننا نجد لدى جميع المراهقين الذين يقدمون على الانتحار العجز في رفع التوظيف عن الموضوع المخيب أو الضائع. وبالرغم من العذاب الذي يشعر به المراهق فانه يبقي على توظيفاته ويكرر تصرفاته ويجتر خيبته ويغلق ذاته عن كل ما هو آخر. بتثبيت خاص يشكل انحرافاً في عملية المراهقة الطبيعية.

٢ ـ **أوالية الاسقاط**: تجاه هذا التباعد الذي يشعر به ما بين رغباته وطموحاته المثالية من جهة والامكانيات المتواضعة المتوفرة له من جهة ثانية يستجيب المراهق

عادة، بواسطة أوالية دفاعية اسقطاية. وبحسب مستوى طموحه فانه يبني مشاريع وأنظمة نظرية تهدف الى جعل الواقع، لاحقاً، يتوافق مع الصورة المثالية التي كونها عن هذا الواقع، أو أنه يستجيب من خلال المحاولة في تعديل الواقع مباشرة بواسطة الانتقال الى الفعل الذي يمكن ان ينتهي بالجنوح.

ان هذه الأوالية لدى المراهق الذي يقدم على الانتحار، تكون معطلة أو غير كافية أو لا وجود لها على الاطلاق. فاما ان يوجه عندئذ عدوانيته مباشرة تجاه ذاته، واما ان يحاول التأثير على الواقع في مرحلة أولى من خلال الانتقال الى الفعل. ولكن أمام الاحباط الذي يصيبه فانه يتخلى عن ذلك ويوجه الى ذاته الفعل العدواني.

رابعاً: بعض الأساليب العملية في التعامل مع المراهقين

ان هذه القضايا جميعها، والتي تعترض حياة المراهقين، تعكس في واقع الأمر علاقاتنا معهم، هذه العلاقات التي اذا عرفنا كيف نقيمها وكيف نتجاوز صعوباتها، نتمكن من ان نجنب المراهق الكثير من المشكلات والأزمات التي تصادفه.

١) العلاقات مع الأهل

ما من أحد يشك في نوايا الأهل الطيبة في علاقاتهم مع أولادهم. ان كل أب وكل أم يريدان رؤية اولادهما سعداء يتمتعون بصحة نفسية وعقلية جيدة، ويعيشون في جو من الطمأنينة والأمن. ولكن جهودهما في تحقيق هذه الأهداف لا تنال أحياناً الا الخيبة والمعارضة.

ان المراهقين يعملون لكي يبرهنوا على أنهم أصبحوا راشدين وقادرين على أن يكونوا مستقلين، دون حاجة الى مساعدة الآخرين. اذ انهم يعتبرون كل مساعدة من الآخر تدخلاً في شؤونهم. فهم ينشدون الاستقلالية المطلقة، وكل من يضع عوائق أمام تحقيق ذلك، يُنظر اليه كعدو أو كخصم.

فالأهل أمام مأزق حقيقي: إذ كيف يمكنهم مساعدة مراهقيهم اذا كانت المساعدة غير مقبولة؟ وكيف يمكن التواصل معهم اذا كانت كل التفاتة منهم تعتبر اهانة؟ وما هي الشروط التي تضمن امكانية التعايش بين الأهل والمراهقين؟

يلجأ الأهل عادة الى مواقف عنيفة تجاه تصرفات أبنائهم، فيحاولون أولاً الشدة، فاذا لم تنجح انتقلوا الى اسلوب اللطافة، واذا فشلوا يميلون الى التوعية والوعظ. واذا لم تنجح جميع هذه الوسائل عمدوا الى اسلوب النقد والسخرية والرجوع الى التهديد والعقاب.

ولكن هذه الأساليب تعتمد اسلوب المجابهة والعدوانية التي يقابلها المراهق بعدوانية مماثلة.

ان مجابهة معارضة وثورة المراهق تفترض بعض الشروط التي تعتمد على معرفة حقيقة المراهقة وفهم عواملها ودينامياتها .لا بد أولاً من معرفة انها مرحلة الهيجان والتوتر ومرحلة الثورة ضد السلطة في مظاهرها المختلفة وضد التقاليد والأعراف. ان هذه المعرفة تدفعنا الى القبول بالمراهق كما هو. ولا بد أيضاً من معرفة ان المراهقة هي مرحلة الصراعات الداخلية والتأرجح في المواقف والمشاعر. فيجب ان ندرك ان المراهق هو في مرحلة النمو والتطور، وان تصرفاته هي انعكاس لطبيعة هذه المرحلة. فحقيقة المراهقة انها تحول من حال الى حال أخرى ومرحلة الانتقال من الطفولة الى مرحلة تشكل الشخصية، والتخلص من علائق المراحل السابقة التي كانت تربطه بالأهل، واقامة علاقات جديدة مع أترابه لكي يتوصل في النهاية الى هويته الذاتية.

ولا بد ثانياً من معرفة ان المراهق واقع في مأزم مع نفسه ومع العالم، فهو واقع تحت ضغط مشكلات لا يستطيع ان يجد لها حلولاً أو اجابات: مشكلة الوجود والحياة والموت. والمراهق يظن ان المخاوف وأنواع القلق التي تنتابه، هي مخاوف يشعر بها هو وحده ولا يدرك ان الناس جميعاً يشاركون في هذا القلق وهذا الشك.

● ولا بد أخيراً من معرفة أن المراهق هو في مرحلة التفتيش عن هويته. فهو قلق على ذاته، وغير متأكد مما يريد أن يكون عليه، بالرغم من أنه متأكد مما لا يريد أن يكون عليه، وهو يعارض ويثور لا حُباً بالمعارضة والثورة، بل لكي يحقق ذاتيّته واستقلاليته.

إن المعرفة بهذه الأمور تدفعنا إلى اتخاذ مواقف المساعدة. فالسؤال الذي يُطرح: ما هي مبادئ هذه المساعدة التي يمكننا تقديمها للمراهق؟

أولاً: القبول بقلقه لأن المراهقة ـ إذا أدركنا حقيقتها ـ لايمكن أن تكون مرحلة سعيدة بشكل مستمر. إن المراهق يمرُّ بفترات من الشك والألم واليأس، لأن مرحلة المراهقة هي مرحلة التطلعات الكونية والأهواء الخفية ومرحلة التيقظ على المشكلات الاجتماعية والمعاناة الداخلية، وهي أيضاً مرحلة التناقضات وثنائية المواقف والمشاعر.

يقول كل من «هاييم» و«جينت»[٧] (Dr. Haïm, G.Ginott): «... فهي (مرحلة المراهقة) على الإجمال مرحلة تشكل الشخصية وبناء «الأنا». فلا فائدة من أن نسأل المراهق ما الذي يقلقك، وماذا يحدث لك؟... فهو لا يستطيع الإجابة عن ذلك. وفي حال معرفته بحالته فهو عاجز عن أن يقول «إنني ممزق بين مشاعر متناقضة، وأنا أصارع في خضم شحنات عبثية، والرغبات اللاعقلانية تتآكلني... إنني أشعر أنني مصدود وأشعر أنني عاشق ولكن لا أعرف أي فتاة. إنني أشعر بطاقة قوية في داخلي لا أعرف أين أوجهها، فأنا أبحث عن فرصة لكي أفعل شيئاً وأمارس قوتي».

إن مساعدة المراهق واجب حتمي. والمساعدة أمر يتعلق بالتجربة والممارسة أكثر مما تتعلق بالكلام. فالأهل يمكنهم مساعدة مراهقيهم، بقبول هيجانهم وباحترام حاجاتهم إلى العزلة وبتقبل ثورتهم. والمهم أن لا نحاول أن نُظهر أننا نفهم ونعرف كل شيء عن حياته، لأن المراهق يعتبر أن انفعالاته هي انفعالات فريدة ومتمايزة. وعلينا أن نميز بين التقبل والقبول، والتقبل والعقاب، إذ علينا أن نسامح كثيراً ونعاقب قليلاً. ولا ينبغي أن يكون سلوكنا تجاههم سلوكاً ضاغطاً، لأن كثيراً من الراشدين يميلون إلى تحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه من خلال ابنائهم، وينشدون الكمال منهم فيتوقفون عند كل صغيرة مدّعين أنهم يعملون لصالحهم. إن

---

٧ - Dr. HAÏM G. GINOTT: Entre Parents et Adolescent (Coll. LAFFONT).

مثل هذه العلاقة تجعل من المستحيل التواصل بين الأهل والمراهقين. وقد يثير هذا الموقف المقاومة، ويدفع إلى رفض كل محاولة للإصلاح. فمساعدتنا في حال ارتكاب الخطأ أو الاصطدام بصعوبةٍ ما هي في تقديم الفرص للإكثار من التجارب التي تساعد على تشكل الطبع وبناء الشخصية، فهدفنا الأساسي يجب أن يكون منحه الرغبة والإرادة في أن يقدم بحسب قدرته.

ولا ينبغي أن نتوجه إليه بالإهانة المقصودة أو غير المقصودة. إن أهم ما يستثير المراهق هو تذكيره بالمرحلة التي كان فيها صغيراً، فهو يريد أن يضع مسافة بينه وبين طفولته ويرغب في أن يُنظر إليه وأن يُعامل كراشد. فالأهل والكبار عليهم مسؤولية القبول برغبته هذه، ومعاملتهم له يجب أن تمثل ما يلائم الكائن الراشد وليس الطفل الصغير. والمراهقون متعطشون إلى الاستقلالية، فبقدر ما يعطى لهم من إمكانية التصرف بمفردهم بقدر ما تنخفض عدوانيتهم، لأن الاتكالية في مرحلة المراهقة تنعكس سلوكاً عدوانياً. فالمراهق مدفوع إلى مقاومة رغبة الأهل في التدخل في كل أموره. فاحتراماً لشخصيته وكلما كان ذلك ممكناً يجب أن نمكّنه من أن يقوم هو نفسه بالاختبارات الملائمة وأن يستخدم قواه الذاتية. وإعطاء المراهق حق الاحتفاظ بأسراره يعني احترامه ومساعدته على التحرر والنضج. إن بعض الأهل يحاولون اغتصاب حياة مراهقيهم، فيقرأون رسائلهم، ويتنصتون على مكالماتهم الهاتفية، إن مثل هذه التصرفات هي اختراق لمجالهم الحيوي ولحياتهم الخاصة.

والمراهقون يتصفون بمثاليتهم المتطرفة، فهم يتألمون كثيراً من الآراء المبهمة والمتناقضة، ومن مواقف الأهل الذين يقولون غير ما يفعلون.

فالمراهق في تحفزه إلى الاستقلالية، يرغب في أن يشق طريقه بنفسه من خلال مجابهة الأزمات التي تعترضه. فعاطفتنا الصامتة هي أفضل مساعدة نقدمها له، لأن نصائحنا سترفض، ونوايانا الطيبة لن تكون مقبولة.

فالأهل والكبار المدركون والمتفهمون لمشكلات المراهقة، يقدمون للمراهقين أفضل الخدمات إذا كانوا يعرفون كيف يكونون متأهبين في وضعية الانتظار والتوقع.

٢) حياة المراهقين الاجتماعية: الحرية وحدودها

إن وضعية المراهق هي وضعية لا تخلو من المغالطة: فمن ناحية يشعر المراهق أنه أصبح راشداً يتألم من العوائق التي يضعها الأهل أمام تحرره واستقلاليته، ولكن من جهة ثانية فإن الأهل لا يمكنهم ترك الحرية الكاملة لأبنائهم. إن هذه الوضعية تشكل في أغلب الأحيان، أساس الصراع بين الأهل والمراهقين.

إن مسؤولية الأهل هي في وضع مبادئ وإقامة حدود للحرية والبرهنة على قيمتها، وعلى المراهقين أن يعرفوا ما هو موضوع احترام الأهل وما هو موضوع موافقتهم. فأمرٌ طبيعي أن يعارض المراهقون مبادئ الأهل وأن يقاوموا سلطتهم. إذ لا يمكن أن تتشكل شخصية الفرد بالرضوخ الأعمى والقبول المطلق. فمن واجبات الأهل التنبؤ بمشاعر أبنائهم ضد سلطتهم، وقبولهم بمواقفهم.

ولكن يجب أن يدرك الأهل أن هناك فرقاً بين المنع المطلق والدائم، والمنع الذي يضع حدوداً للحرية والتصرف. فلا ينبغي ان نتجاهل ما يفكر به المراهقون، وأن نمنع استجاباتهم الدفاعية بالغضب والثورة. على الأهل أن يفرضوا الحدود التي يؤمنون بها بطريقة تحفظ كرامة المراهقين ومواقفهم. ولا ينبغي أن تكون هذه الحدود اعتباطية أو خاضعة للمواقف الحالية، بل قائمة على مبادئ واضحة. والأسلوب الصحيح في التعامل مع المراهقين يجب أن ينطلق من التمييز بين المشاعر والأفعال. فلا بأس في أن يكون هناك هامش من التسامح في ما يتعلق بالمشاعر والرغبات، ولكن التشدد أمام كل تصرف غير مقبول يجب أن يكون أمراً ضرورياً.

إن احترام آراء المراهقين وعدم التبخيس في قيمة أحلامهم وطموحاتهم هي حقوق لهم. كما أن واجب التدخل في بعض الأفعال وتقويمها، هما من الحقوق المشروعة للأهل.

فما هو أفضل بكثير من النصائح، صورة الأهل والمحيطين لتوجيه المراهق في اتجاه طريق المسؤولية والوعي. وبصورة عامة إن البحث عن حرية وهمية من قبل المراهقين، هو نتيجة لتربية قاسية، أو لفقدان أي شكل من أشكال التربية. ففي كلا

الحالتين يشعر المراهق بالحاجة إلى الرغبة في فرض نفسه ككائن مختلف عن الراشدين، أكثر ما يشعر بالحاجة إلى الحرية. فالأهل الذين يفرضون عليه تربية غير متوافقة، يخلقون مناخاً من عدم الاطمئنان، فيحاول عندئذٍ التخلص من هذه التأثيرات الصادَّة ويتخذ الموقف الانسحابي باسم الحرية.

موقفان يعتبران سلبيين يتخذهما الأهل عادة تجاه مطلب الحرية من قبل المراهقين، في الموقف الأول نجد محاولة إظهار القوة من قبل الأهل، ومحاولة التثبت من منهما الأقوى. فيستجيب الأهل لعدوانية المراهق ووقاحته بحرمانه من الخروج من البيت أو بحرمانه من المال ... إلخ. وفي الموقف الثاني يستجيب الأهل للعدوانية والوقاحة بمحاولة عدم الاهتمام أو عدم الاكتراث، إما ظاهرياً وإما بطريقة مقنعة.

إن هذين الموقفين يؤديان إلى أن أزمة النمو في مرحلة المراهقة، التي هي أزمة مؤقتة، قد تصبح أساساً لنزاع عميق ومستمر بين المراهق والأهل.

إن المراهق الذي بدأ يعي ذاته يرغب في أن يرى في أهله قيم الراشدين، لأن الوعي بالذات يصاحب، في الوقت نفسه، بالوعي بالآخرين. فالمراهق لا يتطلب من الأهل الكمال الذي بدأ يدرك أنه وهم من الأوهام، بل يطلب أن يتحملوا بإخلاص مسؤوليتهم لمساعدته على تقبُّل ذاته.

خامساً: نهاية أزمة المراهقة:

في النهاية، إن السؤال الذي يمكن طرحه فيما يتعلق بنهاية أزمة المراهقة، هو كيف يتحقق التكيف الصحيح مع المحيط الذي يعيش فيه المراهق؟

تجمع الدراسات النفسية والاجتماعية اليوم، على أن نهاية أزمة المراهقة تتوقف على عوامل داخلية وخارجية، ولكنها تتمحور في شكلها العام بتحقيق شرطين أساسيين:

ـ الشرط الأول: أن تنتهي الاضطرابات العضوية التي تصاحب انتظام الوظائف الجنسية.

ـ الشرط الثاني: أن توظف الحياة الاجتماعية المراهق وتشغله.

في أكثر المجتمعات القائمة يحدث هذان الشرطان في وقت واحد. فالزواج والعمل في مهنة يمكنان الفرد من الانخراط في المجتمع ونظمه.

وقد تكون نهاية هذه الأزمة، بالنسبة لبعض المراهقين في نهاية دراستهم. وهي تتم بهدوء، خصوصاً لدى المراهقين والمراهقات الذين لم تبلغ أزمة المراهقة عندهم شدتها. ولكن التغير الجذري يحدث، في أغلب الأحيان، لدى التخرج والالتحاق بوظيفةٍ ما، مما يخلق الشعور بالاستقلالية عن الأهل، والتخلص من الاتكالية الاقتصادية. ولكن التكيف الأكمل يتم بالزواج الذي ينظِّم الوظائف الجنسية والوظائف الاجتماعية، كون الزواج هو المؤشر القانوني للإنجاب ولتأسيس عائلة، وهو، في الوقت نفسه، مصدر للثقة بالذات والتوازن العقلي ولعلاقات جديدة ومتعددة بالمحيط.

فالعيش المشترك الذي يفرضه الزواج يستوجب تنازلات متبادلة وانفصال عن عادات كثيرة. فالأمومة والأبوة يؤديان إلى ظهور حاجات ومشاعر وأفكار جديدة تكبت هموم وصراعات المراهقين، فيحدث، نتيجة لذلك، تغير جذري في البنية النفسية، إذ تتغير طريقة التفكير ويتبدل أسلوب التصرف.

يرى «دبس»(٨) انه اذا لم يحقق الزواج التكيف الجنسي والاجتماعي فأن الاضطرابات لدى الفرد تستمر أو تبعث من جديد. فحالات الطلاق هي نتيجة عدم التوافق في المزاج الذي تسببه رغبة أحد الزوجين، أو الاثنين معاً، في الحفاظ على ميوله وأفكاره وعاداته، أي البقاء كما كان مراهقاً».

والزواج والعمل يحرران الفرد من عائلته ويجعلانه مستقلاً: أولاً تحرر في السكن، وثانياً استقلال اقتصادي. وكلاهما مؤشر على انتهاء آخر الروابط المفروضة، وبهما يصبح مطلب المراهق في الاستقلال حقيقة واقعة.

٨ـ DEBESSE M.: La crise d'originalité juvénile (P.U.F). -

ولكن لا ينبغي أن نعتقد بأن المراهق يتخلى كلياً عن تمايزه وتفرده. إن كثيراً من الأفراد يتظاهرون بتكيفهم مع الواقع دون التنازل عن نرجسيتهم ومثاليتهم.

وفي حالات كثيرة، كما يقول «دبس»[٩] نجد لدى بعض المراهقين رفضاً واعياً أو غير واعٍ للدخول في مرحلة الرشد، وميلاً إلى البقاء في مرحلة المراهقة، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم تسمية الراشدين المراهقين والراشدين الرومانسيين إضافة إلى المضطربين عقلياً، الذين يتصفون بعدم تكيف مع الواقع.

---

٩ ـ المرجع نفسه .DEBESSE M

المراجع

الفصل الأول

- Cruchet R.: La puberté - dans "Pratique des maladies des enfants" Paris - Baillière.

- Gérard - Philippe Guasch: L'adolescent et son corps (Edition Universitaires).Paris 1973

- A-M. Rocheblave - Spenlé: L'adolescent et son monde. (Ed Universitaires Pairs 1969)

- Blos P.: Les adolescents (Ed. Stock). essais de psychanalyse paris 1967

- Gesell A.: L'adolescent de 10 à 16 ans (P.U.F.). paris 1970

- Burstin J.: Enfance No.2 (1957).

- Debesse M.: L'adolescence (que sais-je). Paris 1971 NO 102

- Kestemberg E.: Puberté et adolescence - Psychiatrie de l'enfant X, I.

- Avanzini G.: Le temps de l'adolescence (Ed. Universitaires).Paris 1965

- Male P.: Etude psychanalytique de l'adolescence. La psychanalyse d'aujourd'hui, tome I (P.U.F.).

- Marshall F. H.A.: The physiology of reproduction, Longmans, London.

- Asdell A.: Patterns of mammalian reproduction, Ithaca, New-York, Comstock.

- De Toni G.: L'accrescimento umano-La Scuola, Ed. Brescia. I ed

- Haïm André: Les suicides d'adolescents (Payot). Paris 1970

- سيكولوجية المراهقين للمربين: جلن مايزر بلير وستيوارت جونز - ترجمة د. أحمد عبد العزيز سلامة ود. ضياء الدين أبو الحب - دار النهضة العربية - الفصل الأول.

الفصل الثاني

- Gesell A.: L'adolescent de 10 à 16 ans (P.U.F.) Paris 1970

- Freud A.: Le Moi et les mécanismes de défense, chapt. XII (P.U.F.). Pairs 1969

- Freud S.: Trois essais sur la théorie de la sexualité (Gallimard).Pairs 1962

- Freud S.: Deuil et mélancolie - in métapsychologie - cité par Laplanche J. dans l'Article: les normes morales et sociales, leur impact dans la topique subjective - Bulletin de psychologie XXVI 307-1972-1973-14,16.

-Mucchielli R.: Comment ils deviennent délinquants (Coll. ESF). Pairs 1965

- Avanzini G.: Le temps de l'adolescent (Ed. Universitaires).Pairs 1965

- Erickson E TT. trd. Frençaise: Enfance et société (Delachaux et Niestlé). (chilloud and Society Norton N. York 1965

- Mendel G.: Crise des générations (P.B.P. Pairs 1971) - La révolte contre le père (P.B.P.) Pairs 1972.

- Mead M.: Moeurs et sexualité en Océanie (Ed. Plon) - Coming of age in Samoa - Penguin Books - London.

ـــ معاليقي عبد اللطيف د. : صراع الشباب والراشدين: صراع الأجيال أو صراع الثقافات، مجلة الوحدة، العدد ٣٩، كانون أول ١٩٨٧

ـــ حجازي عزت د.: الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها ـ عالم المعرفة، عدد ٦، الكويت.

الفصل الثالث

- De ToN i G.: L'accrescimento Umano-La Scuola Ed. Brescia. I. ed

- De Toni E.: - Aicardi G.-Duillo M.T.: Caractéristiques de la maturation pubertaire dans la population de l'Italie du Nord in adolescentologie, Symposium International - Fondation Carle Erba, Milan 1973.

- Debesse M.: Le Monde d'adolescent - Bulletin de psychologie No 203 T-XV 10-11-1962

- L'adolescence (que sais-je) Pairs 1971 No 102

- Ouillon H. in L'adolescent: La physiologie de l'adolescent (Bib. CEPL).

- Richard S. Lazarus: Personality الترجمة العربية، ترجمة د.سيد محمد غنيم، دار الشروق

- Tanner J.M.: Growth at adolescence-Oxford Blackwell 2nd Ed.

- Mendousse P.: L'âme de l'adolescent - in L'adolescence par Debesse M. (coll. Que sais-je), p.102.

- Piaget J. - Inhelder B.: De la logique de l'enfant à la logique de l'adulte (P.U.F.).

- Gemelli A. et Zunini G.: Introduzione alla psicologia (Società editrice Vita e Pensiero). 6e ed. 1961 MILAN

الفصل الرابع

- Freud S.: Trois essais sur la théorie de la sexualité (coll. Idée). Pairs 1962

- L'adolescence: Comprendre - Savoir -Agir (Bibl. CEPL).

- Ouillon: Le développement de la sexualité.

الفصل الخامس

- Origlia et Quillon: L'adolescent (E.S.F.)

- Haïm A. : Le suicide d'adolescents (Payot). Pairs 1970

الفصل السادس

Erickson: CHILHOOD and Society - Norton N - York 1956. - trd française : - Enfance et société (Delachaux et Niestlé)

- Adolescence et crise (Flammarion) trd Française FLAMMARION Paris 1972

- Debesse M.: La crise d'originalité juvénile (P.U.F.).

- Mendel G.: La crise des générations (P.U.F.). Pairs 1971

- Muchielli: Comment ils deviennent délinquants (E.S.F.) Pairs 1965

- Dr. Haïm G, G. Ginott: Entre parents et adolescent (coll. Laffont). Pairs 1969

المصطلحات

انكليزي	فرنسي	عربي
Pituitary Gland	Hypophyse	الغدة النخامية
Sympathetic	Sympathique	الجهاز العصبي السمباتي أو السمتاوي
Chromosoms	Chromosomes	الصبغيات
Organism	Organisme	المتعضى
Œdipus Conflicts	Conflits œdipiens	الصراعات الأوديبية
Ego	Le Moi	الأنا
Super ego	Sur-moi	الأنا الأعلى
latency (Stage)	Période de latence	مرحلة الكمون
Sublimation	Sublimation	التسامي أو الاستعلاء
Ambivalence	Ambivalence	ثنائية المشاعر
Phantasm	Fantasmes	هوامات
Body - image	Image du corps	الذات الجسمية
Displacement	Déplacement	ازاحة
Narcissism	Narcissisme	نرجسية
Auto - erotism	Auto-érotisme	غُلمي - ذاتي
Defense mechanisms	Mécanismes de défense	الأواليات الدفاعية
Ascetism	Ascétisme	التعفف
Intellectualization	Intellectualisation	العقلنة
Suprarenal Glands	Glandes Surrénales	الغدد الكظرية

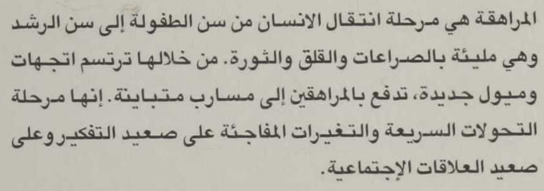
عربي	فرنسي	انكليزي
الغدد جارات الدرقية	Paratyroïdes	Parathyroïds
الغدة التيموسية	Thymus	Thymus
الغدة الدرقية	Tyroïde	Tyroïd Gland
النمط الضامر	Leptosome	Leptosom
النمط الرياضي	Athlétique	Athletic
النمط العصبي	Asthénique	Asthenic
النمط المختلط	Dysplastique	Dysplastic
النمط البديني	Picnique	Pyknic
بلوغ	Puberté	Puberty
وبر العانة	Poils pubiens	Pubic Hair
القذف	Ejaculation	Ejaculation
الحيض أو الطمث	Menstruation	Menstruation
المبيض	Ovaire	Ovaries
الرحم	Utérus	Uterus
المهبل	Vagin	Vagina
الفرج	Vulve	Vulva
الخصيتان	Testicules	testes
البويضة	Ovule	Ovum
القضيب	Pénis	Penis
كيس الخصيتين	Scrotum	Scrotum
الحي المنوي	Spermatozoïd	Spermatozoïd

انكليزي	فرنسي	عربي
Secondary Sex caracteristics	Caractères sexuels secondaires	الخصائص الجنسية الثانوية
Gonads	Gonades	الغدد الجنسية
Masturbation	Masturbation	استمناء أو خضخضة
Phobia	Phobie	خواف
Amenorrha	Aménorrhée	توقف أو انقطاع الحيض
Depression	Dépression	خور
Repression	Refoulement	كبت
Age Norm	Norme d'âge	معيار العمر
Metabolism	Métabolisme	الايض

الفهرس



هذا الكتاب



المراهقة هي مرحلة انتقال الانسان من سن الطفولة إلى سن الرشد وهي مليئة بالصراعات والقلق والثورة. من خلالها ترتسم اتجهات وميول جديدة، تدفع بالمراهقين إلى مسارب متباينة. إنها مرحلة التحولات السريعة والتغيرات المفاجئة على صعيد التفكير وعلى صعيد العلاقات الإجتماعية.

كما انها مرحلة تنمو فيها الدوافع باتجاه النقد والنقاش والتحليل، والتي قد تتعارض مع النمو السريع والمفاجئ، ومع قلة الخبرة ومحدوديتها.

لهذا كله، فإن دراسة مرحلة المراهقة تفترض الدّقة العلمية والتحليل الموضوعي لمسألة من أخطر المسائل. وأي معالجة لهذا الموضوع خارج تلك الدقة وذلك التحليل سوف تحمل نتائج مدمّرة على جيل القيادة المستقبلي (المراهقون).

وكتاب الدكتور معاليقي هذا، يعالج المسألة بالدقة العلمية المطلوبة والتحليل الموضوعي المنشود، والذي يتطلبه موضوع حساس جداً كالمراهقة.

الناشر